جورج أورويل

الصعود إلى الهواء

رواية



مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم
MOHAMMED BIN RASHID AL MAKTOUM FOUNDATION

دار الفارابي

رسالة مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

عزيزي القارئ،

في عصر يتسم بالمعرفة والمعلوماتية والانفتاح على الآخر، تنظر مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم إلى الترجمة على أنها الوسيلة المثلى لاستيعاب المعارف العالمية، فهي من أهم أدوات النهضة المنشودة، وتؤمن المؤسسة بأن إحياء حركة الترجمة، وجعلها محركاً فاعلاً من محركات التنمية واقتصاد المعرفة في الوطن العربي، مشروع بالغ الأهمية ولا ينبغي الإمعان في تأخيره.

فمتوسط ما تترجمه المؤسسات الثقافية ودور النشر العربية مجتمعة، في العام الواحد، لا يتعدى كتاباً واحداً لكل مليون شخص، بينما تترجم دول منفردة في العالم أضعاف ما تترجمه الدول العربية جميعها.

أطلقت المؤسسة برنامج «ترجم»، بهدف إثراء المكتبة العربية بأفضل ما قدمه الفكر العالمي من معارف وعلوم، عبر نقلها إلى العربية، والعمل على إظهار الوجه الحضاري للأمة عن طريق ترجمة الإبداعات العربية إلى لغات العالم.

ومن التباشير الأولى لهذا البرنامج إطلاق خطة لترجمة ألف كتاب من اللغات العالمية إلى اللغة العربية خلال ثلاث سنوات، أي بمعدل كتاب في اليوم الواحد.

وتأمل مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم في أن يكون هذا البرنامج الاستراتيجي تجسيداً عملياً لرسالة المؤسسة المتمثلة في تمكين الأجيال القادمة من ابتكار وتطوير حلول مستدامة لمواجهة التحديات، عن طريق نشر المعرفة، ورعاية الأفكار الخلاقة التي تقود إلى إبداعات حقيقية، إضافة إلى بناء جسور الحوار بين الشعوب والحضارات.

للمزيد من المعلومات عن برنامج «ترجم» والبرامج الأخرى المنضوية تحت قطاع الثقافة، يمكن زيارة موقع المؤسسة www.mbrfoundation.ae

عن المؤسسة

انطلقت مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم بمبادرة كريمة من صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم نائب رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي، وقد أعلن صاحب السمو عن تأسيسها، لأول مرة، في كلمته أمام المنتدى الاقتصادي العالمي في البحر الميت - الأردن في أيار/مايو 2007. وتحظى هذه المؤسسة باهتمام ودعم كبيرين من سموه، وقد قام بتخصيص وقف لها قدره 37 مليار درهم (10 مليارات دولار).

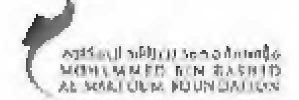
وتسعى مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، كما أراد لها مؤسسها، إلى تمكين الأجيال الشابة في الوطن العربي، من امتلاك المعرفة وتوظيفها بأفضل وجه ممكن لمواجهة تحديات التنمية، وابتكار حلول مستدامة مستمدة من الواقع، للتعامل مع التحديات التي تواجه مجتمعاتهم.

جورج اورويل

الصعود إلى الهواء

رواية

ترجمة: أسعد الحسين





القسم الأول

1

خطرت الفكرة لي يوم وضعت فيه طاقم أسناني الاصطناعية الجديدة، وإني أتذكر ذلك الصباح جيداً، ففي الثامنة إلا الربع منه هرولت من الفراش مسرعاً لأدخل الحمام قبل أن يشغله الأولاد. كان صباحاً قاسياً ومقيتاً من أيام كانون الثاني (يناير) بسمائه الرمادية المصفرّة المعكرة، ورأيت من نافذة الحمام المربعة الصغيرة ما أسميناه حديقة خلفية والتي هي عبارة عن مستطيل من العشب لا تتجاوز أبعاده العشرة ياردات طولاً بخمسة عرضاً وفي وسطها بقعة جرداء مسوّرة بنباتات الجناب، وإنك لتجد مثل هذه الحديقة في كل بيت من بيوت منطقة إيلسميررود مع اختلاف وحيد وهو غياب تلك البقع إن لم يكن في العائلة أولاد صغار.

كنت أجهد كي أحلق ذقني بشفرة حلاقة لم تكن تساعدني كثيراً بينما والماء ينساب في الحمام. نظرت إلى

وجهي في المرآة فرأيت في الأسفل طاقم الأسنان المؤقتة على رف المغسلة الصغير داخل قدح من الماء، وقد أعدها لي الطبيب وورنر إلى أن يتم تصنيع طاقم أسنان جديدة دائمة لي. في الحقيقة إنّ وجهي ليس قبيحاً جداً فهو بحمرة القرميد وشعري أصفر بلون الزبدة وعيناي زرقاوان باهتتان، وحمدت الله لأن شعري لم يخطه الشيب، ولم يتمكّن منه الصلع، وهكذا بعد أن أضع طاقم أسناني الجديدة فقد لا أبدو في السادسة والأربعين وهو عمري الحقيقي.

دوّنت في مفكرتي أن اشتري شفرات حلاقة جديدة، ثم بدأت في استخدام الصابون فغسلت ذراعي - بالمناسبة هما قصيرتان وسميتان ومبقعتان بالنمش حتى الكوعين - تناولت فرشاة الظهر وغسلت لوحي الكتفين اللذين لا أتمكن منهما عادةً مما سبب لي الإزعاج، لكنهما ليسا الوحيدين فقط، فأنا لا أتمكن من مناطق كثيرة من جسدي حالياً لأنني أصنف من الأشخاص البدناء. لا أقصد بذلك من يعرضون في المعارض للتسلية، فوزني لا يزيد عن أربعة عشر حجراً وخصري بلغ الثمانية أو التاسعة والأربعين في آخر مرة قسته فيها، كما أنني لست من السمينين المقرفين، فكرشي لا تتدلى حتى الركبتين إنما أنا عريض الأرداف فقط وشكلي اسطواني كالبرميل.

هل تعرف ذلك النموذج النشيط الطيب القلب أو

الرياضي الضخم الذي يمثل دائماً روح الفريق وحياته ويكنّونه بالمعضّل أو المتين، هذا هو صنفي، وتخاطبني غالية الناس بولينغ السمين، واسمي هو جورج بولينغ.

في تلك اللحظة لم أشعر بأنني روح الفريق ولا حياته، بل كنت عرضة للشعور بالنكد الدائم الذي ينتابني منذ الصباح الباكر علماً أنني أنام وأهضم طعامي جيداً. لقد عرفت السبب، إنها أسناني المؤقتة اللعينة الموضوعة في القدح، والتي بدت وهي في الماء كأنها أسنان جمجمة ميتة تولد فيك شعوراً بالألم والتعفن مثل قضم تفاحة مرة. علاوة على تلك تشكل الأسنان المؤقتة نقطة تحول هامة، فعند سقوط آخر أسنانك الطبيعية، تبدأ بتصغير عمرك مثل عجائز هوليوود مما يشير إلى النهاية المحتومة والمؤكدة. أنا رجل بدين في الخامسة والأربعين، وعندما أقف لأغسل حوضي من الطبيعي أن انظر إلى جسدي لذلك فإنّ كل ما يقال إنّ البدناء لا يستطيعون رؤية أقدامهم هراء. إذ في الحقيقة أستطيع أن أرى قدمي الأماميتين حتى النصف عندما أقف لأستحم. ولا يمكن لامرأة أن تعيد النظر إليّ إلا إذا تقاضت مالاً مقابل ذلك. فكرت بهذا الأمر، وأنا أضع الصابون وأستحم.

خلت أنني في مزاج أفضل هذا الصباح وذلك لعدة أسباب أولها أنني لن أذهب للعمل هذا اليوم لأن السيارة القديمة التي استخدمها كانت قيد الإصلاح - عليّ إن أخبركم

أنني أعمل لدى شركة فلايينغ سالامندرز للتأمين على الحياة والحريق والسطو وغرق وتحطم السفن وكل شيء، ويجب أن اذهب إلى لندن لإيصال بعض الأوراق، فأخذت إجازة لأجلب أسناني الجديدة، وكان في بالي، إلى جانب ذلك عمل آخر تراودني فكرته، عمل يأتي من الماضي ثم يغيب. إنه يتعلق بسبعة عشر جنيهاً أخفيتها عن العائلة، وحدث الأمر على الشكل الآتي: كان يعمل في الشركة معي رجل اسمه ميلورس، وهو مشغوف بالمراهنة، وقد استحوذ على كتاب بعنوان (علم الفلك المطبق على سباقات الخيل) الذي أثبت فيه أن الفوز يتعلق بتأثير الكواكب على ألوان ثياب الفارس، وفي السباق مهرة تدعى كروسير برايد لا حظ لها في الفوز سوى لون ثياب فارسها الخضراء اللون التي كانت تتماشى مع لون الكواكب وهي في ذروة سطوعها. راهن ميلورس الخاسر بأعماله الفلكية بعدة جنيهات على تلك المهرة وتوسل إلي كثيراً لأحذو حذوه، ولكي أتخلص من إلحاحه المتواصل، غامرت بعشرة شلنات رغم أنني لا أراهن من حيث المبدأ العام.لا أدري إن عادت المهرة إلى موطنها مشياً، فأنا لا أذكر التفاصيل الدقيقة لكن في النهاية أصبحت حصتي سبعة عشر جنيهاً وبدافع غريزي وضعت النقود في البنك دون أن أخبر أحداً مما يشير إلى نقطة تحول هامة أخرى في حياتي لأنني لو كنت زوجاً أو أباً صالحاً لصرفت

تلك النقود في شراء ثوب لهيلدا وأحلية للأولاد، لكنني بعد خمسة عشر عاماً من الزواج سئمت من لعب ذلك الدور.

تحسن شعوري بعد أن غسلت كل جسدي بالصابون فاستلقيت في الحمام وأنا أفكر في تلك الجنيهات وكيف سأنفقها، فبدت لي خيارات كثيرة، إما أن أذهب في إجازة مع امرأة أو أضيعها على المشروبات كالسيجار وزجاجات الويسكي الكبيرة. فتحت الصنبور للحصول على كمية أكبر من المياه الساخنة وأنا أفكر في النساء والسيجار، عندها سمعت ضجة مدوية كقطيع من الأبقار الوحشية يهبط الدرجتين المؤديتين إلى الحمام، إنهم الصغار طبعاً، فولدان في بيت صغير بحجم بيتنا يشبه كمية كبيرة من الجعة في قدح صغير. لقد علا صوت طرق الباب مصحوباً بصرخة ألم:

- أريد الدخول يا أبي.

- حسناً، لا يمكنك ذلك، انصرف.

- لكن يا أبي أريد الدخول إلى مكان آخر.

- إذاً اذهب إلى المكان الآخر. فأنا استحم.

لا فائدة ترجى من ذلك، فأنا اعرف إشارة الخطر. في بيتنا يقع المرحاض في غرفة الحمام حاله حال البيوت الأخرى المماثلة. انتزعت سدادة الحمام وعلقتها ثم جففت جسدي بأسرع ما يمكن، وفتحت الباب فاندفع بيلي الصغير ذو السبع سنوات متفادياً لكمة سددتها إلى رأسه. ليست ثيابي

وأنا أبحث عن ربطة العنق فاكتشفت أن رقبتي مبللة بالصابون.

عندما تكون رقبتك مبللة بالصابون فهي تسبب لك شعوراً مزعجاً لزجاً ومسبباً للغثيان يلازمك طوال اليوم مهما حاولت التخلص منها. نزلت إلى الطابق الأرضي وأنا في مزاج سيء ومستعد للعراك.

غرفة الطعام في بيتنا نسخة عن كل الغرف الأخرى في إليسمير، فهي صغيرة وضيقة طولها اثنا عشر قدماً وعرضها عشر أقدام ولم تترك فيها خزانة السنديان التي نضع فيها أدوات المطبخ ودورقي الخمر الفارغين ومسند البيض الفضي الذي قدمته لنا أم هيلدا هدية في مناسبة زواجنا أي فسحة.

وقفت هيلدا خلف إبريق الشاي عابسة تسيطر عليها حالة من القلق والرعب المعتادين لأن صحيفة نيوز كرونيكل ذكرت أن سعر الزبدة سيرتفع أو شيئاً من هذا القبيل. كان الجو بارداً جداً ولم تكن النار مشتعلة في الموقد والنوافذ مغلقة أيضاً. انحنيت لاهثاً لأشعل النار بعود ثقاب -كان الانحناء يسبّب لي اللهاث والعطس- فرمقتني هيلدا بنظرة بطرف عينها كما اعتادت عندما أقوم بعمل فيه بعض الإسراف.

هيلدا الآن في التاسعة والثلاثين من عمرها، وعندما عرفتها للمرة الأولى كانت تشبه الأرنب - ولا تزال كذلك - إلا أنها أضحت نحيلة جداً وذابلة ومكتئبة، وترى قلقاً دائماً

في عينيها، وعندما يفيض الكيل لديها تحدب كتفيها وتشبك ذراعيها كعجوز غجرية أمام الموقد. إنها من الأشخاص الذين تكمن موهبتهم ومتعتهم الأساسية في الحياة باستباق وقوع المصائب الصغيرة فقط لأنها لا تهتم بالكبيرة منها كالحروب والمجاعات والزلازل والأوبئة والثورات، فكل ما يهمها هو أسعار الزبدة المرتفعة وفواتير الغاز الضخمة وأحذية الأولاد البالية وما تبقى من أقساط المذياع. وكانت تبدي احتجاجها على ما اعتبره متعة المشي ذهاباً وإياباً فتردد ابتهالاتها المتكررة:

- (لكن يا جورج هذا خطير، لا أعرف ماذا سنفعل ولا من أين سنأتي بالنقود، يبدو أنك لا تدرك فداحة الموقف، سينتهي بنا المطاف إلى الملجأ).

هذا الخوف راسخ في عقلها، الشيء المضحك في الأمر هو أنه حتى لو حدث ذلك، فإن قلق هيلدا لن يساوي ربع قلقي، لا بل قد تشعر أنها في أمان أكبر هناك.

كان الأولاد في الطابق الأرضي قد اغتسلوا ولبسوا بسرعة ضوئية كعادتهم عندما لا تتوافر الفرصة في إبعادهم عن الحمام. توجهت نحو طاولة الطعام وهما يتجادلان حول شيء ما.

- نعم فعلت.

- كلا، لم أفعل.

- لا، بل فعلته
- لا، لا، لم أفعل.

بدت هذه المماحكة بين بيللي ذي السبع سنوات ولورنا الإحدى عشرة أنها ستستمر إلى نهاية اليوم إن لم أضع لها حداً. إنني أحس بشعور خاص نحو الأولاد فلا أستطيع تحمل جدالهم، ففي مثل أعمارهم الصغيرة جل ما يهمهم أشياء مثل المساطر وعلب الأقلام، ومن أحرز درجة عالية في اللغة العربية، لكن في أوقات أخرى وعندما يكونان نائمين ينتابني شعور مختلف كلياً، فأقف عند أسرّتهم في أمسيات الصيف المشرقة، وأنظر إليهما وهما نائمان بوجهيهما الأحمرين المدورين وشعرهما الملون بظلال كثيرة، إنه شعور مماثل لما تحسه وأنت تقرأ في الإنجيل (أحشاؤكم تشتاق) فأشعر في تلك المرات كأنني قرن بذرة جافة لا يساوي قرشاً حيث تكمن أهميتي الوحيدة في تربية وإطعام هذين المخلوقين حتى يكبرا، لكن هذا الشعور لا يدوم طويلاً ويحل محله الشعور بكياني المنفصل وأهميته، وأنّ شعلة الحيوية والنشاط لم تنطفئ في الرجل الهرم فأتوقف عن الرضوخ إلى فكرة البقرة الحلوب الأليفة التي تدر اللبن للزوجة والصغار. لم نتحدث طويلاً أثناء الإفطار لأن هيلدا كانت في حرج (لا أدري ماذا سنفعل) بسبب أسعار الزبدة وإجارة رأس السنة الوشكة والخمسة جنيهات المستحقة من قسط المدرسة للفصل

الدراسي الأخير. تناولت بيضة مسلوقة وأخذت قطعة خبز لأضع فوقها المربى من ماركة التاج الذهبي الذي كانت تصر هيلدا على شرائه لأن سعره خمسة قروش. ويقول ملصق العلبة ويحفظ ناعم إن القانون يجيز أن تكون في المربى نسبة من عصير الفاكهة المحايدة التي لا أعرف أين تزرع ولا حتى كيف تبدو. غضبت هيلدا دون اهتمام لمقاطعتها فهي تعتقد بطريقة غامضة بأنه لا يجوز السخرية من أشياء توفر عليك نقوداً.

ألقيت نظرة على الجريدة التي خلت من الأخبار الكثيرة رغم أن الناس يقتلون بعضهم بعضاً من إسبانيا إلى الصين حيث نقرأ فيها كالعادة: العثور على ساق امرأة في صالة انتظار إحدى محطات القطارات وزواج الملك زوغ يتأرجح في كفتي ميزان. أخيراً وفي حوالي العاشرة انطلقت نحو البلدة في وقت مبكر أكثر مما كنت أحسب.

كان يوماً بارداً وجافاً. هبت عليّ ريح كريهة وأنا أخطو خارج البيت فالتصقت برقبتي المبللة بالصابون وأشعرتني فجأة بأن ثيابي غير ملائمة، وبأن جسمي لزج من قمة رأسي إلى أخمص قدمي.

2

هل تعرف إيلسيمير أو ويستليني؟ إنها المنطقة التي أعيش فيها وإن كنت لا تعرفها فمن المؤكد أنك تعرف

خمسين منطقة أخرى مثلها. ولعلك تعرف أيضاً كيف تمتد تلك الشوارع في كل الضواحي القريبة والبعيدة منها: فهناك صفوف طويلة من البيوت نصف المعزولة الصغيرة حيث يصل الرقم في ويلسدن إلى مائتين واثني عشر، ورقم بيتنا مئة وواحد وتسعون بواجهة جصية وبوابة سوداء، وسياج من الجناب ومدخل أخضر، ومن سكانها آل لوريل وميرتل وهوثورن ومون ابري ومون روس وبيللي فو، وهي من نموذج متشابه وقد ينشذّ بيت واحد من خمسين فيعتبر ساكنه معادياً للمجتمع، وينتهي أمره إلى الملجأ ثم يطلي بابه بالأزرق بدلاً من الأخضر.

كنت في مزاج غير سوي بسبب إحساسي باللزوجة التي تلف عنقي غريب كم تهيمك رقبتك اللزجة وتفقدك كل حيويتك، فكأنك تلبس حذاء انخلع نعله وأنت في مكان عام.

لم أكن مزهواً بنفسي هذا اليوم، وكنت كمن يقف بعيداً أراقب الناس وأنا أسير في الشارع بوجهي الأحمر المكتنز وأسناني المؤقتة وثيابي السوقية الرثة، فرجل مثلي يعجز عن الظهور بمظهر السيد، ولو رأيتني عن بعد مائتي ياردة لعرفت على الفور أنني أعمل في شركة تأمين أو بائع متجول، فثيابي التي ألبسها هي الزي الموحد لعامة الناس بدلة رمادية من أردأ الأنواع ومعطف أزرق مخصص شلناً وقبعة مدورة

كلاعب كريكت بدون قفازات، وكنت أبدو مثل نائم، وفي أفضل حالاتي وأنا ألبس حلة جديدة وأدخن السيجار قد أبدو مثل ناشر أو سمسار مراهنات، أما في أسوئها فأبدو مثل بائع مكانس، وفي أحوالي العادية حالما تراني تعرف أنني واحد من اللذين تبلغ مداخيلهم الخمسة عشر جنيهاً في الأسبوع، وأنني أمثل المعدل الوسطي لأهالي إيلسمير. مشيت في الطريق فرأيت الرجال مكدسين في منتظر قطار الثامنة والواحد والعشرين، أما النساء فكنّ يعملن على تدفئة أصابع أيديهن فوق مواقد غازية. اجتزت مسافة لا بأس بها من الشارع، إذ عندما تنسى ذلك الوقت وتكون في مزاج جيد يمكنك رؤية أشياء تضحكك من أعماقك وأنت تمشي في شوارع الضاحية البعيدة منها والقريبة وتتأمل الحياة القائمة فيها.

منطقة إيلسمير ليس لها شبيه في أي مكان آخر، فهي مثل سجن مؤلف من صف من الزنزانات وغرف التعذيب التي يقطنها فقراء مساكين بمداخيل لا تربو على الخمسة عشر جنيهاً في الأسبوع ويقل، ويتم إذلال الواحد منهم، ويُهان من قبل رئيسه في العمل كما تجثم زوجته على صدره مثل كابوس ثقيل وأولاده يمتصون دمه كالعلق، لكن رغم الهرج والمرج الكثير الذي يروي معاناة الطبقة العاملة، فأنا لست أسفاً على البروليتاريين، فهل تصورت محاراً لا يستطيع النوم وهو يفكر بكبسه؟ يعني

البروليتاريون جسدياً لكنهم يصبحون أحراراً خارج العمل، لكن في كل واحدة من تلك الزنزانات التي في ويلسيمير وغيرها يحيا فقير بائس لا يعرف طعم الحرية أبداً إلا وهو يغط في نوم عميق حالماً بأنه مطبق بخناق رئيسه، ويرميه في قاع بئر سحيقة ويوسعه ضرباً.

تكمن المشكلة الرئيسة في وهمنا بأننا نملك شيئاً قد نخسره حيث يظل تسعة أعشار أهالي إيلسيمير أنهم يملكون بيوتهم، بها مع المناطق المحيطة بها جزء من خطة وعمل ابتزازي ضخم تحت اسم عقارات هيسبريدز التي تملكها جمعية التسليف البهيج للبناء، وهذه الجمعيات هي الأذكى في أعمال النصب والاحتيال في هذا العصر، فشركة التأمين التي أعمل لصالحها تمارس النّصب لكنه نصب مكشوف والأوراق كلها فوق الطاولة، أما في جمعيات البناء فإن ضحاياها يتوهمون أنها تقدم لهم خدمة وهنا يكمن سر غشها، فتضربهم بقسوة وهم يقبّلون يدها. أحياناً أتصور هيسبريدز العقارية تمثالاً ثنائي الجنس، لإله عملاق هو إله جمعيات البناء، نصفه العلوي يمثل مديراً إدارياً كبيراً ونصفه السفلي يمثل زوجة مشكلها المائي تحمل في إحدى يديها مفتاح الملجأ طبعاً، وتحمل في اليد الأخرى وعاء قرني الشكل تخرج منه أشياء وهدايا مثل الراديوهات المحمولة وبوليصات التأمين على الحياة والأسنان الاصطناعية

وحبوب الأسبيرين والواقيات الذكرية وأسوار لحدائق الإسمنتية.

لكننا في الواقع لا نملك بيوتنا ملكية مطلقة حتى لو أكملنا دفع أقساطها إنما ملكية إيجار، ونحن ندفع ثمن هذه البيوت على شكل أقساط قيمة كل واحد منها خمسة وخمسون جنيهاً لمدة ست عشرة سنة، ولو دفع الثمن نقداً لكان ثلاثمائة وثمانون جنيهاً، أي أن الفائدة تصل إلى مائة وسبعين في المائة، ومن البديهي أن الجمعية تربح أكثر من ذلك بكثير إذ إنها تحت اسم مستعار مثل اسم ويلسون وبلوم تبني البيوت بنفسها وتشفط أرباح المواد الأولية، وتحت اسم بروكس وسكاتر تنتج لنفسها الأبواب؛ لكن ما صعق وأذهل أكثر أن الجمعية لا تكمل أي صفقة حتى النهاية ولا تلتزم بشروطها، فعندما بنت إيلسمير كان من المقرر أن تبقى حقولاً مكشوفة كملاعب للأطفال باسم مروج بلات - إذ لا يوجد شيء إما أبيض أو أسود - لكن من الواضح أن مروج بلات لن تبنى أبداً.

وست بلشي ضاحية نامية افتتحت فيها المعامل مثل رث ويل للمربيات وانجلو اميركان للدراجات الهوائية التي انتشرت في العالم عام 1933، وكان سكانها في ازدياد و لايجرت فيها في ارتفاع لم أر أي شخصية من الشخصيات لكبيرة بمن فيهم هربرت كروم، لكن أتخيلهم وهم يطرحون لسندات

الجديدة دون أي إضافة إلى رأس المال. فقد أرسل كروم البائس وبدأوا ينصب البيوت في مروج بلات، فعلت صيحات الألم والاحتجاج وشكلت منظمة للدفاع عن المستأجرين لكن دون فائدة إذ إن محامي كروم أخمدوا قدراتنا خلال خمس دقائق وغطت البيوت كل مروج بلات. يستحق المجنون كروم لقب البارونية لأنه نجح في إيهامنا بالنصب والاحتيال أننا نملك بيوتاً أو ما يسمى حصة في البلاد وأننا شركاء في الوطن. نحن فقراء هيبريدز وكل المناطق المشابهة تحول إلى عبيد أزليين في خدمة كروم، وفي ذات الوقت كلنا أصحاب بيوت محترمون مما يعني أننا من حزب المحافظين (المؤيدين والمتملقين) ولا نجرؤ أن نقتل الدجاجة التي تبيض ذهباً، ويأكلنا خوف قاتل من العجز عن دفع الأقساط حتى آخر واحد منها، وما يزيد الطين بلة أننا مشترون بأموالنا. كل واحد من هؤلاء الفقراء التعساء يلفظ أحشاءه ليدفع ضعف السعر الحقيقي لتلك العلب القرميدية التي كتبت بالمسطر لجميل (بيلي فو) والتي هي عكس ذلك، وهو مستعد للموت في ساحة المعركة لإنقاذ بلاده من خطر الشمة.

انعطفت من طريق وول مول إلى الطريق العام فرأيت قطار العاشرة إلا ربعاً المغادر إلى لندن، ثم مررت بسوق الستة شلنات وتذكرت الملاحظة اللعبية التي دونتها صباحاً لشراء أمواس حلاقة.

عندما وصلت إلى الطاولة التي تعرض الصابون كان مدير الطابق الأرضي (أو أياً كان لقبه) يعنّف الفتاة المكلفة بالخدمة هناك، لم يكن أناس كثيرون في المتجر في تلك الساعة من الصباح، ولو ذهبت إلى المتجر عند بدء الدوام لرأيت الفتيات يتلقين الشتائم الصباحية وهن مصطفات في رتل لمجرد ترويضهن لبقية اليوم، كذلك يقال بأن لدى تلك المتاجر المتسلسلة رجالاً من ذوي القدرات الخاصة في توجيه الإهانات والسخرية، فينتقلون من فرع إلى آخر لتنشيط العاملات. كان المدير قزماً قبيحاً دون الحجم الطبيعي ذا كتفين مربعتين وشارب شائك، يشتم ويثب على الفتاة مثل منشار دائري، بسبب شيء ما، من الواضح أنه خطأ حسابي بسيط، وقبل أن أتمكن من التوقف التقت عيوني بعيون الفتاة التي اعتقدت أنه من غير المناسب أن يراها رجل سمين في أواسط عمره وهي تهان وتشتم؛ استدرت مسرعاً وتظاهرت بالاهتمام بشيء على الطاولة الأخرى، فشتمها ثانية، وكان يبتعد عنها ثم ينقضّ عليها فجأة كعصفور

- لم تكلفي نفسك عناء عدها، ذلك غير مهم، ما أهمية الشلنين؟ لم تحاولي أن تزعجي نفسك، تهتمين بما يخصك فقط أما الآخرون فغير مهمين.

استمر هذا التوبيخ حوالي خمس دقائق وبصوت مسموع من وسط المتجر قضاها مدير المتجر في الانقضاض والابتعاد

ومعاودة الانقضاض لبدء جولة جديدة. ولقد تمكنت من الرؤية جيداً لأنني ابتعدت عنهما قليلاً. ولقد كانت الفتاة في الثامنة عشرة تميل إلى البدانة قليلاً، وجهها قمري مدور من النوع الذي لا يتقن إكمال أية عملية حسابية بشكلها الصحيح، ذلك الوجه الذي تحول لونه إلى وردي مدمّج، وتلوّنت من الألم وكأنها جلدت بسوط. تظاهرت الفتيات الواقفات أمام الطاولات الأخرى بعدم السمع. كان شيطاناً قبيحاً صلب البنية مبرزاً صدره للخارج مثل عصفور الدوري واضعاً يديه تحت حواف معطفه وهو يصلح أن يكون رقيباً أول في الجيش لو كان قامته أطول.

هل تلاحظ كم أنهم يستخدمون أشخاصاً لمثل هذه المهن المضجرة؟ لقد كان يلصق كل وجهه وشورابه في وجهها، يشتمها ويوبخها ويهرتها بينما المسكينة تتألم وتتورّد. وأخيراً وبعد أن قال ما يكفي مشى برأس مرفوع وصدر بارز مثل أدميرال حرب على منصة القيادة.

اقتربت من الطاولة لأشتري شفرات الحلاقة، ولقد عرف كلاهما أنني سمعت كل كلمة لكن الفتاة تظاهرت بمظهر (أبق، بعيداً) الذي يجب أن تبدو فيه بائعات المتجر نحو الزبائن الذكور، وكأن شيئاً لم يحدث. كان ذلك لمصلحتي، فتصرفت مثل سيدة ناضجة بعد منتصف دقيقة من رؤيتي لها تمامي كخادمة. وجهها كان لا يزال متورداً، ويداها ترتجفان،

خلعت منها أمواس الحلاقة ذات الشكل، وبدأت تحرك أصابعها في العينة، التفت إليها المدير القزم مرة أخرى، فعلمت أنه سيكرر عليها ثانية ليبدأ جولة أخرى، تكمشت الفتاة مثل كلب رأى سوطاً ونظرت إلي بطرف عينها، لقد كرهتني مثلما كرهته أو أكثر لأنني رأيتها وهي تُشتم أمام غريب!

انصرفت مع أمواسي. لماذا يتحمل كل هذا الذل؟ إنه الخوف، ولو ردت بكلمة واحدة ستطرد من العمل. إنه ذات السبب وفي كل الأماكن.

فكرت بصبي السمان الذي أتعامل معه، شاب قوي وضخم في العشرين من عمره، خدوده كالورد وذراعاه ضخمتان يصلح أن يعمل حداداً، يقف وراء طاولة البيع منحنياً في سترته البيضاء وهو يحرك يديه مداهناً.

- نعم يا سيدي، صحيح يا سيدي، الطقس جميل في هذا الوقت من السنة يا سيدي، سيدي كيف يمكنني أن أخدمك؟

في الحقيقة هو يطلب منك أن تهينه، طبعاً هو يطيع الأوامر ومبدأ الزبون دائماً على حق، والشيء البادي على وجهه هو الخوف المميت من أن تشي بأنه شخص وقح ليطرد من العمل. بالإضافة إلى ذلك كيف له أن يعرف أنك لست أحد جواسيس الشركة الذين ترسلهم لمراقبة العمال. هذا الخوف الذي نسميه هو جوهرنا، الكل خائف ليس من

فقدان أعمالهم فقط بل الخوف من الحرب أو الفاشية أو الشيوعية أو من أي شيء آخر. فاليهود ترتعد فرائصهم عندما يفكرون بهتلر، وحظر ببالي أيضاً هذا المدير الشيطاني لتفرد ذو الشاربين الشائكين فهو أيضاً خائف من فقدان عمله أكثر من الفتاة التي وبّخها، وقد يعيل أسرة، وربما كان لطيفاً ومتسامحاً في البيت ويزرع الخيار في الحديقة الخلفية، ويدع زوجته تجلس فوقه وأولاده يشدون شاربيه، وبالمثل هل تدري إن كان المفتش الاسباني أو كبار الضباط الروس رجالاً صالحين في حياتهم الشخصية ومن أفضل الأزواج والآباء الذين كرسوا حياتهم لتطوير الكناري الأليفة!... الخ.

لاحقتني الفتاة بنظراتها إلى أن وصلت الباب، وتمنت لو أنها تستطيع قتلي. لقد كرهتني لسبب ما أكثر بكثير من ذلك المدير الأرضي القبيح.

3

حلقت طائرة قاذفة فوقنا على ارتفاع قليل لدقيقة أو اثنتين وبدت كأنها ترافق القطار.. جلس في العربة سوقيان من عمال الدعاية والإعلان من أحط أصناف باعي الصحف مقابل بعضهما بعضاً، يلبسان معاطف مطاطية رثة، أحدهما كان يقرأ صحيفة الديلي ميل والآخر الاكسبريس، ومن سلوكهما أدركت أنهما متفقان على شاكلتهما، وفي الطرف

الآخر من العربة جلس كاتبا محام يحملان حقتب سوداء ويتحدثان في مسألة ثانوية تافهة لجذب الانتباه، وليت أنهما لا يتميان لقطع الحوار.

نظرت إلى البيوت التي نمرّ بمحاذاتها، إذ يسير الخط من وسط يلشلي عبر أزقة قذرة فيبدو المنظر للوهلة الأولى هادئاً وتظهر الساحات الخلفية الصغيرة وأصص الزهور القليلة والسقوف المستوية حيث تشاهد النسوة ينشرن الغسيل وأقماص طيور على الجدران، تأرجحت الطائرة قليلاً وأزت ثم توازنت. جلست وظهري نحو المحرك، نظر إليّ أحد مروجي الإعلانات بسرعة، عرفت بما كان يفكر لأنها مسألة يفكر الكل فيها ولا تحتاج إلى ذكاء. ماذا سنفعل بعد سنة أو سنتين؟ ماذا سنفعل عندما نرى هذه القاذفات وننزل إلى الأقبية وتبتل سراويلنا؟ وضع مروّج الإعلانات صحيفة الديلي ميل وقال: إن العائز تمبل عيت أما الكاتبان فكانا يقضمان بعض النماذج المجانية من الذرة (البوشار). تحسس المروّج الآخر جيب معطفه الأول ثم انحنى وتحسس الجيب الآخر واقترب مني قائلاً: هل عندك أعواد ثقاب أيها البدين؟ لاحظ المتعة! أوقفت التفكير بالقنابل وبدأت أفكر بشكلي الذي تمعنت فيه جيداً هذا الصباح؛ صحيح أنني ممتلئ وقصير ونصفي العلوي مثل الأنبوب ولكن ما الذي يمنع الآخرين في ذلك، فمجرد كونك سميناً يحق لأي شخص حتى الغريب

تماماً أن يحدث وببساطة بلقب مهين معلقاً على مظهرك الشخصي. افترض أنّ شخصاً له حدبة أو هو أحول أو بشفة أرنب هل يجوز أن تناديه باسم يذكره بعيبه دائماً؟ لكن مع الرجل البدين يصبح الأمر بديهياً واللقب طبيعياً. أنا من النوع الذي يصفعه الناس على قفاه آلياً ويقرصونه تحت الأضلاع معتقدين أني أحب ذلك، ولم أذهب قط إلى صالة مشرب التاج في بودلي رغم مروري بقربه أسبوعياً بسبب العمل، إذ غالباً ما يكون الحمار ووترز هناك - وهو بائع متجول يسوّق صابون فقاعة البحر لكنه بطريقة أو بأخرى يتواجد دائماً في المشرب- حيث يقرصني تحت الأضلاع مغنياً (هنا يستلقي البدين توم بولينغ) أما المتواجدون الآخرون الأغبياء القذرون فيعتبرون ذلك دعابة لا يمل منها. لوترز هو إصبع مثل قضيب حديدي. لهذا يظن الكل أن الرجل البدين بلا مشاعر.

أخذ المروج عود ثقاب آخر ليحكّ به أسنانه وأعاد العلبة، واندفع القطار على الجسر الحديدي فرأيت عربة خبز في الأسفل تلاها سيل من الشاحنات المحملة بالإسمنت الغريب أن الكل محق فيما يتعلق بالسخرية من البدناء، والحقيقة أن السمين منذ صغره ليس مثل الآخرين حيث إنه يمر بمستوى من التطور مختلف عن الأشخاص العاديين، مستوى من الكوميديا الحقيقية أما البدناء الذين يعرضون للفرجة والتسلية في المعارض وكل من يزن فوق العشرين حجراً يبدو مسرحية هزلية

هاملة، أما أنا فقد كنت ضعيفاً ثم أصبحت سمياً وأعرف لعرق الذي تسببه السمنة لمظهر الشخص، إنها شيء يمنعك من أخذ الأمور بجدية كبيرة، وأشك بأن الرجل البدين منذ ولادته وتعلمه المشي بأنه يعرف العواطف الحقيقية العميقة، إذ كيف يمكنه ذلك وهو بلا تجربة في هذه الأمور، ولا يمكنه التواجد في المشهد المأساوي لأنه يعيش دائماً في المشهد الهزلي، فهل يمكن تخيل هاملت بديناً أو أوليفر هاردي يمثل دور روميو؟ فكرت في مثل ذلك منذ بضعة أيام وأنا أقرأ رواية أخذتها من البوليس بعنوان «الحب الضائع» التي يكتشف فيها رجل نحيف هروب حبيبته مع شاب من الذين نقرأ عنهم في الروايات من ذوي الوجوه الشاحبة الحساسة والشعر الأسود وأصحاب الدخول الخاصة وأتذكر جيداً المقطع التالي:

(كان ديفيد يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً ويده تعتصر جبهته، يبدو أن الخبر قد صعقه فظل عاجزاً عن تصديقه طويلاً: شيلا خانته! لا يمكن، لكن فجأة يعمره اليقين ويواجه الواقع المجرد بكل رعبه، ذلك أكثر مما يحتمل، انبطح على الأرض وانفجر باكياً).

هذا سلوك متوقع للناس العاديين ولكن كيف سيتصرف رجل مثلي لو أن هيلدا هربت مع شخص آخر في عطلة نهاية الأسبوع؟ لن يزعجني ذلك لأنه يعني أنها لا تزال تملك النشاط والحيوية فهل يمكن أن أنطرح على الأرض وانفجر

ساكياً، وهل يتوقع الناس هذا مني؟ بالتأكيد لا وسينظرون للأمر على أنه فاحشة كبرى.

كان القطار يمر عبر جسر فبدت البيوت البعيدة كأنها سطوح حمراء صغيرة مضاءة بأشعة الشمس، ستسقط عليها القنابل! من اللازمة التفكير بالقنابل طوال الوقت. بالطبع، هي لن تسقط الآن ولكن قد يحدث ذلك قريباً. فقد نشرت كل الجرائد هذا الهراء، فقرأت خبراً في اليوم كرونيكل مفاده أن الطائرات النافذة لا يمكنها التسبب بأية أضرار لأن المدفعية المضادة لها نجحت في إبقائها على ارتفاع عشرين ألف قدم مما أوحى للناس أن تلك القنابل لن تصل إلى الأرض، والاحتمال الأصح أن المقال قصد أنّ الطائرات سوف تحلق فوق وونش ارسنال لتسقط قنابلها على إيلسمير بعدما تأملت الموضوع برمته، اكتشفت بأنه ليس سيئاً أن يكون الشخص بديناً لأن السمين مشهور رغم أن شهرته تقل عن نظيراتها عند السماسرة والقساوسة ولا يشعر بالأريحية ليتصرف دوماً على هواه مثلهم، أما مع النساء فله حظوة كبيرة بعكس ما يعتقده البعض بأن المرأة تنظر إلى الرجل السمين كدعابة وشيء مثير للسخرية، أما في الحقيقة ولو تمع فهي لا تنظر كذلك إلى أي رجل يمكنه أن يخدعها ويدللها ويحبها

انتبه! فأنا لم أولد سميناً، ولم أكن بديناً دائماً بل

أصبحت كذلك في السنوات الثماني أو التسع الأخيرة، وتضخمت كل صفاتي أما في داخلي وعقلي فلست سميناً ولا تظلمني، فأنا لا أحاول أن أضع نفسي فوق ورود ناعمة، ووراء الوجه الباسم قلب موجوع.لا يمكن أن تنجح في العمل في شركة تأمين إن كنت كذلك، أنا سوقي ومعدوم الإحساس ومنسجم مع بيئتي، مثل الآخرين أبيع الأشياء بعمولة وأكسب رزقي وتنقصني المشاعر السامية، وفي كل الظروف في الحروب والثورات والمجاعات والأوبئة أنجح في تدبير مصاريفنا فقط لا أكثر وأتخندق لأبقى حياً لمدة أطول من الآخرين، لكن تكمن في داخلي عادة بغيضة أخبرك عنها لاحقاً. أنا سمين من الخارج لكي نحيف من الداخل، وهل خطر ببالكم يوماً أن داخل كل رجل بدين رجل نحيف؟ كالقول موجود تمثال داخل كل صخرة، نجح الرجل الذي استمار أعواد الثقاب في تنظيف أسنانه فوق صحيفة الاكسبريس وقال:

- إنهم لن يجدوا الفاعل في قضية السيقان.

- نعم لن يجدوه أبداً وكيف يمكنهم التعرف على السيقان.

- ربما يتتبعونه من خلال الورق الذي لفهم به.

يمكنك رؤية أسقف البيوت الممتدة بعيداً في الأسفل والتي تنعطف في هذا الاتجاه أو ذاك مع الشوارع مثل سهل

كبير تعدو فوقه على حصان، ففي كل طريق يمر عبر لندن يوجد عشرون ميلاً من البيوت الممتدة بلا انقطاع. يا إلهي كيف يمكن أن تخطئنا القاذفات عندما تأتي، نحو قلب الهدف الكبير ولو كنت هتلر لأرسلت قاذفاتي أثناء انعقاد مؤتمر نزع السلاح، في صباح هادئ وعندما تتدفق سيول الموظفين العريز فوق جسر لندن ووسط غناء الكناري وتوسلات العجائز للرياضيين سيسمع صوت صفير يتلوه بوم، فتتطاير البيوت في الهواء وتتبلل ثياب الرياضيين بالدماء ويبقى الكناري فوق الجثث المكدسة.

إنه شيء مثير للشفقة. نظرت إلى البحر الكبير من الأسطح الممتدة بعيداً جداً، أميال كثيرة من الشوارع، محلات السمك المقلي والصور والطباعة ومحلات الأزقة الخلفية والمصانع ومحطات الطاقة والأبراج والمعاصر والحبّار ومحلات الألبان وغيرها... مثل برية كبيرة بلا وحوش. لن يظل إطلاق بنادق ولا ضرب بالعصي لمطاطية ولن يبقى سرير واحد في انكلترا تنطلق منه بندقية، متى سيحدث بعد خمس سنوات أو سنة من الآن؟

4

يرأ شوتر (الراعي هو الله) ويرد وقراءول (الهند لا يعوزني شيء) بصوت يفوق صوت سائقه بكثير، ولابد أنكم

عرفتم من مهما المايسترو، فقد اعتدت أن أترقب لنشيد البيني الذي يحكي قصة صهيون ملك العموريين وأوج ملك بيسان ذكري بهذ اسم الملك روغ أتمنى لو بإمكاني إسماعكم صوته الذي يشبه ضجيج برميل ملئ ضخم متدحرج تحت الأرض حين يقول كلمة (أوغ)، واعتاد اختصار كلمة (اسد) فأسمع الكلمة وكأنها (دوغ كلب). إنهما مثل زوج من التماثيل المصرية التي رأيتها في موسوعة رخيصة لثمن تماثيل حجرية ضخمة ارتفاعها ثلاثون قدماً تتربع على عروشها في مواجهة بعضها بعضاً، وأيديها على ركبها تعلو وجوهها ابتسامة واهنة غامضة.

لا أدري كيف راودني الشعور بالكآبة ولا يمكن وصفه بالنشاط، شعور برائحة حلوة، رائحة العشب وحفيف لثياب وأصوات طنين الأوزغ وأصوات الزئير وبقعة الضوء لمتسلل من ثقب في النافذة والزاحف ببطء نحو لصحن بحيث يمكن للكبار اعتباره أداء غير عادي لكنه ضروري، كما تعلمون به انتم عندما تقرأون الإنجيل الذي كنا نأخذ منه جرعات كبيرة في تلك الأيام، حيث كانت النصوص على كل لجدران، نحفظ عن ظهر قلب كل فصول العهد القديم، ورأسي لغاية اليوم محشو بمقاطع من الإنجيل؛ أولاد إسرائيل يرتكبون الآثام الفادحة في حضرة الرب واشر يتحمل الوزر لعظيم ويطاردهم من دان إلى أن يصل إلى بيرشبا، ويضربه تحت

الضلع الخامس ليموت. كان نوعاً من الدواء ذي طعم غريب، فتدرك أنه ضروري وعليك ابتلاعه؛ أسماء غريبة ومعقدة مثل شيمي ونبوخذ نصر واهيتوفيل وهشبدانة. أشخاص بثياب طويلة قاسية ولحى آشورية، يمتطون الجمال ويتنقلون بين المعابد وأشجار الأرز ويفعلون أشياء غريبة ويقدمون القرابين والهبات التي يحرقونها ويتمشون في أتون أفران مشتعلة ويثبتون بمسامير على الصلبان وتبتلعهم الحيتان، كل ذلك ممزوج برائحة المقبرة والثياب الصوفية وطنين الأورغ. هذا هو العالم الذي تذكرته عندما رأيت صورة الملك روغ الذي لم أتذكره فقط بل كنت فيه. طبعاً هذه الصور لا تدوم سوى بضع ثوانٍ لكنها تترك أثراً وراءها، ثم أفتح عيوني لأرى نفسي في الخامسة والأربعين والزحمة المرورية في الستراند حين تخرج من قطار الأنفاق أشعر كالخارج من مياه عميقة. شعرت أنني في عام ألف وتسعمائة، وأتنفس هواء حقيقياً، ثم أرى بعيوني المفتوحة هؤلاء الأغبياء المتدافعين والملصقات ورائحة البنزين وهدير المحركات التي بدت لي أقل واقعية من صباح يوم أحد في لوار بينفيلد قبل ثلاثين عاماً. ويمكنني القول إنني الآن في لوار بينفيلد في عام ألف وتسعمائة بجانب معلف الخيل في السوق وخيول النقل التي عليها علائق العلف، وعند محل الحلويات في الزاوية حيث تزن الأم ويلر نصف دانق من كرات البراندي و لبدة

رامبليج راكعة في عرشها وخلفها ممر في بطانه لقصير الأبيض ويداه المطويتان والعم ابريكيل يشتم جو شمرلي والرقيب المتقاعد يتبختر في سترته الحمراء وسرواله الأزرق الضيق وقبعته الصغيرة المدورة ذهاباً وإياباً وشواربه المفتولة والثملون وهم يتقيأون في الباحة الخلفية لمشرب جورج وبيكي في قصر وندسور، والرب في السماء والمسيح على الصليب ويونس في بطن الحوت وشادراك وميشاك وعبدي نغو في الأفران المتأججة، وسيحون ملك العموريين وعوج ملك باشان متربعان على عرشيهما مقابل بعضهما بعضاً يتبادلان النظرات دون أن يعملا شيئاً سوى المحافظة على مكانيهما مثل زوج من كلاب الإطفاء أو الصيد أو وحيد القرن. لكن هل ولّى هذا العالم إلى الأبد؟ لست متأكداً لكن يمكنني القول إنه كان جديراً بالعيش وإنا ننتمي كل إليه

القسم الثاني

1

ذكرني اسم الملك روغ المكتوب على الملصق بعالم يختلف كلياً عن الذي أعيش فيه الآن لدرجة يصعب تصديق انتمائي إليه، وإنني أظن أن صورتي اكتملت في ذهنكم، فأنا رجل بدين في الخامسة والأربعين بأسنان اصطناعية ووجه أحمر، لكني لم أكن على هذه الحال منذ المهد، لكن خمسة وأربعين عاماً تفعل الكثير، فبعض الناس يتغير وبعضهم الآخر لا، ولقد تغيرت كثيراً، فقد استمتعت بسعد الحياة ونحسه وربما سعدها أكثر، ولربما يفخر أبي بي قليلاً لو رآني الآن، فأنا بمستوى أعلى مما كنت فيه سابقاً، وفي أحيان قليلة لامست مستويات لم أحلم بها أبداً في تلك الأيام التي سبقت الحرب.

قبل الحرب! كنت أسأل إلى متى سأظل أردد هذه العبارة، وكم سيمر من الوقت قبل الإجابة عليها، وأي حرب؟ تلك العالم عبر الموجود الذي يفكر الناس فيه عندما يقولون قبل الحرب،ربما حرب البوير؟ ولدت عام 1893 وأتذكر تلك الحرب جيداً بسبب النقاش الراقي لذي كان يدور بين أبي وعمي ايزيكل، كذلك لدي بعض الذكريات التي تعود إلى سنة قبل ذلك، وأول ما أتذكر عندما صعد الممر الحجري الموصل بين المطبخ والمحل هو رائحة السفرون الممزوجة برائحة الجبص الرطب التي تبدأ من المطبخ وتنتهي في المتجر والتي كانت تزداد كلما اقتربت من هذا الأخير وقد وضعت أمي بوابة خشبية في المدخل لكي تمنعنا أنا وجو من الدخول إلى المحل (جو هو أخي الكبير) كما أتذكر عندما انتزعت القضبان ونجحت في تحطيم البوابة بعد مرور بضع سنوات، ودخلت إلى المتجر، ولم يكن احد فيه ورأيت فاراً في أحد صناديق الطحين؛ لقد سقط وركض بين قدمي وكان لونه أبيض من الطحين وأعتقد أنني كنت في السادسة من العمر عند حدوث ذلك.

عندما تكون صغيراً فإنك تدرك الأشياء القريبة والمحيطة بك منذ زمن، وفجأة تسبح في ذهنك دفعة واحدة وكأنك صحوت من النوم. في الرابعة من عمري تقريباً اكتشفت أننا نملك كلباً يدعى نلر،كلب صيد أبيض هرماً من فصيلة

انقرضت الآن، فقد رأيته تحت طاولة المطبخ وهو يلهث بنفس الطريقة، ولكن قبلها اكتشفت المكان المصدرة منه رائحة السموم وهو خلف البوابة في نهاية الممر والدكان والأوراق الخشبية والمجرفة المعدنية والقذارة البيضاء على النوافذ والعصفور والقفص الذي لا يمكن أن تراه حتى من على الرصيف بسبب الغبار الذي يغطيه بشكل دائم. كل هذه الأشياء غابت عن مخيلتي الواحدة تلو الأخرى مثل قطع أحجية لصورة مقطعة.

ثم يمضي الوقت وتصبح رجلاك أقوى ويبدأ إحساسك بالجغرافيا تدريجياً. أعتقد أن لواريتفيلد مثل أي بلدة أخرى لا يتجاوز تعدادها الألفي نسمة وتتبع إلى «كمبرلاند شاير». ومن الملاحظ أنني مستمر في القول بأنها كانت رغم أن المكان لا يزال موجوداً، وبعد خمسة أميال عن نهر «تايمز». إنها تتموضع في وادي بسيط تحيط بها تلال متموجة تفصلها عن النهر وعلى قمم التلال غابات تبدو ككتل زرقاء غامقة حيث يرى في وسطها بيت أبيض وصف من الأعمدة هو بيت بنفيلد، أو الصالة كما كان يسميه الكل. أما قمة «تل فتعرف بينفيلد العليا، مع الإشارة إلى أنه لم تكن هناك أي قرية منذ ما يزيد على المائة سنة. ولكن من المؤكد أنني كنت في السابعة عندما أدركت وجود بيت بينفيلد لأن الصغار لا ينظرون إلى الأشياء البعيدة، لكن مع مرور الوقت عرفت كل

بومة في بيمفيلد، إذ قبل أن تصل إلى السوق عند الزاوية كان هناك محل السيدة ويلر للحلويات حيث يمكنك الشراء بنصف شلن؛ السيدة ويلر عجوز شمطاء تشبه الساحرة، ولقد اتهمت بأنها تمص الحلوى المدوّرة ثم تضعها في العلبة، وبعد محل الحلويات هناك صالون الحلاقة بملصقه الإعلاني الكبير عن سجائر عبد الله وعليه صور جنود مصريين، والغريب أنهم ما زالوا يستعملون هذا الإعلان للآن ورائحة الروم واللاتاكيا المسكرة، وكذلك ترى مدخنة معمل البيرة خلف البيوت، أما في وسط السوق فترى المعلف الحجري، كما يمكن رؤية طبقة رقيقة من الغبار والتبن فوق الماء دائماً.

قبل الحرب، وبالذات حرب البوير كانت السنة صيفاً كلها رغم ثقتي أن ذلك وهم، وإني سأصف لكم الأشياء مثلما تعاودني. فلو أغمضت عيوني وفكرت في بيمفيلد في أي وقت قبل الثامنة من عمري فسيكون الطقس صيفاً، ويكون السوق إما في وقت العشاء مع سكون مغبر وناعس يخيم على كل شيء وحصان النقل يدفن رأسه في الكيس المعلق في رأسه يطحن الشعير أو أنّ الوقت يكون عصراً وحاراً في المروج الخضراء الغضة المحيطة بالبلدة، أو وقت الغروب في الممشى خلف مزارع الخضروات ورائحة الغليون والدوريات تطوف خلف السياج. ومع هذا أتذكر الفصول

الأخرى بشكل ما إذ إنّ كل ذكرياتي مرتبطة بالأشياء التي تؤكل، والتي تتنوع باختلاف أوقات السنة. ففي تموز (يوليو) يكون هناك توت الندى القليل والنادر، والتوت الأسود الذي ينضج ويصبح أحمر وجاهزاً للأكل، وفي أيلول (سبتمبر) يتواجد البندق وسمك موسى، لكن البندق الجيد يكون في الأعلى وهو صعب المنال، ثم بعد ذلك يأتي المرّان والتفاح البري بالإضافة للأطعمة الثانوية التي كنت أتناولها في حال عدم وجود الأفضل مثل الزعرور البري وثمر الورد ذي الطعم الحاد واللذيذ بعد تنديه من الأعداب وحشيشة النيار الطيبة خصوصاً وأنت عطشان، وبعدها يأتي الحمّاص الذي يؤكل مع الخبز والزبدة وجوز العفور والنمل الحشبي ذو البندق المر وحتى بذور نبتت الجندي التي هي أفضل من الأشياء عندما تكون جائعاً وبعيداً عن البيت.

كان أخي جو أكبر مني بسنتين، وكانت أمي تدفع لكاتي سيمونز ثمانية عشر شلناً كي تأخذنا في مشاوير صيفية. فوالد كاتي يعمل في معمل البيرة ولديه أربعة عشر طفلاً لهذا كانت العائلة تبحث عن أعمال غريبة.كانت كاتي في الثانية عشرة عندما كان جو في الثامنة وأنا في السادسة، لكن كنت في ذات المستوى العقلي، وكانت تشغلني عن فراغي وتحميني بين صغيري، ولقد كانت محولة معنا من مطاردة العربات التي تجرها الحبول والثيران والكلاب، كنا نذهب في مشاوير

طويلة متقاطرين حيث نأكل أشياء نلتقطها من على جانبي الطريق، وبعد الممشى تطالعك البساتين ثم مروج روبير، وإلى الأسفل طاحونة المزرعة حيث توجد بركة كنا نصيد منها سمك الكارب أنا وأخي جو بعدما كبرنا قليلاً، ثم إلى لورد بجانب بيغفيلد العليا مروراً بمحل الحلويات الذي يقع في طرف المدينة والذي كان موقعه سيئاً لدرجة أن أي شخص يشغله مصيره الإفلاس؛ وبحسب معرفتي فقد كان محل حلويات لثلاث مرات ومرة رابعة محلاً للبقالة، ومرة لتصليح الدراجات، وعلى الرغم من هذا فيه سحر خاص للأولاد وحتى عندما لا يكون لدينا نقودٌ نذهب إليه ونلصق أنوفنا بالواجهة الزجاجية أما كاتي فلم تكن فوق القسمة إذ كنا نتقاتل حول حصتها من الحلويات التي تعادل ربع قرش، ففي تلك الأيام بمكنك شراء أشياء بربع قرش، وأن أكثر الحلويات كانت تباع كل أربع أوقيات بقرش واحد. أما خلطة الفردوس وهي من كسر الحلويات فستة أوقيات بالقرش الواحد، وكان هناك نوع يبلغ طوله ياردة ويلزم نصف ساعة لأكله، وكذلك السكاكر التي هي على شكل فئران وخنازير فكل ثمانية منها بقرش وأكياس السمسمات والذرة وعرق السوس بنصف قرش للكيس الكبير وعلبة من الحلويات الموحة هدية أو خاتم ذهبي أحياناً أو صفارة بقرش، أما في هذا الزمن فلم تعد هناك جوائز واختفت أنواع كاملة من

الحلويات. لقد كان هناك نوع من الحلويات البيضاء مكتوب عليها شعارات، ونوع آخر قرنفلي لزج في علب خشبية بيضاوية وفي داخلها ملعقة معدنية صغيرة بنصف قرش وكاراوي كومفيتس وأصابع الشوكولا وعيدان السكر ومئات الأنواع غيرها، بل آلاف من أنواع السكاكر التي تباع بربع قرش، وتخيل بيمونستر الذي يحتوي على ربع غالون من الليموناضة بقرش واحد فهل أن احصاء كل هذه الأشياء من صنع الرب أيضاً؟

عندما أفكر في الماضي أرى الصيف دائماً، وأتذكر العشب الذي كان بطول قامتي والحرارة تخرج من باطن الأرض والغبار في الممشى والضوء الأخضر يخرج من شجيرات البندق ونحن الثلاثة متقاطرون نأكل أشياء على السياج وكاتي تجرني من ذراعي وهي تقول تعال يا صغيري، وأحياناً تصرخ على جو قائلة تراجع يا جو سنلحق بك. كان جو ولداً ضخماً ذا رأس كبير وربلتين كبيرتين. إنه واحد من الأولاد المتهورين في السابعة من عمره يلبس سروالاً قصيراً وجوارب سوداء سميكة تصل إلى ركبتيه وجزمة ضخمة كتلك التي كان على الأولاد انتعالها في تلك الأيام. أما أنا فكنت ألبس رداء خارجياً تصنعه لي أمي وكاتي، إنه ثوب بدل مرقع يشبه ثوب امرأة ناضجة وهو الذي كان يورث من أخت إلى أخرى من العائلة. ولقد كانت تضع قبعة مضحكة له ذيل

طويل يتدلى حلمها رتبورة ملوّثة تسحل على الأرض وجزمة بالية. لم تكن كاتي أطول من جو كثيراً لكنّ رعايتها للأولاد لم تكن سيئة لأن هذه المهنة في عائلتها تمارس حالما يفطم الطفل، بد عليه أن يهتم ويرعى أطفالاً آخرين، وكانت أحياناً تمثل دور السيدة أو المرأة الناضجة ولديها طريقة للإمساكات ولفت بواسطة مثل أو قول مأثور تعتبره كلاماً لا يقبل الرد، وإن قلت لها لا تهتمي، ترد عليك فوراً لا تهتم قيلت لكي يهتم، ولا تهتم حلقت ووضعت في قدر وسلقت حتى استوت، وإن شتمتها ترد عليك أنّ الكلمات القاسية لا تكسر العظام، أما عندما تباهي وتفاخر ترد عليك إن التباهي يسبق السقوط، وهذا ما حدث فعلاً في أحد الأيام عندما كنت أتبختر متظاهراً أنني جندي فسقطت فوق روث بقرة. تسكن عائلة كاتي في جحر قذر في شارع وسخ خلف مصنع البيرة، وهو يعجّ بالأولاد مثل الحشرات؛ فكلّ أفراد العائلة تفادوا الذهاب إلى المدرسة وكان ذلك من الأمور السهلة في تلك الأيام. إنهم يمتهنون مهناً غريبة ويشقّون دروبهم في الحياة حالما يصبحون قادرين على المشي. ولقد سجن أحد أخوتها الكبار لمدة شهر بسبب سرقة بعض اللفت لكن بعد سنة توقفت كاتي عن اصطحابنا في مشاوير حين أصبح جو في الثامنة وصار من الصعب السيطرة عليه، وخاصة عندما اكتشف أن أفراد عائلة كاتي ينامون كل خمسة أشخاص في

سرير واحد، فضايقها ذلك كثيراً. لقد أصبح لكاتي طفل وهي في الخامسة عشرة ولم يعرف أحد ولا حتى هي نفسها من هو أبوه، وظن أغلب الناس أنه قد يكون أحد أخوتها. لقد أخذ الطفل إلى الملجأ وذهبت هي للعمل عند والتون وبعدها تزوجت من سمكري محطة حتى ينظر عائلتها، وآخر مرة رأيتها فيها كان عام 1913 وأنا أركب دراجتي عبر والتون عندما مررت بأكواخ خشبية مخيفة على جانب سكة القطار مسيجة بعصي اسطوانية حيث ينزل الغجر عندما تسمح لهم الشرطة بذلك في أوقات معينة من السنة. لقد خرجت عجوز شمطاء من احد الأكواخ لتنفض خرقة بالية مجعدة، كان شعرها متدلياً ووجهها دخانياً تبدو في الخمسين من عمرها، لقد كانت كاتي التي كان من المفترض أن تكون في السابعة عشرة.

2

كان يوم الخميس هو يوم البازار (السوق) إذ يأتي رجال ذوو وجوه مدوّرة حمراء مثل اليقطين يحملون عصيّاً بثيابهم القذرة وأحذيتهم الكبيرة المغطاة بروث البقر الجاف، يسوقون بهائمهم إلى السوق منذ الصباح الباكر، حيث كانت الجلبة والضوضاء تدوم ساعات طويلة، يرافقها نباح كلاب وصريخ خنازير ورجال يركبون عربات تجار يشقّون طريقهم وهم

يلوّحون بسياطهم ويشتمون كل شخص له علاقة بالقطيع، وكان الضجيج الأكبر عندما يحضرون ثوراً إلى السوق، وحتى عندما كنت صغيراً، وفي ذلك العمر كنت أظن أن الثيران حيوانات غير مؤذية ومطيعة ولا هم لها سوى الوصول إلى حظائرها بسلام. إن الثور لا يستحق لقبه إذا لم يخرج نصف أهالي البلدة لمطاردته.

بعض البهائم المرتعبة تهرب بقوة أحياناً، وتعلق في شارع جانبي، وإنْ صادفها أحد، يقف في وسط الطريق ملوّحاً بيديه مثل طاحونة الهواء صارخاً وو وو، معتقداً بأن ذلك له تأثير منوّم على الثور، فهذا فيه شيء من الصحة.
وفي الحقيقة فإن أبي كانت له علاقات تجارية مع قلة من المزارعين لأنه لا يملك عربة توصيل كما أنه لا يستطيع أن يبيع ما لديه بدَيْن طويل الأجل، لذا فإن تجارته تقتصر على علف الدواجن والحبوب. لقد كان بروير عجوزاً نتناً وقذراً بلقن رمادية وهو يملك طاحونة، يقف نصف ساعة يتفحص بأصابعه نماذج الذرة التي يضعها في جيبه غير مبالٍ، وينصرف بعد ذلك دون أن يشتري شيئاً. أما في المساء، فتمتلئ الحانات بالرجال الثملين، فسعر ربع غالون من الجعة بنسين، وهي لا تشبه جعة هذه الأيام لأنها تشترك ببعض من النشاط والحيوية. وخلال حرب البوير كلها اعتاد الرقيب المتقاعد التواجد في حانة جورج يومي الخميس والسبت،

يأتي متأنقاً جداً في ملبسه وكريماً في نقوده، وأحياناً تراه في الصباح التالي يقود صبي مزرعة سمياً دفع له شلين وهو ثمل ليكتشف في الصباح أنه يحتاج لأكثر من عشرين جنيهاً ليتخلص من تلك الورطة. أما الناس فكانوا يقفون أمام منازلهم وعندما يشاهدونهما معاً يهزون رؤوسهم كما لو أنهم كانوا في جنازة. لقد سجّله جندياً، لكن سجله «الانضمام إلى الجيش في نظرهم كانت مثل نظرتهم إلى فتاة شوارع قذرة. لقد كانت مواقفهم من الحرب والجيش غريبة فآمنوا بالأفكار الإنكليزية القديمة التي ترى أن المعاطف الحمراء قذرة العالم، وكل من ينضم إلى الجيش سيموت من السكر ومصيره جهنم مباشرة لكنهم على الرغم من ذلك كانوا مواطنين صالحين يضعون الأعلام الاتحادية البريطانية على واجهات محلاتهم، ولديهم الثقة بأن الإنكليز لم يهزموا بأي معركة ولن يهزموا في ذلك الوقت حتى المستقلون تغنوا بالأناشيد القومية عن الخط الرفيع الأحمر والجندي الشاب الذي مات في ساحة المعركة التي تبعد كثيراً عن أرض الوطن كان هؤلاء الجنود الصغار يموتون دائماً على تطاير القذائف والطلقات، وأتذكر أن معنى طلقة حيرني كثيراً وأنا صغير ولم أفهمه، فتكونت صورة غريبة في ذهني عن الشظايا المتطايرة في الجو، وعندما حررت مافيكنغ أوشكت هتافات الناس أن تهدم السقوف وصدقوا طويلاً أن أهل البوير كانوا

يرمون الأطفال في الجو عالياً ليتلقوهم بالحراب. لقد ضايق الأطفال العجوز روبير وطاردوه بصراخهم كروغر.. كروغر فظل مطلقاً لحيته طوال فترة الحرب.

إن مواقف الناس من الحكومة لا تختلف عن موقفهم من الجيش، فكلهم انكليز أقحاح وورق أصيلون، وآمنوا بصدق أن فيكي أفضل ملكة، واعتقدوا أن الأجانب كلهم قاذورات. ولم يفكر أحد منهم برفع الضريبة عنه أو حتى برخصة كلب إن أمكن تفاديها.

قبل الحرب وبعدها كانت لوارباينفيلد دائرة انتخابية فجرت فيها انتخابات فرعية فاز فيها المحافظون خلال الحرب. لقد عصي فهم الأمور عليّ لأنني كنت صغيراً وعرفت أنني من المحافظين لأنني أحب الأعلام الزرقاء أكثر من الحمراء. وأذكر أن رجلاً ثملاً سقط على الرصيف أمام حانة جورج وظل أنفه ينزف ساعات طويلة تحت أشعة الشمس الحارة حتى جف دمه وأصبح لونه أرجوانياً، ثم جاءت الانتخابات قبل عام 1906 وأصبحت أكبر سناً وفهمت ذلك بشكل أو بآخر. كنت ليبرالياً لأن الكل كان كذلك ولقد طرد الناس المرشحين المحافظين ورموهم في بركة ممتلئة بالطحالب. لقد تناول الناس السياسة بشكل جدي في تلك الأيام وأخذوا يخزنون البيض الفاسد قبل الانتخابات بأسابيع وأتذكر، في وقت مبكر من حياتي، النقاش لصبغ

بين أبي وعمي ايركيل عندما اندلعت حرب البوير، عمي لديه دكان أحذية صغير في شارع جانبي متفرع عن الشارع الرئيسي ويعمل اسكافياً أيضاً لكن تجارته كانت تضمحل، لكنه لم يكترث لذلك كثيراً لأنه لم يكن متزوجاً وهو أخ غير شقيق لوالدي وأكبر منه بكثير -عشرون سنة على الأقل- وظل بنفس المظهر خلال الخمس عشرة سنة التي عرفته فيها: رجل حسن جميل الطالع ذو شعر أبيض ولحية شائكة أشد بياضاً، ويميل إلى الطول وله أسلوب خاص بالنقر على مئزره الجلدي بأصابعه ويقف منتصباً، وردة فعله استياءه، ثم يطرح «...» في وجهك مباشرة ويختمها بنوع من القأقأة الناعمة. كان ليبرالياً حقيقياً من ليبراليي القرن التاسع عشر، ولو سألته عما قاله غلادستون عام 1878 لأجابك فوراً وهو من القلائل في لوارينفيلد الذين لم يغيروا آراءهم طول فترة الحرب، إذ كان دائماً يشجب جو شامبرلين وعصابته ويتهمهم برعاع منتزه الرفاق. وإنني أتذكر جيداً أحد جدالاته مع أبي: إنهم وإمبراطوريتهم الواسعة والمترامية الأطراف لا يستطيعون أن يفعلوا معي شيئاً ها ها ها، ثم يرد عليه أبي بصوت هادئ ومنسجم لكنه قلق بأن عبء الرجل الأبيض ثقيل وواجبه نحو المساكين السود الذين يعاملهم البوير بطريقة مشينة لا مناص منه، ونهاية الحديث يخرج العم ايركيل ويبقيان لمدة أسبوع فيما يشبه المقاطعة إلى أن يبدأ جدل

آخر. وعندما تفشت الحكايات عن الوحشية التي كان العم ايركيل ينقلها لوالدي ازداد أبي قلقاً وهماً. العم ايركيل انكليزي متعصب لكنه مؤيد للبوير، فلم يصدق أنهم يقذفون الأطفال في الهواء ليلتقطوهم بالحراب حتى لو كانوا من السود. فهم والدي الأمور بشكل خاطئ إذ لم يكن البوبريون هم الذين يقذفون الأطفال بل الجنود البريطانيون الذين يرمونهم ويدخلون فيهم السهام والحراب مثل الضفادع كنت في الخامسة وكان عمي يرفعني ويؤرجحني في الهواء ويدعني أسقط متخيلاً أنني أطير في الهواء وأحط على طرف حربة.

كان أبي مختلفاً جداً عن عمي، ولم أعرف الكثير عن جدي لأنه مات قبل أن أولد لكنني عرفت أنه كان سكيراً وتزوج من أرملة بائع بذور في وقت متأخر من أيامه، وجراء هذا أصبح عنده محل البذور هذا. إن مهنة الاسكافي لم تناسب أبي رغم معرفته بظواهر الصحة وبواطنها، لكنه ظل يعمل بها كل الوقت ماعدا أيام الآحاد والأعياد وأمسيات بقية أيام الأسبوع. ولا أتذكره دون أن يكون الطحين على كميه وخطوط وجهه وما بقي من شعره. تزوج وهو في الثلاثينيات من عمره وأول ما أتذكره عنه عندما كان في الأربعين رجلاً صغير البنية وهادئاً في مئزر أبيض ويضع أكماماً وهو معفر دائماً بالطحين، ذو رأس مدور وأنف

عريض وشوارب كثة وشعر بلون الزبدة كان يغطيه لطحين دائماً مع أنه فقد الكثير منه.

لقد حسّن جدي من وضعه كثيراً بزواجه من أرملة بائع البذور. أما والدي فقد تعلم في مدرسة والتون مع أولاد نخبة المزارعين والتجار على عكس العم ايركيل الذي يفتخر بأنه لم يذهب إلى مدرسة في حياته قط، وهو علم نفسه بنفسه على ضوء الشموع بعد أن ينتهي من عمله وكان ذ بديهة أسرع من أبي وقادراً على مناقشة أي شخص، ويحفظ لكثير من أقوال كارليل وسبنسر، أما تفكير والدي فكان بطيئاً ولم يكمل دراسته في المدارس الثانوية ولم تكن لغته لانكليزية جيدة وفي أيام الآحاد وكذلك خلال فترات الراحة كان يجلس إلى جانب الموقد في البهو ليقرأ جريدته لمفضلة (بيبل)، أما أمي فكانت تفضّل (وورلد نيوز) لأنها تكتب عن الجرائم وكأنني أراهما الآن، الوقت في لصيف بعد ظهر يوم الأحد- الوقت دائماً صيف - ورائحة الخنزير المشوي تحيم على الجو وأمي بجانب الموقد تقرأ أخبار أحدث لجرائم فتغرق نائمة بالتدريج وفمها مفتوح، وأبي مقابلها في حذاء البيت واضعاً نظارته يشق طريقه ببطء عبر ياردات من لورق المطبوع، وشعور بالصيف الدافئ يلفني؛ إبرة الراعي في النافذة والزرزور يصدح في الخارج وأنا تحت الطاولة مع بوب مصدقاً أن غطاءها خيمة، وبعد ذلك وفي وقت شرب

الشاي يبدأ والدي بقضم العجل والعسل الريفي ويحكي وهو يأكل عن الأشياء التي قرأها في الجريدة من حرائق وتحطم سفن وفضائح المجتمع الراقي والآلات التي تطير والرجل الذي ابتلعه الحوت في البحر الأحمر وخرج بعد ثلاثة أيام حياً، لكنه أبيض قليلاً بسبب عصارات الحوت الهاضمة، وظل أبي يحقق في الجرائد عن هذا الخبر ثلاث سنوات لأنه شكك بتلك القصة وبالآلات الطائرة وما عداها فهو يصدق كل ما يقرأه. كان الناس يعتقدون في لواريفيلد أن الله لو شاء للإنسان أن يطير لخلق له أجنحة، ويرد عمي بركيل دون أن يقدر على كبح غضبه ولو أن الله شاء له أن يركب العربات لخلق إله عجلات لكنه معه لم يصدق بوجود آلات تطير.

كان أبي يذهب إلى مشرب جورج مساء كل أحد لقط ليشرب القليل لأنه صرف الاهتمام عن ذلك، أما باقي أوقاته فيصرف جلها في تجارته وعمله، فإما أن يكون في شرفة الساحة الخلفية أو يتصارع مع الأكياس والبالات، أو في مكان ضيق خلف طاولة العرض مغبراً يجمع أرقاماً في دفتره مستخدماً قلم رصاص وكان رجلاً صادقاً وملتزماً بتقديم بضاعة جيدة ولم يغشّ أحداً حتى في الأيام التي اعتبر ذلك فيها الطريقة المثلى والناجحة في التجارة، وكان يلائمه أكثر لو شغل منصباً حكومياً كمدير محطة قطار في الريف أو

ساعي بريد، إذ لم يكن لديه حب المغامرة والتعامل بالدَّين ليوسع تجارته ولا الخيال لفتح خطوط بيع جديدة. أما إبداعه الوحيد فهو اختراع خلطة بذور لطيور الأقفاص، سمّاها خلطة بوليبغ التي امتدت شهرتها لخمسة أجيال، لكن الفضل يعود في ذلك للعم إيريكيل لأنه كان من محبي الطيور ولديه عدداً من طيور الحسون في دكانه المظلم الصغير. ولقد قامت نظريته على أن الطيور تفقد لونها بسبب نقص تنوع غذائها. كذلك كان لدينا خلف الدكان قطعة أرض صغيرة يزرع فيها أبي حوالي عشرين صنفاً من الأعشاب تحت شبكة من الأسلاك فيجففها ويخلطها مع بذور الكناري العادية، لكن هذه الخلطة لم تفلح مع جاكي المعلق في واجهة المحل والذي اعتبر دعاية لتلك الخلطة إذ لم يتغير لونه ليصبح أسود، ولم يشبه العنّش أبداً

أمي كانت سمينة بحسب ذكرياتي الأولى، ومما لا شك فيه أنني ورثت نقص إفراز الغدة النخامية، أو أياً كان السبب عنها. فقد كانت امرأة ضخمة أطول من أبي، شعرها باهت أكثر من شعره وهي تميل لارتداء الثياب السوداء، ولا أتذكرها دون مئزر باستثناء أيام الآحاد. ولا أبالغ كثيراً لو قلت إنني لا أتذكرها إلا وهي تطبخ. عندما ننظر إلى الماضي البعيد نرى الكائنات البشرية مثبتة في أوضاع وأماكن محددة وبصفات شخصية ثابتة. إنهم يكررون القيام بذات الأعمال،

فأبي أتذكره خلف طاولة البيع يغطي رأسه الطحين، وفي يده قلم رصاص يجمع أرقاماً بواسطته مبللاً إياه بشفتيه، أما عمي ايزيكيل فأتذكر لحيته البيضاء وهو يمط عنقه للخارج ويضرب بكفه مئزره الجلدي.

من المؤكد أنك تتذكر مطابخ تلك الأيام، فقد كانت واسعة ومظلمة ومنخفضة، أرضها حجرية وفيها قطعة خشب كبيرة عبر السقف وقبو في الأسفل. كل شيء كان ضخماً، أو هكذا بدت لي الأشياء وأنا صغير: حوض غسيل حجري كبير بدون صنبور تنوب عنه مضخة حديدية وخزانة لأدوات المطبخ تشغل جداراً كاملاً وترتفع إلى السقف، وموقد عملاق يحرق نصف طن من الجص والفحم، وأتذكر أمي خلف الطاولة تعجن كتلة كبيرة من العجين وأنا أزحف قربها عابثاً بقطع الحطب والفحم المرمية في كل الأركان وأنفخ الخنافس التي تضعها في الزوايا المظلمة. لقد كنت أذهب إليها من حين لآخر استجدي كسرة من الخبز أو لقمة طعام، وترد علي: انصرف من هنا، ولا تفسد عشاءك إن عينك أكبر من بطنك. وكانت تعطيني أحياناً قطعة من الكعك المحلى رغم أنها كانت لا تستحسن الأكل بين الوجبات. لقد كنت أحب مراقبتها وهي تحضر الحلويات - إذ توجد متعة في مراقبة شخص يقوم بعمل يتقنه - أقصد أن تراقب امرأة تتقن الطبخ وصنع العجين فعلاً، إذ تبدو عليها هيئة مقدسة مثل قس

يحتفل بطقس ديني يداها القويتان ملوثتان بالطحين وخلائط البيض في يد والقاطعة وعصا العجين باليد الأخرى، وكانت حركاتها دقيقة وثابتة بشكل رائع. ولقد كانت تقوم بما يجب عمله بالضبط في تلك الأدوات، وعندما تراها وهي تطبخ تدرك أنها في عالمها الذي تنتمي إليه ووسط أشيائها التي تفهمها جيداً. كانت أمي جاهلة باستثناء قراءة جريدة الأحد، والحديث المرضي لقليل، فالعالم الخارجي غير موجود بالنسبة إليها رغم أنها تقرأ بسهولة أكبر من أبي. تأكدت من جهل أمي قبل بلوغي سن العاشرة فهي لا تعرف من هو رئيس الوزراء، ولا تعرف إن كانت ايرلندة شرق انكلترة أم غربها، وأشك أنها تعرف من كان رئيس الوزراء قبل الحرب الكبرى، ولا تريد أن تعرف، وبعد ذلك وعندما قرأت عن دول الشرق حيث ينتشر تعدد الزوجات والحريم السري وحبس النساء مع العبيد المخصيين الذين يحرسونهن فكّرت كم كان ذلك يصعق أمي بحيث يمكنني سماع صوتها للآن وهي تقول يحبسون زوجاتهم بتلك الطريقة. وأشك أنها تعرف ما تعنيه كلمة مخصي في الحقيقة إنها عاشت في مكان خاص وصغير مثل أي حرمة شرقية؛ حتى في بيتنا هناك أماكن لم تطأها قدماها، فهي لم تدخل العلية التي في الساحة الخلفية ونادراً المحل، ولا أذكر أنها خدمت زبوناً أو تعرف أين توضع الأشياء أو تفرّق بين القمح والشوفان،

ولماذا ستعرف إذا كان العمل في المحل من مهام الرجل، كذلك لا فضول لديها فيما يتعلق بالنقود إنّ عمله هو عمل المرأة، أي العناية بالبيت والطعام والغسيل والأطفال وهي كانت تفقد رشدها إن رأت أبي أو أي رجل آخر يخيط ولو زراً بنفسه. وفيما يتعلق بوجبات الطعام في بيتنا فكل شيء كان يُنجز بدقة متناهية مثل الساعة ليس المقصود بعمل الساعة أنه ميكانيكي بل تلقائي وطبيعي، أي أنك تعرف أن الفطور سيكون على الطاولة صباحاً مثلما تعرف أن الشمس ستشرق غداً. ظلت أمي طيلة حياتها تنام عند التاسعة مساءً وتستيقظ في الخامسة، وكانت تعتقد أن النوم المتأخر هو تفسخ وشر وسلوك الارستقراطية الأجنبية، ولا تقبل أن تساعدها أي امرأة في عمل البيت رغم أنها كانت تدفع لكاتي سيمونز مقابل اصطحابها في نزهات ومشاوير، وتعتقد بقوة أن المرأة المستأجرة تكنس الأوساخ وتدسها تحت الخزانة. فوجباتك تكون جاهزة على أتم شكل، وفي حينها وهي وجبات ضخمة من لحم البقر المسلوق والزلابية ولحم البقر المشوي ولحم الضأن المسلوق واليوركشاير والمخلل ورأس الخنزير وفطيرة التفاح والفاتق المنقطة والحلويات المحشوة بالمربى، وكانت متمسكة بأسلوب التربية القديم حيث يجلد الأولاد بالسوط ويبعثون إلى أسرّتهم بعد تناولهم العشاء، ويبعدون عن طاولة الطعام إن أصدروا أصواتاً أو رفضوا أكل شيء مفيد لهم، أو

تمردوا على أهلهم. لقد كانت أمي أقسى من أبي رغم أنه كان يردد دائماً "إذ غابت العصا انحرف الأولاد". وكان صعباً ومتساهلاً جداً وخصوصاً مع جو الذي شكل حالة صعبة منذ البداية، بل كان يوفر له حماية وملاذاً آمنين، ويحكي لنا قصصاً حول الجلد المرعب الذي اعتقد لأن أنه ليس صحيحاً، لأنه مع مرور الوقت أصبح جو قوياً جداً وفي الثانية عشرة من العمر لم يعد يطوله أي عقاب.

في ذلك الزمان كان من اللائق أن لا يكرر الآباء الكلمات والنصائح على مسامع أولادهم باستمرار، وسمع دائماً رجالاً يفاخرون أنهم جلدوا أبناءهم وأوشكوا أن يزهقوا حياتهم لأنهم سرقوا تفاحاً أو أعشاش طيور أو دخنوا تبغاً، لكن ذلك كان يحصل في بعض العائلات، فمثلاً كان للعجوز عروف ولدان صبيان في السادسة عشرة والخامسة عشرة ضبطهما يدخنان في كوخ الحديقة فضربهما بقسوة وسمع صراخهما كل أهل البلدة لكن كل العقوبات لم تؤثر بهما لأن لوفغروف كان مدخناً كبيراً.

وعلى الرغم من أن الأولاد كلهم كانوا يسرقون التفاح وأعشاش الطيور ويقومون بالتدخين عاجلاً أم آجلاً ظلت الفكرة الدارجة هي وجوب معاملة الأولاد بقسوة، وعملياً كل ما كان يستحق العمل كان محرّماً على الأولاد، ونظرياً عند أمي كل ما يريد الأولاد عمله خطير بدءاً من السباحة وحمل

كرات الثلج وتسلق الأشجار والتزلج والتعلق بالعربات من الخلف والمقلاع وانتهاء بصيد السمك، فكل الحيوانات خطرة ماعدا كلبنا بلرو، القططين، العصفور جاكي، حيث لكل حيوان أسلوبه الخاص في الهجوم، فالخيول تعض والخفافيش تلتصق بالشعر والحشرات تدخل في الأذن والبجع يكسر الساق بضربة من جناحه والثيران تنطح والأفاعي تلدغ وكلها عند أمي تلدغ، وعندما اقتبست لها من الموسوعة أن الأفاعي لا تلدغ بل تعض قالت يجب على الأولاد أن يلتزموا الصمت عندما يتكلم أهاليهم، والسحالي والضفادع والدود والسمندل كلها تلسع، وكل الحشرات تلدغ وكل أصناف الأطعمة ما عدا تلك التي نتناولها في البيت في وجباتنا هي إما سامة أو سيئة. فالبطاطس النيئة قاتلة والفطر أيضاً قاتل ماعدا الذي نشتريه من محل الخضار، والمشمش يسبب المغص والتوت البري يسبب الطفح الجلدي، وإن استحممت بعد الطعام ستموت من تقلص العضلات، وإن جرحت بين الإبهام والسبابة ستصاب بالكزاز، وإن غسلت يديك بالماء الذي يسلق فيه البيض ستصاب بالثآليل، وتقريباً كل شيء كان ساماً برأيها. لهذا وضعت باباً في المدخل لمنعنا من الوصول إلى دكان والدي من البيت، فكعكة البقر وذرة الدجاج وبذور الخردل وفلفل الدجاج الأسود كلها سامة والحلويات وتناول الطعام بين الوجبات مضر، وعندما كانت

تصبح مربى الخوخ تدعنا نأكل المادة الحلوة التي تحصل عليها من أعلاه فنلتهم الكثير منها حتى نصاب بالتخمة، وهذا لا يمنع من وجود بعض الأشياء المفيدة القليلة، فالبصل علاج لكل شيء تقريباً، وربط جورب حول العنق يقلل من التهاب اللوزتين والكبريت الموضوع في إناء الكلب مقوي توجد كتلة من الكبريت في إناء بيلر منذ سنتين ولم تذب بعد.

كما نشرب الشاي في الساعة السادسة حيث تنهي أمي أعمال المنزل عند الرابعة لتتناول كأس الشاي بعدها، وتقرأ الجرائد لكنها في الحقيقة كانت لا تقرأ سوى جريدة الأحد، جريدة العطلة الأسبوعية التي تنشر أخبار اليوم والجرائم بعد أن اكتشف محرروها أن الناس لا يهتمون إن كانت الجرائم حديثة أم قديمة فكانوا يعودون أحياناً إلى زمن الدكتور بالمر والسيدة مانينغ واعتقد أن صورة العالم خارج لو ريسفيلد عند أمي هي مسرح للجرائم التي لها تأثير فظيع وسحر كبير عليها، ودائماً كانت تردد عبارة كيف يمكن أن يكون الناس أشراراً إلى الحد الذي يقطعون فيه رقاب زوجاتهم ويدفنونهن تحت الأرض الإسمنتية ويرمون الأطفال في جوف الآبار السحيقة، كيف يمكنهم ذلك؟

لقد تزامن زواج أبي مع جريمة جاك ريبر التي سببت هلعاً عاماً فكانت تملأ مصاريع النوافذ وواجهات المحلات، وراودها هاجس أن جاك ريبر قد يكون مختبئاً في لو ريسفيلد

وأقلقتها كثيراً قضية كريبن التي حدثت منذ سنوات، ولا أزال أتذكر صوتها وهي تردد: كيف يستطيع قطع رقبة زوجته المسكينة ودفنها في قبو الفحم، ماذا ستفعل بهذا الرجل لو أمسكت به. أما قضية الدكتور الأمريكي الصغير الذي فصل أعضاء زوجته ونجح في إخراج عظامها ورمي رأسها في البحر فقد أرعبتها جداً. وإنني أتذكر الدموع التي كانت تفيض من عينيها عندما تردد تلك الحكاية. وكانت تقرأ يوم الأحد هيلدا رفيقة البيوت الموجودة في كل بيت كجزء من الفرش والمعدات التي حافظت على بقائها مع تغيير طفيف رغم الجرائد النسائية الكثيرة التي صدرت بعد الحرب والتي تصفحت واحدة منها في اليوم الفائت فوجدتها لا تزال تنشر القصص المتسلسلة التي تستمر ستة شهور، وتنتهي بأزهار البرتقال وعبارة تتبع في الأعداد القادمة؛ نصح للوحدات المنزلية وذات الإعلانات عن ماكينات الخياطة وعلاج السيقان القبيحة لكن ما تبدل فيها هو خط الطباعة والرسومات، ففي تلك الأيام كان نموذج البطلة يشبه سلق البيض، أما في هذه الأيام فمثل الأسطوانة. كانت أمي قارئة بطيئة لكنها كانت تشق طريقها في إصرار من الغلاف إلى الغلاف، بادئة بالقصص المتسلسلة ثم القصتين القصيرتين فالإعلانات مروراً بالردود على القراء، وتدوم القراءة طيلة الأسبوع دون أن تنهيها أحياناً لأنها تحاول أن تسترد قيمة

البساتين الثلاثة التي دفعتها ثمناً لشرائها. كانت تجلس على الكرسي الأصفر القديم بجانب الموقد واضعة على سيخه الحديدي إبريق الشاي الذي يغلي ببطء في المكان المخصص له في طرف الموقد فتغفو أحياناً بسبب حرارة الجمر وطنين الذبابة الزرقاء الكبيرة لكنها تستيقظ في السادسة إلا ربع لتعاود القراءة بعزيمة أقوى، وتنظر إلى الساعة الموضوعة على رف الموقد فينتابها القلق خشية أن يتأخر الشيء الذي لم تفقده، أبداً.

في تلك الأيام ولغاية العام ألف وتسعمائة وتسعة كي أكون أكثر دقة كان لا يزال بمقدور أبي أن يدفع لصبي يساعده في المحل، وكان يأتي ليشرب الشاي معه ويداه يعلوهما الطحين فتتوقف أمي عن تقطيع العجين وتقول له ألا تمنحنا بركتك؟ ويتمتم أبي بورع لما سقاه، «جعلك يا رب من الشاكرين». وبعدما كبر جو كانت تسأله باركنا يا جو الذي يقولها بصوت عالٍ، أما أمي فلم تباركنا أبداً لأن المبارك يجب أن يكون من الذكور.

لم يكن بيتنا صحياً كغيره من بيوت لوريسفيلد الخمس مئة، فعشرة منها فقط فيها حمامات وخمسون فيها ما يسمى مرحاضاً. وقد كنت أشم رائحة الزبالة في الساحة الخلفية، لذلك كان البيت يعجّ بالحشرات في فصل الصيف وتتكاثر الخنافس السوداء في الكوة الخشبية والصرصار في مكان آخر

في المطبخ، إضافة إلى دود الطحين في المحل، وحتى سيدات المنازل المخبورات كأمي لا يقمن بالاحتجاج على وجود الخنافس التي كان منها الكثير في الخزنة لخشية وأدوات رق العجين أما البيوت في الشارع المقابل لموقعة خلف معمل الجعة حيث تعيش كاتي سيمونز وأسرتها فكانت عرضة لجحافل البق الذي يعتبر عاراً كبيراً بالنسبة لأمي، أو أية زوجة حانوتي آخر.

أما الذباب الأزرق الكبير فيكثر في الأماكن المخصصة لحفظ اللحوم، ويتعلق بأسلاك أغطية اللحم، ولقد شاع بين الناس أن الذباب عمل رباني ولا يمكن فعل الكثير ضده سوى تغطية اللحم.

لقد قلت أشياء كثيرة عن العودة إلى الماضي وأقدم ما أتذكره هو رائحة السنفوان، كذلك تعود رائحة المرسالة إلى مرحلة موغلة في القدم أيضاً، ورائحة الكلب الهرم نيلر القوية، وروائح وأصوات لا يعلمها إلا الله وأخرى تنصت إليها لتعرف إن كانت أصوات ذبابة زرقاء أم طائرة قديمة.

3

لقد ذهب أخي جو إلى مدرسة والتون قبلي بسنتين، وكنا لا نذهب إلى المدرسة قبل سن التاسعة لأننا يجب أن نركب الدراجة ونقطع أربعة أميال صباحاً ومساء فخافت أمي ولم

تسمح لنا بذلك، لكن بمرور الزمن أصبح هناك عدد من السيارات لكنه قليل.

أما أنا فذهبت إلى مدرسة بنات تديرها السيدة العجوز هوليبيت ويرتادها أولاد أصحاب الحوانيت لتفادي عدد المدارس الداخلية، ورغم معرفة الجميع بأن الأم هوليبيت محتالة وعديمة الفائدة كمعلمة لأنها في السبعين من عمرها وصماء وترى بنظارتها بصعوبة وكل ما تملكه عصا من الخيزران ولوحاً أسود وبضعة كتب بالية ودزينتين من ألواح الإردواز القذرة، وقد تستطيع ضبط الفتيات بسهولة أما الأولاد فيحتالون عليها ويتهربون من كتابة واجباتهم ومن الدوام متى ما أرادوا ذلك. وحدثت فضيحة عظيمة في إحدى المرات عندما وضع أحد الأولاد تحت ثوب فتاة شيئاً لم أفهمه في ذلك الوقت، لكن الأم هوليبيت نجحت في إسكاتها، وإن فعل شيئاً كانت تهدد بعبارتها المكررة: سوف أخبر والدك، لكنها نادراً ما فعلت ذلك، وكنا نعرف بذكائنا أنها لا تجرؤ، وإن حاولت طردنا بالعصا كان من السهل تفاديها نظراً لكبرها وعرجها.

في الثامنة من عمره انضم جو إلى عصابة من الأولاد أطلقوا على أنفسهم عصابة الكف الأسود والتي كان قائدها سيد لوفيروف الابن الأصغر للسراج والبالغ الثالثة عشرة من العمر، أما الأعضاء فولدان آخران يعملان في الحوانيت وصبي من معمل الجعة وولدان من المزارع كانا يهربان

ساعتين ليتضما إلى العصابة. لقد كانا ضخمين حتى ليكاد أن ينفجرا في سراويلهم القصيرين المصنوعين من قماش قطني قوي ويتكلمان بلهجة بذيئة، ويحتقرهما أفراد العصابة الأخرين لكنهم قبلوا انضمامهما لتفوقهما في معرفة الحيوانات. إذ إن جنجر وهو اسم أحدهما يستطيع الإمساك بأرنب بيديه فقط، فعندما يراه مستلقيا على العشب يهوي عليه كنسر أمريكي.

لم ندرك ونحن الصغار التمييز الاجتماعي الكبير بين أولاد أصحاب الدكاكين وأولاد العمال وعمال المزارع إلى أن أصبحنا في السادسة عشرة من العمر. للعصابة كلمة سر واختبار صعب يتم بجرح الإصبع وأكل دودة الأرض. نجحت العصابة في التسبب ببعض الإزعاج وذلك بتكسير زجاج النوافذ ومطاردة الأبقار ونزع مدقات البيوت وسرقة الفواكه بمئات الأرطال، كما نجحت في الشتاء أحياناً في مستعمرة ابن مقرض لصيد الجرذان عند سماح المزارعين لهم بذلك، وخططت لادخار مبلغ من المال لشراء مسدس صالون الذي كان يساوي خمسة شلنات لكن الادخار لم يتجاوز الثلاثة شلنات، أما في الصيف فكانوا يلعبون لصيد السمك والبحث عن أعشاش الطيور. جو يهرب من مدرسة الأم هوليبيت يوماً واحداً في الأسبوع، ومن مدرسة والثون يوماً كل أسبوعين وفي المدرسة ابن بائع المواد القادر على تزوير أي

حظ بسي واحد، فيروز رسالة من أمك تفيد أنك كنت مريضاً في اليوم السابق. كدت أجن للانضمام إلى العصبة لكن جو يصدني دائماً بقوله إنهم لا يريدون أولاداً كسالى ومشكمين.

جذبتني فكرة صيد السمك كثيراً لأني بلغت الثامنة ولم أمارس هذه الهواية بعد سوى الصيد بالشبكة البسيطة التي إن أفلحت لا تمسك إلا بسمك أبو شوكة أحياناً. لا تدع أمي ألعب بسبب رعبها من أي مكان قريب من الماء، فحرمت علينا الصيد مثلما حرم الآباء في ذلك الوقت كل الأشياء، ولم أدرك آنذاك أن الكبار لا يمكنهم ذلك.

جعلتني فكرة الصيد متوحشاً وملأتني بالإثارة؛ مررت كثيراً ببركة طاحونة المزرعة فرأيت صغار سمك الكارب على السطح وتحت شجرة الحور أحياناً، وفي الزاوية كانت سمكة كبيرة من الكارب مفلطحة وضخمة، هكذا بدت لي وبعيون هائلة حيث يصل طولها إلى ست بوصات وهي تقفز إلى السطح وتغطس ثانية. أمضيت ساعات طويلة وأنا ألصق وجهي بواجهة محل ولاس لبيع البنادق وأدوات الصيد في الشارع العام.

كنت أستيقظ في الصباح في فصل الصيف وأنا أفكر بحكايات جو عن الصيد وأتعجب من الإشعاع الخرافي للسمك ولأدوات الصيد في عيون الأطفال حيث يحس

بعضهم بذلك الشعور نحو البادق والتسديد، وبعضهم الآخر نحو الدراجات النارية أو الطائرات أو الخيول. شعور لا يمكن تفسيره أو إخضاعه للمنطق لأنه سحر محض. وفي صباح يوم من أيام حزيران(يونيو) عرفت أن جو سيقطع عن المدرسة ليذهب إلى الصيد، وأظن أنني كنت في الثامنة من عمري فقررت اللحاق به لكن جو تكهن بنيتي بطريقة ما وهاجمني قائلاً:

- اسمع يا جورج الصغير إياك أن تفكر في اللعب مع العصابة اليوم لأنك ستبقى في البيت.

- لا لم أفكر بشيء من هذا.

- ستبقى في البيت لأننا لا نريد أولاداً قذرين في صفوفنا.

تعلم جورج كلمة قذر حديثاً، فأكثر من استخدامها حتى أن أبي سمعه مرة فأقسم أن يزهق روحه لكن كعادته لم يفعل شيئاً.

انطلق جو راكباً دراجته إلى المدرسة ومعه حقيبة الكتب وقبعة المدرسة قبل خمس دقائق من عادته. وهو كان يفعل ذلك عندما ينوي الانقطاع عن المدرسة، وحينما آن موعد ذهابي إلى مدرسة الأم هوليت تسللت واختبأت في الممر الذي يقع خلف البساتين وأنا أعرف أن العصابة ستذهب إلى البركة التي عند طاحونة المزرعة وسألحق بهم ولو ذبحوني،

وقد يجلدونني وعندما أرجع إلى البيت للغداء سأجلد ثانية بعدما تعرف أمي بعدم ذهابي إلى المدرسة.لم اكترث لهذا كله، وكنت مصمماً على الذهاب مع العصابة مهما كلف الأمر. تصرفت بمكر إذ تركت جو يلعب ويصل إلى طاحونة المزرعة من خلال الممر وتبعته سالكاً الممشى المحيط بالمروج والطرق البعيدة عن السياج لكي أصل إلى مستوى البركة دون أن يراني احد من أفراد العصابة. كان صباحاً رائعاً من أيام حزيران (يونيو) حيث يصل نبات الحوذان إلى مستوى ركبتي، والريح خفيفة تحرك قمم أشجار الجوز وكانت أوراق الشجر الطرية الحريرية تبدو مثل غيوم خضراء داكنة كانت الساعة التاسعة صباحاً وعمري ثمانية أعوام وكل ما يحيط بي هو الصيف، الأسيجة الشائكة والورود البرية التي لا تزال في براعمها وصمة سفلاء تجرف في الأعلى بعيداً، وعلى التلال غابات زرقاء داكنة تحيط بيبيفيلد. من جهتي لم اهتم سوى بالبركة الخضراء والسمك والعصابة بكلاباتهم وعجينهم وخيطانهم كما لو أنهم كانوا في الفردوس؛ وكل ما أريده أن أنضم إلى جو وسيد لوفغروف وصبي المحل وابن حانوتي آخر اعتقد أن اسمه كان هاري بارنز.التفت جو نحوي ومشى نحوي مثل هر عازم على القتال.

– يا إلهي! إنه الصبي والآن أنت هنا. ماذا قلت لك؟ ارجع إلى البيت بأقصى سرعة.

كنا نتكلم أنا وجو بلهجة سوقية عند الغضب، تراجعت بعيداً عنه وقلت:

- لن أعود إلى البيت.

- بل ستعود.

إقطع أذنه يا جو، لا نريد صغاراً معنا. قال سيد.

- لن ترجع إلى البيت إذاً؟

- كلاّ.

- حسناً يا صغيري حسناً.

هجم عليّ وطاردني وامسك بأذني أكثر من مرة، لكنني لم أبتعد عن البركة إذ كنت أركض حولها لكنه امسك بي وطرحني أرضاً وداس على ساعدي بركبتيه وبدأ في لوي أذناي وهذا هو أسلوبه المفضل في التعذيب الذي كنت لا أطيقه، فبدأت أرغي لكني لم أستسلم ولم أقطع وعداً بالذهاب إلى البيت لأني أردت البقاء والصيد مع العصبة، بعدها التم أفرادها حولي وطلبوا من جو أن ينهض عن صدري ويدعني أبقى معهم إن أحببت وهكذا بقيت معهم

كان لديهم الصنارات والخيوط والطوافات وقطع العجين الملفوف لقد قمنا بقطع العصي من شجرة الصفصاف التي في زاوية البركة. كان بيت المزرعة يبعد حوالى مئتي يردة وعلينا الاختباء عن الأعين لأن العجوز بروور يحتقر الصيد رغم أن الأمر لا يشكل له أي أذى فهو يستخدم البركة

لسقاية قطيعه لكنه يكره الأولاد. غار إفراد العصابة مني وبدأوا بتلاوة تعليماتهم علي بأن لا أخرج إلى الضوء، وأن الضجة التي أصدرها تخيف السمك وتبعده رغم أنني لم أكن أسبب بعض الضجة التي يسببها أقلّهم لحذري، وفي النهاية لم يسمحوا لي بالجلوس معهم، بل أرسلوني إلى طرف من البركة ماؤه ضحل وظله قليل لأنني أرشش الماء وأخيف السمك، كان جزءاً منعزلاً من البركة لا يرتاده السمك أبداً في الأحوال العادية لأنني أعرف بالغريزة الأماكن التي يتواجد فيها. لابأس ها أنا أصيد أخيراً، واجلس على حافة العشب والصنارة في يدي والذباب الطنان يطير من حولي ورائحة النعناع البري القوية والعلبة الحمراء على الماء الأخضر. كنت سعيداً مثل سمكري رغم آثار الدموع والأوساخ التي غطت وجهي.

لا يعلم إلا الله كم جلسنا حول البركة إذ امتد الصباح وطال وازداد وهج الحر، ولم تتحرك الخيوط. لقد كان يوماً حاراً وساكناً ومناسباً جداً للصيد لكن لم تهتز الطوافات على وجه الماء الذي يعكس رؤية أعماقه وكأنه زجاج أخضر غامق، والسمك راقد تحت السطح يتشمس وأحياناً يخرج سمندل من بين الطحالب ليرتاح واضعاً أصابعه على الطحالب وأنفه خارج الماء.لكن السمك لم يمضغ الطعم رغم أن بعض أفراد العصابة ادعوا أنهم شعروا بنقرة، وامتد الوقت

وازدادت الحرارة أكثر فأكثر وأكلنا الكباب وتلك رائحة الشاطئ البحري التي تشبه رائحة محل حلويات "لام ويللر"، وشعرت بجوع قاتل لكن من أين لي بالطعام، فجلست هادئاً ولم ترف عيني عن طوافتي، أعطوني الكثير من الطعم وأخبروني ما يجب أن أفعل ولم أسحب خيطي لمدة طويلة لأنهم حلفوا أن الضجيج الذي أصدره يخيف السمك على بعد خمسة أميال.

أعتقد أنني أمضيت ما يربو على الساعتين عندما هتزت طوافتي وعرفت أنها سمكة مارة مصادفة قرأت الطعم لم أخطئ حول حركة العلبة، إنها هزة خفيفة وتختلف عن حركة الخيط وارتعاشه مصادفة، وبعد لحظة تحركت للأعلى ثم للأسفل فلم أعد أتمالك نفسي وصحت عندي هزة، وردد صداها الجدران، لكن في اللحظة التي تلت لم يبق عندي أدنى شك إذ غطست العلبة للأسفل ورأيتها حمراء قاتمة تحت الماء. رمى الأولاد صناراتهم في الهواء واندفعوا نحوي عندما انحنت صنارتي، يا إلهي. يا له من شعور، لخبط في يدي والسمكة تشد من الطرف الآخر فصرخت صرخة مرعبة وخرجت السمكة طائرة في الجو، سمكة ضخمة فضية اللون، فصرخ الجميع ثم انزلقت السمكة من كلاب الصنارة لتسقط على الشاطئ تحت الضفة لقد كان الماء ضحلاً جداً لهذا لم تستطع الانقلاب ثانية فاستلقت على جنبها يائسة. رمى جو

نفسه في الماء مرشرشاً الآخرين وأمسكها بكلتا يديه وصاح أمسكتها، ثم رماها على العشب فتجمعنا حولها ناظرين إليها بإعجاب. رفرفت السمكة كثيراً وكانت حراشفها تلمع بكل ألوان قوس قزح، إنها سمكة كارب كبيرة طولها سبع بوصات على الأقل وتزن أكثر من ربع رطل.

بعد لحظة سقط وسطنا ظل، فنظرنا إلى الأعلى لنرى العجوز بورو واقفاً فوقنا بقبعته اللبادية المستديرة الطويلة وحذائه المصنوع من جلد البقر وفي يده عصا غليظة تتشعب مثل أفراخ الحجل التي ترى باشقاً فوقها، وتفحصت لون خد تلو الأحمر بعمه القيح الذي يحلو من الأسنان وذقنه التي بدت مثل كارة البندق بعد أن حلق لحيته.

- ماذا تفعلون أيها الأولاد؟

لم يكن هناك أي شك عما كنا نفعله، لم يجب أحد، تابع قائلاً:

- سوف ترون عواقب المجيء إلى بركتي والصيد فيها

زأر فجأة وهجم علينا ضارباً بعصاه في كل الاتجاهات، فتفككت عصابة الكف الأسود وتفرقت في شتى الاتجاهات وتركنا السمكة والصنارات خلفنا وطاردنا العجوز إلى منتصف المرج. كانت ساقاه متخشبتين ولم يقدر على الركض بسرعة لكنه نجح في بعض الضربات قبل أن نبتعد عنه، لكن غالبية الضربات انصبّت عليّ وتلونت ربلتا ساقي باللون الأحمر

الداكن كان يصرخ خلفنا لكننا وصلنا إلى الطرف الآخر من السياج.

أمضيت يومي كله برفقة العصابة دون أن يقرّوا بأنني عضو حقيقي فيها، لكنهم تحملوني وقبلوني مؤقتاً، وصدف غادر الصبي الذي يشتغل في معمل البيرة لأنه غاب عن العمل متذرعاً بعذر كاذب انطلقنا في مشوار طويل من تلك المشاوير التي يقوم بها الأولاد عندما يكونون بعيدين عن البيت كل اليوم وبدون إذن، لكن هذا المشوار اختلف عن مشاويرنا مع كاثي سيمونز. تناولنا الغداء عند قناة قذرة في طرف المدينة مملئة بالعلب الصدئة ونبات الشمرة البرية. لقد أعطوني من طعامهم وقام أحدهم بتحضير شراب بلسمت الذي كان مع سيد لومعروف لأن الجو كان حاراً جداً ورائحة الشمرة وغاز الشراب جعلانا متجشئاً؛ وبعدها مشينا في الطريق الترابي الأبيض إلى بينفيلد العليا التي كنت أذهب إليها لأول مرة، فرأيت أشجار الزان مجلوها بلملسه لعلية التي شقت عنان السماء وبدت الطيور فوق الأغصان كالنقط والأوراق الميتة التي تشبه السجادة يمكن للمرء أن يذهب حيثما شاء في الغابات في تلك الأيام لأن بيت بينفيلد مغلق ولم يعد يحتفظ بملاحيه، لكن أسوأ ما قد يحدث أن تصادفت عربة محملة بالحطب. وجدنا شجرة مقطوعة وملقاة على الأرض عدت حلقات جذعها مثل الهدف فسددت إليه

ورمياه بالحجارة، ورمى الأولاد العصافير بمقاليعهم، و دعى سيد لوفقروف انه أصاب واحداً لكنه انصعق بفرع لشجرة فكذبه جو فاوشكا أن يتشاجرا، ثم نزلنا إلى كهوف كلسية ممتلئة بأوراق الأشجار المتساقطة التي سدت كالأسرة، ك سمع صدى صراخنا، فتلفظ أحدهم بكلمة قذرة ثم أردفه بكل المرادفات التي نعرفها، وكنت يومها لا أعرف الكثير فأصبحت محط سخرية. لقد ادعى سيد لوفعروف أنه يعرف كيف يولد الأطفال، فهم يولدون كالأرانب من عند أبهم يخرجون من السرة، وبدأ هاري بارنز بحفر الكلمة على شجرة زان لكنه ملّ فتوقف بعد الحرفين الأولين. بعدها تجولنا حول كوخ بيت بينفيلد - شاع بين الناس وجود بركة فيها سمكة ضخمة ولم يجرؤ احد على الدخول لان العجوز المستأجر هودجر يقوم بدور الحارس وهو يكره الأولاد، رأيناه يحفر في حديقة الخضار عندما مررنا به،شتمناه من وراء السياج فطاردنا ووصلنا إلى طريق وولتون فشتمنا سائقي العربات الذين ردوا علينا، لكن لم تُصبنا سياطهم لأننا كنا على الطرف الآخر من الطريق وعلى المقلب الآخر هناك مكان للطرائد، لكنه ضحى مكب نفايات عثرنا فيه على شجر عليق اسود وسط أكوام من العلب الصدئة وإطارات الدراجات والمقلايات المثقوبة والقناني المكسرة التي نبتت فيها الأعشاب. أمضينا ساعة هناك فتلوثنا من رأسنا حتى

أقداماً ونحن ننش عن الأعمدة الحديدية الصدئة لأن هري بارنر حلف أن الحدادين يعطون ستة شلنات مقابل كل مئة باوند من الحديد القديم. وجد جو عشاً لقرح درج في شجرة عليق فأخرجناه وضربناه بالحجارة ثم دسنا عليه و قترب من وقت تناول الشاي وعلمنا أن العجوز برور قد بلغ حده، وأن جلد السياط ينتظرنا في البيت، كذلك شعرنا بجوع شديد ولم نعد قادرين على البقاء في الخارج فتقاطرنا باتجاه البيوت ومررنا بالبساتين وطاردنا جرذاً بالعصي لكن العجوز بينيت رئيس المحطة والذي يعمل في البساتين غضب غضباً شديداً ما لأننا دسنا على حقل البصل الخاص به.

بعد عشرة أميال من المشي الذي استمر طوال اليوم لم أتعب، بل لحقت بالعصابة وحاولت القيام بكل ما فعلوه لكنهم سخروا بالولد وتباهوا عليّ كثيراً، ورغم كل ذلك تابعت إلى النهاية بشكل أو بآخر. كان شعوري رائعاً من الداخل وهو شعور لن تعرفه إلا إذا جربته وإن كنت رجلاً ستحسّ به يوماً ما، وأعرف أنني أصبحت صبياً ولم أعد صغيراً وهنا الروعة أتجول حيث لا يمكن للكبار اكتشافي وأطارد الجرذان واقتل الطيور وأرمي الحجارة وأشتم سائقي العربات وأتلفظ بالكلمات القذرة. شعور قوي وكامل، شعور بمعرفة كل شيء وعدم الخوف من اي شيء، وهذا مرتبط بخرق القوانين والقتل، الشعور بالطرق الترابية البيضاء

والثياب التي تفوح منها رائحة العرق وروائح العشب الطري والثمرة وطعم الليمون الفوار والكلمات القذرة ورائحة مكب النفايات الحامضة والغاز الذي جعلنا نتجشأ وبعض أفراخ الطيور، شعور بالسمكة التي تلوّت على الخيط، وكل ذلك وغيره كثير، وإني أحمد الله الذي خلقني ذكراً لأن النساء لا يجربن هذا الشعور.

من المؤكد أن العجوز برور قد أخبر الجميع فبدا أبي مكتئباً جداً، فأحضر سوطاً من الدكان وهدد بزهق أرواحنا لكن جو صرخ ورفس ولم يستطع أبي من إصابته إلا في ضربتين وتمّ طرده من المدرسة في اليوم التالي، أما أنا فحاولت المقاومة لكنني كنت صغيراً بالنسبة لأمي التي وضعتني على ركبتيها وضربتني بالسوط وبهذا أكون قد جلدت في ذلك اليوم ثلاث مرات من جو ومن العجوز برور ومن أمي.

في اليوم التالي لم تقر العصابة أني عضو فعلي فيها وإنما يجب أن أتجاوز امتحانها الصعب وهو عبارة عن أشياء استوحوها من قصص الهنود الحمر وكانوا صارمين في ذلك. يجب أن أعض دودة قبل بلعها ولأني كنت الأصغر وبسبب غيرتهم لأني الوحيد الذي اصطاد سمكة لدى الناس عموماً ميل إلى المبالغة عندما يتكلمون عن صيد السمك. فالأسماك تصبح أكبر بكثير أما سمكتي فكانت تصغر تصغر حتى

سمعتهم يقولون إنها كانت أصغر من السمك الصغير لكن ذلك غير مهم، لقد ذهبت للصيد ورأيت الفلينة تغطس تحت الماء وشعرت بالسمكة وهي تشد الخيط ومهما كثرت أكاذيبهم فلا يمكنهم أخذها مني.

4

تتمحور كل ذكرياتي في السنوات السبع التالية، أي منذ أن كنت في الثامنة إلى أن بلغت الخامسة عشرة حول صيد السمك بشكل أساسي، لكن هذا لا يعني أنني لم أفعل أي شيء سواه، فعندما تنظر إلى الماضي البعيد تتضخم بعض الأشياء لتغطي غيرها، وبعد أن تركت مدرسة «الأم هوليبيت» ذهبت إلى مدرسة ابتدائية بحقيبة مدرسية جلدية وقلنسوة سوداء مخططة بالأصفر وسروال طويل، وحصلت على دراجتي الأولى وهي كانت من النوع ذي العجلات الثابتة لأن ذات العجلات المتحركة كانت غالية؛ كنا نضع أقدامنا على مقدمة الدراجة حين نهبط التل فتتحرك الدواسات وتدور، وكان هذا المشهد من خواص الألف وتسعمائة بالنسبة إلى ولد يهبط التل رأسه إلى الوراء ورجلاه مرفوعتان في الهواء. ذهبت إلى المدرسة الابتدائية وأنا أرتعد من الخوف بسبب الحكايات التي رواها لي جو عن العجوز ويسكرز. كان ويسكي وهو مدير المدرسة رجلاً بحجم صغير ووجه مخيف

كوجه ذئب وفي طرف غرفته لديه صندوق زجاجي في داخله علب يخرج منها أشياء تهتز في الجو مثيرة الرعب. لم يخطر في بالي أنني سأكون أذكى من جو وهو الذي كان يكبرني بسنتين ويستبد بي منذ أن استطاع المشي. في الواقع كان جو غبياً غباء مطلقاً ويعاقب بعصا الخيزران كل أسبوع ويحتجز في مكان في أسفل المدرسة إلى أن بلغ السادسة عشرة أما أنا فأخذت جائزة في مادة الحساب وأخرى في مدة عملية تدرس الأزهار المضغوطة، وصنفت في الصف الثاني. وقبل أن ابلغ الرابعة عشرة تحدث ويسكرز عن المدرسة الجامعية والمنح الدراسية وكان أبي يتشوق كي اذهب إلى الجامعة ويطمح بأن اصبح معلماً وأخي جو سمسار مزادات.

إنّ ذكرياتي المتعلقة بالمدرسة ليست كثيرة، وعندما اختلطت مع شباب الطبقة العليا في المدرسة والجيش صعقت من أنهم لم ينهوا تدريبهم المفروض عليهم، وكانت تلك المدارس الداخلية الخاصة إما أن تشكّلهم أي الأولاد، أو تجعلهم بلهاء أو أنهم يمضون بقية حياتهم يتمخضون منه. لكن الأمور لم تكن هكذا مع أولاد صفنا، نحن أولاد الحانوتيين والمزارعين كنا نظل في المدرسة الابتدائية حتى السادسة عشرة لنظهر للناس فقط أننا لسنا من أفراد طبقة العمال. إن المدرسة هي المكان الذي تود الابتعاد عنه دائماً، ولا تكن الولاء ولا الشعور لتلك الحجارة الرمادية القديمة

التي أسسها الكاردينال وولسي. يومها، لم تكن ربطة لعنق إلزامية، وكذلك نشيد المدرسة حيث يمكنك دخل إجارة نصف اليوم بنفسك لان الألعاب لم تكن إجارية. لقد لعب كرة القدم بالباطيل والكريكت بالحزام والسراويل والقمصان العادية واللعبة التي اهتممت بها هي الكريكت التي كـ نلعبها في الساحة الرملية أثناء الفسحة بمضارب مصنوعة من الصناديق المخصصة للتعليب وكرات الكومبو.

أتذكر رائحة قاعة المدرسة الكبرة، فهي رائحة حبر وغبار وأحذية وحجارة مكومة لشحذ السكاكين، ورائحة محل الحجار الصغير المقابل بائع البدق الذي كان حجمه ضعف بندق الزمن الحالي، واسمه ليلي ويشز وسعره نصف بنس. لقد فعلت كل الأشياء التي يمكن أن تفعلها، نقشت سمي على المكتب لأنه كان عرفاً وعوقبت بالخيزران بسببه، لوثت أصابعي بالحبر وقضمت أظفاري وصنعت الأسهم من أغطية الأقلام ولعبت الكونكرز ونقلت القصص المقذرة وتعلمت العادة السرية وشتمت العجوز بولرر مدرس اللغة الإنكليزية ولقد ضايقنا الصغير ويللي ابن المتعهد المعتوه الذي يصدق كل ما يقال له، وكانت خدعتنا المفضلة إرساله إلى المتجر ليشتري أشياء غير موجودة من طوابع السن إلى المطرق المطاطية إلى مفك الأعسر والإناء المطلي، وسطلت كلها على المسكين ويللي وفي عصر احد الأيام كنا نلعب لريضة

ووضعناه في أنبوب وطلبنا منه أن يرفع نفسه بالمقبض، وانتهى المسكين في مصحّ عقلي أما الإجازات فكانت أمتع ما في تلك الأيام .

كانت الأشياء الممتعة كثيرة، ففي فصل الشتاء نستعير زوجاً من ابن مقرض لصيد الجرذان التي كانت أمي تمقت أن نجني من صيدها وتقول إن رائحتها قذرة، ونطلب الإذن من المزارعين الذين يسمحون لنا تارة ويرفضون أخرى مدّعين بأننا مشكلة أسوأ من الجرذان، فكنا نلحق بآلة الدرس أثناء درس الأكداس محاولين قتل الجرذان. لقد فاض نهر التيمز في شتاء عام 1908 وتجمّدت مياهه فتزلجنا فوقه طيلة أسابيع حيث كسر عظم ترقوة هاري بارنز

أما في الربيع فقد طاردنا السناجب وسلبنا الأعشاش واعتقدنا أن الطيور لا يمكنها الجري، وأنه يجب ترك بيضة في العش، كما وجدنا غريرة صغيرة تقلب العش وتهرس البيض والفراخ أحياناً كذلك امسكنا الضفادع التي ننفخها بمنفاخ الدراجة حتى تنفجر لا أعرف لماذا كنا أشقياء إلى هذا الحد. وفي الصيف نركب دراجاتنا ونذهب إلى بورموردوير لنسبح هناك. لقد غرق والي لوفمروف ابن عم سيد عام 1906 عندما علق بالأعشاب والطحالب التي في القاع وكان وجهه أسود فاحماً عندما أخرجوه بالكلابات. لكن الأهم والحقيقي كان صيد السمك، فقد ذهبنا إلى بركة بروير

كثيراً، وأخذنا معاً سمكات صغيرة من الكارب والتش والانكليس وبعد أن صار عندنا دراجات بدأنا نصيد في نهر التيمز عند برومووردوير التي تفوق كل البرك حجماً، واستطعت التخلص من مضايقات المزارعين، كذلك يحكى عن تواجد بعض السمك هناك، فكنت أحس باهتزاز الخيط لكن على حسب معرفتي لم أسمع أن أحداً أمسك سمكة.

كان شعوري بالصيد غريباً ولا أقدر أن أصف نفسي صياداً إذ لم أمسك طوال حياتي سمكة بطول قلمي، ومنذ ثلاثين عاماً لم تلمس يداي صنارة صيد، ورغم هذا كله فإنني عندما أعود إلى طفولتي الممتدة من الثامنة إلى الخامسة عشرة أرها تتمحور حول الصيد وأيامه المطبوعة بذاكرتي بوضوح تام وبالجزئيات والتفاصيل الدقيقة، ولا توجد بركة بقرٍ أو مياه حامية إلا وأستطيع تصورها وأنا مغمض العين، وأعتقد أنني قادر أن أؤلف كتاباً من أساليب الصيد. لم تكن عدة صيدنا كثيرة لأنها مكلفة ونحن أولاد ومصروف واحدنا كان في حدود الثلاثة بنسات التي كنا نهدرها في شراء الحلويات من محل ليدي ياسترز، فصدنا بدبابيس مثنية ومثلّمة من كثرة الاستخدام، وأمكننا صنع كلّابات جيدة من الإبر التي نمسكها بملقط ونسخّنها على لهب الشمعة، كذلك صنع أولاد المزارع خيطاناً من شعر الحصان الذي كنا نحوّله إلى جدائل وبعد فترة صرنا نشتري صنارات ذات الشلبين وحتى

بكرات من أنواع مختلفة. يا إلهي كم أمضينا ساعات طويلة نحملق في واجهة محل والاس، ولم تجلب لي البنادق ولا المسدسات بقدر ما جرتني عدة صيد السمك؛ ولقد التقطت يوماً كاتالوج غامبيج من كوم زبالة ودرسته وكأنه الكتاب المقدس، ويمكنني الآن ذكر كل تفاصيله من بدائل الخيوط والخيوط الحريرية وكلابات البرمسك والقناوسة والمثبتين وبكرات نوتنهام وعدد لا يعلمه إلا الله من التقنيات الأخرى.

أما أنواع الطعوم التي نستخدمها فكنا نأخذ من دكان دود الطحين الذي ليس بجودة الذباب الكبير الذي نأخذه من اللحام العجوز جرافيت حيث كنا نقترع على من سيذهب إليه لأنه لا يحب أن يعطينا، وكان لجرافيت هذا وجه ضخم شيطاني وصوت يشبه صوت نباح كلب حراسة ويتمنطق بالسكاكين المجلجلة حول خصره وبينما ننتظر إلى أن يذهب آخر زبائنه عندها نقول له هل يوجد عنك ذباب سيد جرافيت فيرد بصوت رعدي: ذباب في محلي؟ لم يتواجد منذ سنتين، هل ترى أي ذباب في محلي؟

كان المكان يعج بالذباب طبعاً ولدى جرافيت سوط جلدي مثبت بطرف عصا ليصل إلى الأماكن البعيدة يضرب الذباب به ويحوله إلى عجين. وكنا أحياناً نعود دون ذباب لكنه عادة يصيح بك: إذهب إلى الساحة الخلفية و ابحث بحرص، فقد تجد واحدة أو اثنتين إن كنت محظوظاً لكن

الذباب كان في عناقيد صغيرة في كل مكان في هذه غرفة الخلفي الذي تفوح منه رائحة تشبه رائحة ساحة المعركة لأنه لم يكن لدى اللحامين آنذاك ثلاجات. يعيش الذباب فترة أطول إن وضعته في نشارة الخشب أما اليرقات والزنابير فهي جيدة، لكن تثبيتها بالصنارة صعب، وعندما نجد أحد عش زنابير نأتيه ليلاً ونصب فيه زيت الصنوبر ونسد فتحته بالوحل وفي اليوم التالي نحفر العش ونجدها ميتة فنأخذ اليرقات، وفي إحدى المرات أخطأنا في صب الزيت فعندما نزعت غطاء الوحل خرجت الزنابير المحبوسة طوال الليل وهاجمت ولم تلسعنا كثيراً لأننا هربنا بسرعة فائقة. الجندب أفضل طعم لسمك الشبوط لكن من الصعب الحصول على أكثر من جندبين أو ثلاثة في المحاولة الواحدة، أما الذباب الأزرق الملعون فيعتبر أفضل طعم لسمك الداس خصوصاً في أيام الصحو خاصة إن وضعتها حية تتلوى على الصنارة، كما أنّ سمك الشبوط يحبّ الدبور أيضاً لكن من الصعب تعليق دبور حي بالصنارة. إنّ عدد أنواع الطعوم لا يحصى كعجين الخبز الأبيض الذي نضعه في خرقة وعجين العسل وعجين آخر نصنعه من بذور الياسمين والقمح المسلوق وهو ممتاز لسمك الروش والدود الأحمر الذي نجده في أكوام السماد القديمة لسمك القوبيون، ونجد نوعاً آخر من الدود يدعى دود الأرض وهو مخطط ورائحته تشبه رائحة أبو مقص ويفضله

سمك الفرخ ويجب وضعه في الطحالب ليبقى طازجاً، أما إن حفظ في التراب فيموت والذباب الأزرق الذي يحط على الروث جيد لسمك الروش ويمكن أن يأكل سمك الشبث الكرز أو المشمش كما يقال.

في تلك الأيام، وفي السادس عشر من حزيران (يونيو) يبدأ موسم الصيد، ويستمر لغاية بداية الشتاء، فكنت أحمل علبة الحشرات معي والذباب حاضر في جيبي في كل الأوقات، ولقد تشاجرت مع أمي بسببها كثيراً لكنها استسلمت أخيراً وخرج الصيد من قائمة الممنوعات فأعطاني والدي صنارة بشلنين في عطلة رأس السنة من عام 1903. كان جو في الخامسة عشرة عندما بدأ بملاحقة الفتيات، وبعدها قل ذهابه إلى الصيد لكن المهووسين من أمثالي كانوا كثراً. يا إلهي ما أحلى أيام الصيد تلك، ففي غرفة الصف في أيام الصيف الحارة اللزجة أجلس مرسلاً رجليّ تحت المكتب وصوت العجوز بلورز يهيّج الأعصاب وهو يتحدث عن المسند والمسند إليه وشبه الجملة الوصلية لكن كل ذهني كان في بركة الصيد الحلبية القريبة من برفوردوير والبركة الخضراء التي تحت الصفصافة وأسماك الداس المنزلقة إلى الأمام والخلف والانطلاق بالدراجات بعد شرب الشاي صعوداً إلى تل شامفورد ونزولاً إلى النهر للصيد ساعة قبل حلول الظلام. أصوات الصيف الساكنة وخرير الماء الواهن على السبخ

والحلقات التي يرسمها السمك وهو يقفز ويهبط على الماء، والبق الذي يأكلك وأنت حي وأسراب الداس التي تتسلق صنارتك دون أن تقع في مصيدتك، واتوتر العريب وأنت تراقب السمك الأسود وهو يتسلق وأنت في أمل ورجاء أن يجر خيطك قبل حلول الظلام حيث كنا نتمنى أن يبقى خمس دقائق أخرى لكن في النهاية عليك الرحيل وجرّ دراجتك باتجاه البلدة وقد يضبطك الشرطي تاولر الذي يجوس البلدة وأنت تقود الدراجة ليلاً بدون مصابيح. كنا نخرج ونحتمل بالبيض المسلوق والزبدة والخبز وقنينة من عصير الليمون، نصيد السمك ونسبح ثم نصيد ثانية، وكنا نمسك بعض السمك أحياناً ونعود في الليل، وأيدينا ملوثة يكاد أن يقتلك الجوع لدرجة أننا نوشك أن نأكل الخبز المعجون مع صغار سمك الداس الملفوف بالورق. كانت أمي ترفض دائماً طبخ السمك الذي أصيده ولا تعترف بأن سمك النهر صالح للأكل ماعدا السلمون والاطروط وخصوصاً السمك المتوحش الذي نراه عندما نلعب في مشاوير على طول النهر التايمز بعد ظهر أيام الآحاد، تلك الأيام التي كان الصيد ممنوعاً فيها بقرار من مجلس المدينة.

كنا نخرج ونحن نرتدي بدلة سوداء سميكة وقبعة تغطي الرأس في مشاوير طويلة أيام الأحد وفي أحدها رأيت سمكة كراكي بطول ياردة نائمة في ماء ضحل قريب من الضفة،

فأوشكت أن أصيبها بحجر، وفي مرة أخرى رأيت سمكة اطروط نهرية تسبح في البركة الخضراء، وهذا النوع من السمك يكبر ليصل إلى أحجام كبيرة في التيمز. ويحكي إن أحد صيادي التيمز الحقيقيين من الطراز القديم ومن ذوي الأنوف الكبيرة المدثرين بمعاطف ويجلسون على مقاعد تطوى وصنانير بطول عشرين قدماً خاصة لسمك الروش هم على استعداد أن يدفعوا سنة من حياتهم من أجل سمكة اطروط واحدة، هؤلاء كانوا يرابطون في كل فصول السنة ولا ألومهم لأنني أتفهم مشاعرهم تماماً.

من المؤكد أن أشياء أخرى حدثت،فطولي كان يزداد ثلاث بوصات كل سنة، ولقد لبست السراويل الطويلة وربحت بعض الجوائز المدرسية كما ذهبت إلى دروس تثبيت الدين والمطالعة وكنت مغرماً بالفئران البيض والنقش وطوابع البريد لكن كل ما أتذكره صيد السمك وفصل الصيف لذلك والمروج المنبسطة والتلال البعيدة الزرق وأشجار الصفصاف والبرك تحتها مثل كأس زجاج أخضر غامق، والأسماك تكسر صفحة الماء، وطيور السند تصيد حول رأسك ورائحة الشراب ونبات الميولا. عليك أن لا تسيء فهمي، فأنا لا أنوي الحديث عن شعر الطفولة، وأعرف أنه محض هراء، فقد كان يروي لي منه الكثير صديقي العجوز بورتيوس المدرّس المتقاعد الذي سأخبركم عنه لاحقاً، يروي مقتطفات

من كتب وورد سويرث ولويسي غري، ومن المروج والأيكات. لم يكن له أولاد لا لأنهم ليسوا شعريين بل لأنهم حيوانات متوحشة صغيرة وأنانيتهم تفوق أنانية الحيوانات بأربعة أضعاف، ولا يبالون بالمروج ولا الأيكات وما يهمهم هو إن كنت تؤكل أم لا لأنهم غير قادرين على التمييز بين نبتة وأخرى. إن قتل الأشياء قريب من الشعر كقرب الأولاد منه، لكنّ هناك حنيناً قوياً وشوقاً كبيراً وشعوراً مكتماً إلى تلك الفترة والأشياء لا تستطيع العودة إليها عندما تكبر كالشعور بأن الزمن ممتد وطويل أمامك لدرجة أن يمكنك فعل ما تريد وإلى الأبد.

كنت ولداً صغيراً فيح الشكل إلى حد ما، ولون شعر رأسي بلون الزبدة وهو مقصوص دائماً ما عدا غرّته -لا رغبة عندي كي أعود طفلاً ثانية، ولن أصف طفولتي بالمثالية مثلما يفعل الكثيرون لأن أكثر الأشياء التي كنت أهتم بها لم تعد تترك لديّ أكثر من شعور بارد الآن، فلم يعد مهماً إن شاهدت لعبة كريكت أم لا، ولا إن حصلت على منّ رطل من الحلويات بثلاثة بنسات لكن الذي كان ولا يزال مهماً، وشعوري نحوه خاص ومتميز، هو صيد السمك رغم أنك قد تستهجن ذهاب شخص في الخامسة والأربعين وأب لطفلين ولديه بيت في الضاحية إلى الصيد لكني أتوق إلى ذلك على الدوام دون أن أعرف السبب.

كما يمكنك القول إنني عاطفي اتجاه طفولتي، ولا أقصد طفولتي الشخصية إنما الحضارة التي كبرت فيها والتي كما أعتقد تلفظ آخر أنفاسها وأحد مكوناتها هو صيد السمك.

حالما فكرت بالصيد فإنك ستفكر بأشياء لا تنتمي إلى العالم الحديث، لأنّ مجرّد فكرة الجلوس طوال اليوم تحت شجرة صفصاف، بجانب بركة هادئة، وإمكانية العثور على واحدة هادئة، أشياء تنتمي كلها إلى زمن ما قبل الحرب والراديو والطائرات وهتلر، إذ تحس بالسلام والأمن وأنت تستعرض أسماء السمك الانكليزي الروش والرد والداس والبريس والسمك البني والابراميس والكارب والتش، كلها أسماء لطيفة جداً والناس الذين سموها بهذه الأسماء لم يسمعوا بالبنادق الآلية ولم يعيشوا حياتهم من رهاب الطرد من الوظيفة أو قضوا حياتهم بتناول الاسبيرين وارتياد دور السينما ولا يقلق تفكيرهم مسألة الابتعاد عن معسكرات الاعتقال.

هل رأيت أحداً يصيد السمك في هذه الأيام؟ لم يبق سمك في لندن وكل ما تجده على بعد مئة ميل من دي صيد كئيبة انحشرت على طول القناة يؤمها الأثرياء لصيد سمك الاطروط في مياه خاصة حول الفنادق الاسكتلندية، وهو نوع من الألعاب والرياضة حيث تصطاد فيها سمكاً مدجّناً بطعوم اصطناعية أين هذا من الصيد في جداول الطواحين أو برك

النهر؟ أين السمك الانكليزي الطبيعي؟ كان السمك يملأ البرك والجداول عندما كنت صغيراً لكنها جفت وتسممت الآن بالمواد الكيماوية التي تقذفها المصانع وامتلأت بعلب الصدئة وإطارات السيارات.

إن أفضل ذكرياتي تدور حول السمك الذي لم أمسكه، ففي الرابعة عشرة من عمري أسدى أبي جميلاً للعجوز هودجز المتعهد والوكيل في بيت بينفيلد، ولكني نسيت ما هو العمل، فقد يكون دواء أشفى مهرته من الدود. وهودجز هذا كان شيطاناً عظيماً نكد المزاج لكنه لا ينسى رد الجميل. وبعد فترة جاء ليشتري ذرة الدجاج وصادفته خارج الباب فأوقفني بقوة بوجهه المنحوت من جذع شجرة وأسنانه البنية القاتمة الطويلة وقال:

- مرحباً أيها الصياد الصغير، إنه أنت أليس كذلك؟ اسمع إن أردت الصيد يمكنك إحضار خيطك وحاول في تلك البركة التي خلف البيت ففيها الكثير من سمك الابراميس وسمك سليمان، لكن لا تخبر أحداً ولا تحضر معك هؤلاء الصبيان الصغار وإلا سلخت جلودهم.

حمل كيس الذرة على كتفه وانطلق وهو يعرج معتقداً أنه قد أكثر من الكلام، وبعد ظهر السبت التالي ركبت دراجتي وانطلقت إلى بيت بينفيلد وجيوبي مليئة بالحشرات والذباب باحثاً عن العجوز هودجز في كوخه. إن بيت بينفيلد غير

مسكون منذ عشر أو عشرين سنة، إذ لم يقدر السيد درل دفع
تكاليف العيش فيه ولم يؤجره، فقد سكن في لندن وبجوار
مزرعته وترك الأرض والبيت يذهبان إلى الجحيم. كانت
السبخة خضراء متعفنة والشجر المغروس تحول إلى غابة
وصارت الحدائق مروجاً وشجيرات ورد شائكة، وعلى الرغم
من كل الإهمال ظل بيتاً جميلاً جداً وخصوصاً عند النظر إليه
من بعيد، إذ يبدو مكاناً عظيماً بأعمدته ونوافذه الطولية وقد
بناه مهندس إيطالي في عهد الملكة آن. ولو ذهبت إليه الآن
لعادت إليك الحيوية والقوة وفكرت بالحياة التي شهدها هذا
البيت والناس الذين عمروه معتقدين أنّ الحياة الحلوة ستدوم
إلى الأبد، هذا ما تشعر به عندما تتجول حوله لكني كنت
صبياً لم يكترث لا بالبيت ولا بالأرض.

أنهى العجوز هودجز غداءه واعتدل مزاجه فسألته أن
يدلني إلى البركة التي كانت على بعد مئات الياردات حيث
تحجبها أشجار الصفصاف تماماً؛ بركة كبيرة بقطر مئة
وخمسين ياردة أدهشتني جداً رغم صغر عمري. كنت تجد
هذه العزلة والهدوء على بعد اثني عشر ميلاً من الجامعة
وخمسين من لندن، وشعرت وكأني على ضفاف نهر
الأمازون، فقد أحاطت بالبركة أشجار الصفصاف الضخمة
التي وصلت إلى الحافة في بعض الأماكن، وانعكست ظلالها
على الماء، وفي الطرف المقابل بقعة من العشب مثل تجويف

بين نبات النعناع البري، وفي طرف آخر قارب خشبي قديم متعفن وسط نبات الدبس. عجّت البركة بصغار أسماك الابراميس الذي يبلغ طول بعضها أربع أو ست بوصات، وكنت أرى إحداها تنقلب نصف قلبة وتومض بنية محمرة تحت الماء وأخرى تتشمس بين الطحلب وتعطس مرشرشة الماء كالقريدة؛ إن محاولة صيدها عظيمة، وإني حاولت ذلك في كل المرات التي ذهبت فيها إلى هناك بالدبس والدودة اللذين اصطدتهما من الترمز واحتفظت بهما أحياء في مرطبان مربى، وأحياناً بطعم دوار مصنوع من قطعة قصدير لكنها كانت متخمة ولم تعض على الصنارة ولم تنفع معها أي عدة صيد. لم ارجع من الصيد يوماً دون دزينة من سمك الابراميس الصغير. فلقد كنت أذهب يومياً في إجازات الصيف بصنارتي ونسخة من صحيفة الاتحاد أو «الرفاق» وكتلة من الخبز والجبن الذي تلفه لي أمي. وبعد ساعات من الصيد أستلقي على العشب وأقرأ الصحيفة فتروح رائحة الخبز المعجون بالجبن وتتحرك سمكة وتقفز فجأة فتثيرني، ثم أعاود الكرة على الماء وأبدأ الصيد ثانية. ودام هذا الحال طوال فصل الصيف، وأفضل ما في الموضوع أني كنت وحيداً كما لو أنها بركتي والأشجار من حولي ولا يكدر صفو السكون إلا طرطشة الماء التي يحدثها السمك، ورفوف الحمام التي تمر من فوق رأسي، ولكم كنت أتساءل عن عدد

المرات التي دعت بها إلى البركة في غضون ستين؟ ليس
أكثر من اثني عشر مرة.

وبعيد ظهر احد الأيام لم أتمكن من صيد أي سمكة،
فقررت أن أكتشف الأماكن الأبعد عن بيت بيتفيلد، كانت
الأرض سبخة جراء الطوفان؛ شققت طريقي عبر شجيرات
العليق الأسود والأغصان المتساقطة والوحل وبعد حوالي
خمسين ياردة وصلت إلى بركة أخرى لم اعلم بوجودها من
قبل؛ إنها صغيرة بعرض عشرين ياردة، قاتمة بسبب أغصان
الأشجار المتشابكة فوقها، ماؤها صافٍ وعميق، وأرى على
عمق خمس عشرة قدماً بوضوح، علقت الطعم بالصنارة
مستمتعاً بالعمق والرطوبة والعفن، وبعد ذلك رأيت سمكة
ضخمة أخرجتني من جلدي، ولن أبالغ لو قلت إنها بطول
ذراعي تقريباً، انسلت عميقاً تحت الماء فأصبحت ظلاً ثم
تلاشت في الماء الداكن في الطرف الآخر من البركة، وبعد
ذلك ظهرت سمكتان قريبتان من بعضهما بعضاً فشعرت كأنّ
سيفاً اخترق جسدي، فقد كانت أكبر سمكة حية أو ميتة أراها
في حياتي، ثم مرت أخرى وأخرى.كانت البركة مليئة
بالسمك، وقد يكون من الابرامبس أو التنش لكن الاحتمال
الأكبر من الكارب لأن الابرامبس والتنش لا يصلان إلى هذا
الحجم؛ وفسرت الأمر على النحو التالي كانت هذه البركة
متصلة ببركة أخرى، وبعد أن جف الجدول وأغلقت الأشجار

المكان أصبحت منسية وبالصدفة المحضة، ولم يصطد فيه أحد منذ سنوات بل عقود، فكبر السمك إلى هذه الأحجام الوحشية وربما عمرها مئة عام، ولم يعرف عنها أي مخلوق في الدنيا غيري، كذلك لم ينظر أحد إلى البركة منذ عشر سنوات ولا حتى العجوز هودجز أو السيد فاريل.

يمكنك تخيل شعوري. لم أقدر تحمل عذاب المراقبة فأسرعت عائداً لأحضر عدة الصيد التي لن تنفع مع تلك الوحوش العملاقة التي ستقصمها كالشعرة، ولم يعد بإمكاني الاستمرار بصيد صغير سمك البراميس حيث تسبب لي منظر سمك الكارب الكبير بألم فظيع في معدتي فوصلت إلى دراجتي وانطلقت عائداً إلى البيت. لقد كان هذا سراً عظيماً بالنسبة لولد مثلي، بركة معتمة مخبأة وسط الأشجار ومترعة بالسمك الوحشي المبحر فيها الذي لم يحاول أحد صيده لذلك سيلتقط أول طعم تقدمه له، وكل الأمر يتعلق بإمساك الخيط بقوة فقط

سوف أقوم بكل الترتيبات اللازمة. سأشتري عدة الصيد المناسبة بأي طريقة حتى لو اضطررت إلى سرقة النقود من درج أبي، وسأتدبر أمر النقود وأحصل على خيط غليظ وخيط حريري وصنانير صغيرة خفيفة وأعود بالجبن والذباب والعجين ودود الطحين ودود الأرض والجنادب وكل الطعوم المميتة التي تجذب سمك الكارب وأحاول معها لكنني لم أرجع ولم

أسرق النقود ولم أحاول معها حيث تغيرت الأشياء بعدها ومنعتني من ذلك، وحتى لو لم يكن هذا هو السبب لوجدت أسباباً أخرى لأنّ الأمور تحدث هكذا. أعرف طبعاً أنك تظن أنني بالغت في تقدير حجم تلك السمكات لكنها قد تكون من الحجم المتوسط أي بطول قدم، وأنها انتفخت في ذاكرتي تدريجياً لأن الناس يكذبون حول السمك الذي يصيدونه، ويبالغون أكثر حول السمك الذي تمسك كلاباتهم ويفلت، أما أنا فلم أمسك أي واحدة منها، ولم أحاول ذلك وليس لدي الدافع للكذب وأكرر القول بأنها أسماك ضخمة

آه من صيد السمك.

سأدلي باعتراف واحد أو اثنين عن صيد السمك. الأول: عندما أسترجع حياتي الماضية أستطيع القول، وبكل صدق، إنني لم أفعل شيئاً بث في نفسي الحيوية والروح مثل صيد السمك إذ بدت كل الأشياء الأخرى تافهة مقارنة به حتى النساء، علماً أنني لست ممن لا يهتم بهن، فقد أمضيت وقتاً طويلاً في مطاردتهن. وسأفعل الآن ذلك إن واتتني الفرصة، ولكن لو خيرتني بين امرأة جميلة ذات نسب وبين صيد سمكة كارب بوزن عشرة أرطال فإن الفوز سيكون من نصيب الأخيرة. أما الاعتراف الثاني لم أذهب أبداً إلى الصيد بعد

السادسة عشرة من عمري لأن الأمور تسير على هذا المنوال، ولأن الحياة التي نعيشها هي هكذا بالطبع لا أقصد عموم الحياة الإنسانية وإنما الحياة في هذا العصر وفي هذه البلاد، نحن لا نعمل ما نريد ونحب لا لأننا مشغولون دائماً مثل خياط يهودي أو عامل مزرعة وإنما يسكن في داخلنا شيطان يدفعنا باستمرار كي نرتكب حماقات وسخافات أبدية لماذا يتوافر الوقت لعمل أي شيء ماعدا الجديرة والهامة منها؟ فكر بشيء تهتم به وأحسب الدقائق التي خصصتها له وقارن ذلك بالساعات التي أهدرتها في أعمال مثل الحلاقة وركوب الحافلات والانتظار في محطات القطار وتبادل القصص الخليعة وقراءة الجرائد.

لم أذهب إلى الصيد بعد السادسة عشرة بل كنت أطارد الفتيات وأنا ألبس حذائي الأول ذا الأزرار وياقتي العالية - ياقات عام 1909 التي تحتاج إلى رقبة زرافة - وكنت أدرس منهاجاً بالمراسلة عن التجارة والحسابات كي أحسن مستوي، أما السمك الكبير فتركته يسبح في البركة التي خلف بيت بيعيلد ولم يعرف بشأنه أحد غيري؛ شيء محزن، ربما أعود يوماً في إحدى عطل السبت وأصطادها لكنني لن أفعل، لو أنني رجعت اليه أبداً كان لدي الوقت لفعل أي شيء ماعدا هذا، ومن الغريب جداً أن المرة الوحيدة التي أوشكت فيها على الذهاب كانت زمن الحرب.

ففي خريف عام 1916 وقبل أن أصاب خرجت من الخنادق إلى قرية خلف خط الجبهة في شهر أيلول (سبتمبر)، وكان الوحل يغطينا من الرأس حتى القدم، وكالعادة لم نعرف المدة التي سنقضيها هناك ولا الوجهة التي سنذهب إليها فيما بعد، ولحسن حظنا كان الضابط منحرف الصحة، ربما أصيب بالتهاب بسيط في القصبات أو ما شابهه لهذا لم يجبرنا على القيام بالعرض العسكري المعتاد والتفتيش ومباريات كرة القدم ومثلها من الأعمال التي يفترض فيها أن تحافظ على معنويات الجنود حين يكونون خارج المواجهة. أمضينا اليوم الأول مستلقين على أكوام القش في مخزن للحبوب، وكشطنا الوحل عن أحذيتنا، وفي المساء اصطف الشباب في رتل من أجل عاهرتين قذرتين تقطنان في طرف القرية. وفي الصباح تسللت متجولاً وسط الحقول التي أصبحت مهجورة ومدمرة وهذا مخالف للأوامر كان صباحاً شتوياً ماطراً وكل ما يحيط بي هو الروث الكريه وركام الحرب؛ فوضى من القذارة والوحل والأخشاب والحائط والأوساخ والأسلاك الشائكة الصدئة التي يخرج منها العشب من المؤكد أنك تعرف شعور الجندي الخارج من خط الجبهة، تيبس في المفاصل وخواء وعدم اهتمام بأي شيء ممزوج بالخوف والتعب ويغلب عليه الضجر والملل لم نفهم في ذلك الوقت سبب الحرب ولا سبب استمرارها الأبدي، اليوم أو غداً أو بعده سنعود إلى الجبهة

وتقصفنا قنبلة لتحولنا إلى كوم لحم، لكن ذلك ليس أسوأ من الملل المرعب من الحرب الممتدة إلى الأبد.

كنت أتجول بجانب السياج عندما صادفني شاب كان يعمل في شركتنا، ولا أتذكر اسمه لكنا كنا نلقبه بالنوبي لأنه أسود ومترهل، ويبدو كالغجري وحتى في لباسه العسكري يوحي منظره أنه يحمل أرنبين مسروقين. كان بائع خضار متجولاً ويقطن في أفقر حي في لندن، يكسب رزقه من صيد الطيور وسرقة السمك والفاكهة في كنت أو ويسكس، وكان خبيراً في الكلاب وابن مقرض وأقفاص الطيور وكل هذه الأشياء،حالما رآني أومأ برأسه وتكلم بطريقة ماكرة.

- هيه جورج هل ترى شجيرات الحور في الجانب الآخر من الحقل؟ هناك بركة مملوءة بالأسماك الكبيرة اللعينة
- كان الناس يناديني جورج، ولم أكن صبياً آنذاك - هناك بركة مملوءة بالسمك، سمك كبير لم أرَ مثله، تعال وشاهد بنفسك.

شقّينا طريقنا في الوحل بصعوبة. كان نوبي صادقاً. وجدنا بركة موحلة ذات حواف رملية بجانب الحور ات ومن الواضح أنها كانت مقلع حجارة ملأته الماء، وكانت تعج بسمك البرش لقد رأينا ظهورها الزرقاء القاتمة المخططة وهي تنزلق تحت الماء في كل مكان في البركة بحيث يصل وزن بعضها إلى الرطل، كما أشك أن أحداً ضايقها خلال

سنتي الحرب مما وفر لها الوقت لتكاثر لا يمكنك تصور م
عله منظر تلك الأسماك بي. فكأنها أعادت إلي ملحية مجأة.
دارت نفس الفكرة في رأسينا كيف سنحصل على صنارة
وخيط؟

يا الهي هل سآخذ بعضها؟

- نعم لكن يجب أن نعود إلى القرية للحصول على عدة
صيد.

- حسناً، يجب أن نحترس لكن سوف سرقها حتى لو
عرف الرقيب.

- آه من الرقيب اللعين لو شنقوني، أو مهما فعلو بي
سوف آخذ بعضاً من هذا السمك.

لا تعرف كم كانت لهفتنا لصيد تلك الأسماك، وربما
تعرف إن كنت في حد أيامك السالفة في حرب وشعرت
بالملل المثير للجمود وبالطريقة التي تتشبث بها بأي نوع من
التسلية؛ فمرة رأيت شابين يتعاركان عراكاً مميتاً من جل
مجلة لا يزيد ثمنها عن ثلاثة بنسات، وهناك الأكثر مثل فكرة
الهروب ليوم كامل من الحرب وجوّعا للجلوس تحت شجرة
حور وصيد سمك الرش بعيداً عن الكتيبة والضجة ولعفن
والثياب العسكرية والضباط والتحية وصوت الرقيب.

إن صيد السمك والحرب نقيضان لم نكن متأكلين من
نجاحنا مما سبب لنا الحمى. ولو عرف الرقيب سيوقف

حتماً، وهو ما سيجعله أي ضابط، والأسوأ من ذلك لا نعرف إلى متى سنبقى في القرية، فقد يكون أسبوعاً أو ساعتين أو لحظة كما لا توجد عندنا عدة صيد ولا حتى دبوس أو قطعة خيط لذا علينا البدء من الصفر، وأول خطوة هي الحصول على قصبة، وأفضلها لو كان عوداً من الصفصاف، لكن لم تكن هناك أشجار صفصاف في هذا الطرف من الأفق. تسلق توبي إحدى الحورات وانتزع عصاً صغيراً، لم يكن جيداً لكنه أفضل من عدمه وهذّبه بسكينه حتى بدا كقصبة صيد فأخفياه بين الأعشاب التي بقرب لعمة ونجحنا في التسلل إلى القرية دون أن يكتشف أمرنا أحد.

الخطوة التالية هي الحصول على إبرة لصنع كلّاب ومن أين نأتي بإبرة؟ لدى أحد الشباب إبر للرتق لكنها غليظة جداً ونهاياتها مثلمة، ولم نجرؤ أن نخبر أي شخص عن سبب حاجتنا للإبرة خوفاً من أن يسمع الرقيب، وأخيراً فكرت بالعاهرتين اللتين تسكنان في طرف القرية، وعندما وصلنا هناك اضطررنا إلى الالتفاف والتوجه إلى الباب الخلفي عبر ساحة موحلة. كان الباب مغلقاً والعاهرتان نائمتين، فهما تستحقان ذلك بلا شك، خبطنا على الباب وصحنا وصرخنا وركلناه بأرجلنا، وبعد عشر دقائق فتحت الباب امرأة قبيحة بدينة تلف نفسها في إزار وصاحت بالفرنسية شيئاً فرد توبي:

- إبرة إبرة، هل عندك إبرة.

لم تدرك عما كان يتكلم طبعاً، وحاول روبي أن يرطن بإنكليزية مبسطة معتقداً أنها ستفهمها لأنها أجنبية.

نريد إبرة خياطة، مثل هذه.

وقام بإيماءات تمثل الخياطة. أساءت العاهرة فهمه وواربت الباب لتدخلنا، وأخيراً تمكنا من إفهامها، وحصلت على إبرة منها، وبعد العشاء عدنا وتمكنا من تفادي الرقيب الذي كان يتجول حول مخازن الحبوب في هذا الوقت بحثاً عن رجال للسخرة كعادته. اختبأنا تحت أكوام القش وخرجت بعد أن غادر وأشعلت شمعة لتحمي الإبرة، وعندما أصبحت حمراء نجحنا في ثنيها بشكل كلاب لكننا حرقنا أصابعنا حروقاً بالغة لانعدام الأدوات باستثناء الأمواس.

الخطوة التالية هي الحصول على الخيط ولا توجد سوى الخيوط الصوفية الغليظة. وصادفنا أحد لديه بكرة خيط لكنه رفض التخلي عنه فأجبرنا على مقايضته بعلبة سجائر كان خيطاً رفيعاً جداً فقصه روبي إلى ثلاثة أقسام ربطها بمسمار دقه في الحائط وجدلها بحرص شديد، كذلك وجدت علبة بعد البحث في كل القرية قطعتها إلى نصفين ولصقتها بعلبة كبريت لتطفو فوق الماء. في هذا الوقت حل المساء وبدأ الظلام.

حصلنا الآن على الأساسيات، لكن كيف يمكن العمل دون الأسماء التي كان أمل الحصول عليها ضعيفاً جداً إلى أن

خطر ببالي حاجب المستشفى الذي لم تكن الأمعاء الجراحية من معداته لكنه قد يملك منها، وعندما سألناه جلبت معه لفة كاملة من الأمعاء الفنية في حقيبة الظهر قابضاً علبة أخرى من السجائر بعشر قطع من الأمعاء المتصمغة بطول ست بوصات. نقعها نوبي لتلين ثم ربطها مع بعضها بعضاً فأصبح لدينا كل شيء الآن: الكلاب، القصبة، الخيط، الطوفة، الأمعاء ويمكننا أن نحفر لنستخرج الدود من أي مكان، والبركة مترعة بسمك البرش المخطط الضخم الذي يناديك لصيده. استلقينا للنوم في شعور محموم حتى أننا لم نبرح أحذيتنا، غداً فقط إن كان لنا غد وإن نسيتنا الحرب يوماً واحداً، قررنا أن نهرب بعد التعداد ونبقى طول اليوم حتى لو شنقونا وهي العقوبة الميدانية رقم واحد.

أعتقد أنك قد حسبت البقية إذ كانت الأوامر بعد التعداد أن نحزم أمتعتنا ونستعد للمسير في غضون عشرين دقيقة. مشينا تسعة أميال حتى الطريق العام ثم ركبنا الشاحنات ورمونا في قسم آخر من الجبهة أما فيما يتعلق بالبركة فلم أرها أو أسمع عنها ثانية قط وأعتقد أنها سممت بغاز الخردل.

ومنذ ذلك الحين لم أذهب إلى الصيد أبداً حتى لو سنحت لي الفرصة، وبعدها أتت تتمة الحرب وتلتها حربي للحصول على وظيفة أسوة بالآخرين، ثم أصبحت مملوكاً لها. كنت ربقاً

يافعاً وواعداً في مكتب التأمين وواحداً من رجال الأعمال الصغار المحنكين ذوي الآمال الكبيرة اللذين قرأت عنهم في إعلانات كلية كلارك، ثم أصبحت من ذوي الدخل الأسبوعي المقدر بخمسة عشر جنيهاً وأقطن في بيت شبه منفصل في الضاحية، ومثلنا لا يذهب إلى الصيد أكثر مما يخرج مضاربو البورصة لقطف الأزهار في الربيع إذ لا يناسبهم أن تكون لهم هوايات أخرى.

كنت أحصل على إجازة مدتها نصف شهر كل صيف، أقضيها في مارغريت أو يرماوث أو بستبورن أو هستينغز أو بورتماوث أو برايتون مع تغيير طفيف خصوصاً مع امرأة مثل هيلدا. السمة الرئيسية لكل إجازة هي الحسابات الذهنية التي لا تنتهي، وكم سيأخذ منك حارس النزل، ويجب أن أخبر الأولاد بأنهم لا يستطيعون شراء سطول جديدة. كنت في بورتماوث منذ بضع سنوات ونحن نتسكع على الرصيف في عصر يوم جميل وعلى امتداد نصف ميل كان الشبان يصطادون السمك بصنانير قصيرة وبنهايتها أجراس وتمتد خيوطهم إلى خمسين ياردة في البحر وهذه من أغبى طرق الصيد، وبعد أن أصابهم الملل رجعوا إلى الشاطئ صاخبين، ورأت هيلدا شاباً يعلق دودة في كلّابه فشعرت بالقرف، وتابعنا مشوارنا ذهاباً وإياباً وفجأة صدر صوت رنين عالٍ من أحد الأجراس، وكان أحد الشبان يلف خيطه والكل يراقبه

فانت نهاية الخيط امبتل ثم قطعة الرصاص ثم سمكة كبيرة مسطحة من الأسماك المملطحة تلوى متدلية، رمته لتثب على الرصيف رفرفت للأعلى والأسفل سلة ملساء رمادية منقطة بالأسود وبطنها بيضاء تفوح منها رائحة البحر الطازجة، فتحرك في داخلي إحساس جميل، وعندما تحرك لتذهب قلت عرضياً وكي اختبر رد فعل هيلدا إنه لدي النية للصيد بما أننا هنا.

- ماذا؟ أتذهب للصيد يا جورج؟ أنت؟ حتى أنك لا تعرف كيف تفعل ذلك.

- لقد كنت صياداً كبيراً.

رفضت الفكرة دون سبب كعادتها، وإن ذهبت فهي لن تأتي معي كي لا تشاهد تلك الأشياء الكريهة على الكلابات، وفجأة تدرك سبباً حقيقياً وهو أن العدة والقصبة والأشياء الأخرى ستكلف جنيهاً، القصبة وحدها بعشر شلنات وتفقد هدوءها في الحال إنك لم ترَ كيف تنفجر هيلدا القديمة في وجهي عندما يتعلق الأمر بعشرة شلنات.

إن تلك مضيعة للنقود في أعمال سخيفة، كيف تدفعون عشرة شلنات ثمن هذه الصنانير الصغيرة التافهة. عيب عليك أن تصيد وأنت في هذا العمر، انك رجل ناضج ولم تعد طفلاً يا جورج ثم يهجم على الأولاد وتتسلق على أكتافي لورا وتسألني بطريقتها الطفولية هل أنت طفل يا أبي؟ أبي

ويلي الذي كان لا يتكلم بشكل مفهوم فيسمع العالم كله بصياحه. أبي طفل، أبي طفل إنه أوعاد صغير غير طبيعي.

6

كانت القراءة من اهتماماتي أيضاً إلى جانب صيد السمك.

لقد بالغت إن أوحيت بأن الصيد كان الشيء الوحيد الذي اهتميت به، ومن المؤكد أنه يأتي في المقام الأول، لكن القراءة هي الاهتمام الثاني بلا أدنى شك. بدأت القراءة الطوعية أو المطالعة في العاشرة أو الحادية عشرة، وكانت اكتشافاً جديداً في عمري آنذاك، وأنا قارئ كبير، فلا تمر أسابيع كثيرة دون أن أقرأ فيها رواية أو اثنتين، ويمكن وصفي بالمشترك النموذجي في مكتبة بوتس. كانت يدي تقع دائماً على الكتب الأكثر رواجاً في أزمانها مثل الزنبق المصلح وربيع بمان وقلعة هاتر، وكنت عضواً في الكتاب البدري لسنة أو أكثر، وفي عام 1918، وعندما بلغت الخامسة والعشرين أفسدتني القراءة وبدلت نظرتي وآرائي لكن لاشيء يشبه تلك الأيام، وأنت تكتشف فجأة أن بإمكانك فتح الجريدة الأسبوعية والغوص مباشرة في عالم لصوص المطابخ وأوكار الأفيون الصينية وحزر البولينيز وغابات البرازيل.

كانت أكثر فترة قرأت فيها من عمر الحادية عشرة إلى السادسة عشرة. قرأت في البداية الأسبوعيات الرخيصة والجرائد الصغيرة ذات الورق الصغير والرقيق والطباعة السيئة وكانت أغلفتها مصورة وبثلاثة ألوان، بعدها بقليل بدأت أقرأ الكتب مثل شرلوك هولمز ودكتور نيكولا والقرصان الحديدي ودراكولا وربيع اليانصيب ونات غولد ورينجر غول وأخرى نسيت أسماءها وقصصاً عن الملاكمة والسباقات، وأظن لو أن والديّ كانا متعلمين لكان في حوزتي كتب جيدة لديكنز وثاكري وأمثالهم، والواقع أنهم في المدرسة دفعونا إلى كوينتين دوروارد. لقد حاول العم ايزكيل أن يحثني على قراءة كارليل وروسكين لكن بيتنا لم يكن فيه كتب، أما أبي فلم يقرأ أي كتاب في حياته غير الكتاب المقدس وكتاب ساعد نفسك لسمايلز.

لم أقرأ كتاباً جيداً بحسب ما أذكر إلا بعد وقت طويل، فقد قرأت أشياء أردتها واستفدت منها أكثر من العلم الذي تعلمناه في المدرسة، ولست آسفاً على سير الأمور على هذا المنوال.

اندثرت الكتب الرخيصة والمثيرة التي وجدت عندما كنت ولداً ولكني أتذكرها بصعوبة. أذكر أسبوعيات منتظمة للأولاد التي لا يزال بعضها موجوداً، كما اندثرت قصص بوفالو ولم يعد يقرأ نات غولد، أما نك كارتر وسكستون بليك فهم لا

يزالان كما كانتا، والجوهرة والمغناطيس إن كنت أتذكر جيداً بدأت في عام 1905 وكانت ب.اوب.ب لا تزال تطبع بأحرف صغيرة، وبدأت الرفاق في عام 1903 وكانت ممتازة، ثم صدرت موسوعة لا أذكر اسمها في أعداد صغيرة لا تستحق القراءة. وكان في المدرسة ولد يترك أعداداً منها أحياناً وأنا الآن أعرف طول الميسيسبي والاختلاف بين الأخطبوط والحبّار وتركيب أجزاء الجرس.

أما أخي جو فلا يقرأ أبداً، وهو من النوع الذي سمى دراسته دون أن يقرأ عشرة أسطر متتالية، فمنظر الأحرف المطبوعة يسبب له المرض والغثيان، ولقد رأيته مرة يمسك بعدد من مجلة الرفاق قرأ منه فقرة أو اثنتين وابتعد كمن جعل من تبن فاسد، وحاول إبعادي عن القراءة إلا أن أبي وأمي أعاداني إليها بعد إقرارهما بأنني ولدهما الذكي، وافتخرا بي لأنني أتذوق التعلم من الكتب، لكنهما كانا يزعجان من قراءتي للرفاق وعصبة الشباب لاعتقادهما بأنني يجب أن أقرأ كتباً تحسّن مستواي رغم عدم معرفتهما بتلك التي تقوم بذلك. ومرة وقعت يد أمي على كتاب عنوانه كتاب الشهداء لفوكس، لكنني لم أقرأه علماً أن رسومه التوضيحية لم تكن سيئة. كنت أنفق بنساً في شراء الرفاق أسبوعياً وأتتبع قصصهم المتسلسلة دونوفان الذي لا يقهر، وهو المستكشف الذي استأجره مليارديرٌ أمريكي ليحضر له أشياء لا تصدق من

أصقاع الأرض المختلفة مثل ماسات بحجم كرة الغولف من براكين إفريقيا، وأنياب الماموث من غابات سيبيريا المتجمدة، أو كنوز الأنكا من البيرو. كان دونوفان يذهب في رحلة كل أسبوع ويرجع دائماً. مكاني المفضل للقراءة هي الشرفة، إلا إذا أخرج أبي أكياس الحبوب التي تكون أهدأ مكان في البيت، فأستلقي فوق تلك الأكياس ووسط رائحة الجبس الممزوجة برائحة السفون وباقات من شبكات العناكب في كل الزوايا. وفي المكان الذي أجلس فيه هناك ثقب في السقف، ولوح خشبي ناتئ من الجبس، وأحس به الآن. في أيام الشتاء الدافئة أستلقي على بطني ومجلة الرفاق مفتوحة أمامي، ويركض فجأة فأر بجانب أحد الأكياس كلعبة ويتوقف بلا حراك، وينظر بعيون صغيرة كحبتين فحميتين. عمري اثنا عشر عاماً وأنا دونوفان الذي لا يقهر في أعالي الأمازون، وعلى بعد ألفي ميل أنصب خيمتي وجذور نبات السحلبية الغامض الذي يزهر مرة كل مئة عام تحت السرير في الخيمة، ويحيط بي هنود الهوبي هوبي الذين صبغوا أسنانهم باللون الأحمر القرمزي وجلودهم بالأبيض يدقون طبول الحرب، ثم نتبادل النظرات أنا والفأر وسط رائحة السفون والجبس البارد، وأنا في أعالي الأمازون، يا لها من نعمة عظيمة.

7

كان ذلك عالماً حقيقياً...

أردت أن أخبرك عن العالم قبل الحرب، العالم الذي استنشقته عندما رأيت اسم الملك روع على الملصق الإعلاني، والفرص التي أخبرتك عنها ليست إلا فيض من فيض. لذا إما أنك تتذكر ذلك العالم ولا حاجة لأن أخبرك به أو لا تتذكره فلا فائدة ترجى من فعل ذلك. تحدثت كثيراً عما حدث لي قبل السادسة عشرة، وقبل ذلك الحين سارت الأمور على ما يرام مع عائلتي، وقبل عيد ميلادي السادس عشر بدأت بتلقي لمحات مما يسميه الناس بالحياة الواقعية التي تعني عدم الرضا بعد ثلاثة أيام من رؤية السمكة الكبيرة في بينفيلد دخل أبي ليشرب الشاي وكان قلقاً جداً ومغبراً بالطحين، فأكل بطريقته الوقورة وباله مشغول وشارباه يرتفعان ويهبطان في حركة جانبية لأنه فقد أسنانه الخلفية، وعندما هممت لأقوم عن الطاولة ناداني:

- انتظر يا ولدي جورج لدي ما أقوله لك. لقد فكرت كثيراً وحان الوقت لتترك المدرسة. عليك أن تعمل لتكسب القليل لتعيل أمك والبيت. كتبت للسيد ويكسي وقلت له بأنني سأرسلك بعيداً

بالطبع كان ذلك معداً مسبقاً، لقد كتب للسيد ويكسي

قبل أن يجبرني إذ اعتاد الآباء في تلك الأيام ترتيب كل شيء دون التشاور مع أبنائهم. استمر أبي بالتمتمة والمضغ والشرح القلق. لقد مر بظروف صعبة مؤخراً، وأصبحت الأحوال أصعب، ونتيجة لذلك وجب علينا أنا وجو أن نعمل لكسب عيشنا. لم أكن أهتم في ذلك الوقت بحال التجارة إذ كانت في وضع جيد أم سيئ، وليست لدي الغريزة التجارية الكافية لمعرفة أسباب سوئها وتدهورها.

في الواقع إن أبي خسر كثيراً في منافسة آل سارزيس وهم بائعو بذور بالمفرق ولهم شأنهم، ولهم فروع في كل البلاد ومن بينها في لوار بينفيلد، فقد استأجروا محلاً في السوق قبل ستة أشهر وزينوه بالطلاء البراق والكتابة المذهبة ودهنوا أدوات البستنة بالأخضر والأحمر؛ وهناك إعلانات كبيرة للبازلاء الحلوة التي تبهر البصر على بعد مئات الأمتار بالإضافة الى بيع بذور الزهور؛ فهم الموزعون المعلميون للدواجن والمواشي علاوة على القمح والشوفان وغيرها وخلطات الدجاج المرخصة وبذور الطيور المحفوظة بأغلفة ساحرة وبسكويت للكلاب من كل الأشكال، وأدوية ومراهم ومساحيق ملطفة، وأشياء مثل مصائد الفئران وسلاسل الكلاب وحاضنات البيض، والبيض الصحي وأعشاش الطيور والنباتات وقاتلات الأعشاب والمبيدات الحشرية، وفي بعض الفروع فتحوا قسماً للمواشي والأرانب والأفراخ الصغيرة التي عمرها يوم واحد فقط.

لم يتمكن أبي من المنافسة بدكانه الصغير القديم، ورفضه فتح خطوط جديدة، لذلك تعامل أغلب المزارعين والتجار وأصحاب الشاحنات مع محلات البيع بالمفرّق وتجمّع محلات سارازينز، لكنهم بعد ستة شهور تحلّقوا حول أبناء الطبقة العليا القريبة الذين كانوا يملكون العربات الكبيرة والصغيرة فكان ذلك خسارة فادحة لأبي ولتاجر الذرة الآخر وبشكل. لم أكن أفهم مثل تلك الأمور، وليس لدي اهتمام بالتجارة، فنظرتي لها كانت نظرة صبي، ولم أعمل في المحل أبداً، وكل ما كنت أفعله حمل أكياس الحبوب إلى العلية وإنزالها أحياناً عندما يطلب أبي مني ذلك. إن الأولاد في مدرستي ليسوا أطفالاً جهلة مثل طلاب المدارس الداخلية، فهم يعرفون معنى العمل وقيمة الستة شلنات، لكن من الطبيعي لصبي مثلي أن يعتبر تجارة والده مملة ومضجرة، حتى ذلك الوقت بدت لي صنانير الصيد وعصير الليمون الفوار وغيره أكثر أهمية من أي شيء آخر.

رتّب أبي الأمر مسبقاً مع العجوز غريمت، وهو البقال الذي كان بحاجة إلى صبي ذكي يساعده في المحل فوراً، ثم بعد فترة قصيرة تخلّص أبي من الصبي الذي كان يعمل عنده في الدكان، أما جو فكان في البيت يساعد أبي ريثما يحصل على وظيفة دائمة. ترك جو المدرسة قبل ذلك، وقضى وقته

في التسكع، وتحدث أبي عن إدخاله في قسم الحسابات في معمل الجعة، وبعد سبعة أيام أراد أن يجعله بائع خردوات لكن لا هذا ينفع ولا ذاك مع جو لأن كتابته كانت سيئة مثل حريشة صبي الحراث، ولا يحفظ جدول الضرب، ولكن كان عليه أن يتعلم أي صنعة، فبدأ بتصليح الدراجات في محل كبير في ضاحية والتون غير أنه مثله مثل الكثير من المحترفين العاملين في المحلات لم يكن لديه ميل ليصبح ميكانيكياً لقد كان عاجزاً عن الاستمرار في العمل ويتسكع بثياب الميكانيكي الملوثة بالشحم ويدخن السجائر ويحرك ويشرب الخمر ويتنقل من فتاة إلى أخرى، كما يلح في طلب النقود من أبي الذي كان مستاء ومحتاراً وقلقاً، ولا أزال أستطيع رؤية الطحين يغطي رأسه الأصلع والقليل من الشعر الرمادي فوق أذنيه وشاربه ونظارته دون أن يتمكن من فهم ما يحدث.

سنوات كثيرة ظلت فيها أرباح أبي تصعد بثبات وبطء. ففي العام الماضي عشرة جنيهات وعشرون جنيهاً هذا العام، وهكذا إلى أن هبطت فجأة وبشدة بحيث لم يقدر على فهم السبب لقد ورث تجارة البذور من والده، وتعامل بشكل شريف، فكانت أرباحه تتناقص، وقد قال مرات كثيرة وهو يمصمص أسنانه ليخرج منها كسرة طعام عالقة إن الأحوال سيئة، وإن التجارة بدأت بالكساد ماذا يحدث للناس، وهل الحيوان توقفت عن الأكل؟ ربما بسبب السيارات ذات الروائح

الكريهة! وكانت أمي قلقة جداً، ومن واجبها أن تفعل شيئاً ما. لقد لمحت نظرة بعيدة في عينيها مرة أو اثنتين عندما كان أبي يتحدث عن سوء الأوضاع، وكانت تفكر إن كان ستتناول لحم بقر وجزراً على الغداء أم فخذ ضأن، وباستثناء بعض الحالات التي تحتاج فيها إلى بصيرة مثل شراء البياضات أو أواني المطبخ، فإن أمي غير قادرة على التفكير بأكثر من الوجبات والأكل. سبّب المحل مصاعب جمة لأبي، وزاد قلقه ولم يفهم لا أنا ولا أمي ما كان يحدث. لقد مرت سنة سيئة خسر فيها أبي نقوده لكن هل كان أبي قلقاً على المستقبل فعلاً؟ لا أعتقد ذلك، وكان هذا في عام 1919 على ما أذكر. أبي لم يفهم ما يحدث لأن الأمور لم تكن تجري على هذا المنوال في أيام شبابه، ولم يقدر أن يتنبأ أن محلات سارازينز ستقلل من مبيعاته بسهولة حتى تدمره وتبلعه وكل ما عرفه أن الظروف سيئة والتجارة بطيئة ومهملة.

من المفيد أن أخبرك أنني كنت عوناً كبيراً لأبي في زمنه الصعب، ولكنني سأثبت فجأة أنني رجل. فتطورت كالأشياء التي قرأتها في الروايات الأخلاقية، ويمكن أن أذكر أن ابتعادي عن المدرسة قد آلمني، وكان عقلي الصغير يحن ويشتاق إلى المعرفة والتنقية كي أبتعد عن المهن الميكانيكية التي لا روح فيها والتي اتجهت للعمل فيها مجبراً.

في الحقيقة كنت مسروراً بفكرة الذهاب إلى العمل،

وخصوصاً عندما عرفت أن العجوز عريميت سيدفع لي اثني عشر شلناً في الأسبوع، كما يمكنني الاحتفاظ بأربعة منها، فبهت لون سمت الكارب في بيت بينفيلد الذي كان يملأ ويشغل فكري.لم يكن لدي اعتراض لترك المدرسة، وهو ما يحدث للأولاد عادة في مدرستنا، فيتركون زاعمين أنهم ذاهبون إلى الجامعة ليصبحوا مهندسين أو ليدخلوا عالم الأعمال في لندن، وبعد إجازة مرضية ليومين يختفي من المدرسة لنقابله بعد شهر ونصف على دراجة يوصل الخضار.بعد خمس دقائق من معرفتي بترك المدرسة صرت أتساءل عن البدلة الجديدة التي سألبسها في العمل، وطلبت فوراً ببدلة رجل ومعطف على الموضة، لكن أمي عارضت المعطف لأنه سوف يسبب لنا فضيحة لكونه على الموضة اعتاد الآباء آنذاك إعاقة أولادهم من لبس ثياب الكبار، وكانت تدور معارك متوقعة داخل كل عائلة قبل أن يستطيع أولادها لبس قبة عالية أو شعورهن للأعلى.

انحرفت المحادثة بعيداً عن مشاكل تجارة والدي، ودار جدل طويل ومزعج مع أبي الذي كان غضبه يزداد تدريجياً معطف، حسناً لا تستطيع لبسه، لا يمكنك... لهذا لم أمتلك معطفاً على الموضة الدارجة لكي نحت في بدلة جديدة جاهزة سوداء بقبة عريضة لأول مرة، وبدوت كمتسول عجوز كل انزعاجي من التجارة نشأ من ذلك.

كان جو أنانياً جداً إذ كان يترك دراجته أمام المحل. وكان يقضي هذا الوقت القصير في التسكع الذي كان يسبب الكثير من الأزعاج لأبي. عملت ست سنوات في محل العجوز غريميت الذي كان رجلاً مسناً بقامة منتصبة وشعر رمادي ناعم كشعر عمي ايزكيل لكنه أضخم، وهو ليبرالي أيضاً، وأقل حدة وأكثر احتراماً في البلدة. وقد عدل موقعه ووارن أشرعته أثناء حرب البوير، كما أنه عدو لدود للاتحادات المهنية، وعضو في جوقة الكنيسة واسم معروف على الصعيد المحلي بـ ساب. أما عائلتي فكانت مسيحية فقط، وعمي ايزيكيل غير مؤمن، ومرة طرد معاونه بسبب صورة لكير هاردي، وغريميت وكان أيضاً عضواً في مجلس البلدة والممثل الرسمي المحلي للحزب الليبرالي بلحيته البيضاء وكلامه المنمق عن حرية الضمير والرجل العجوز العظيم ورصيده البنكي الحافل وصلواته الارتجالية وهو يشبه السمان الأسطوري المشتق في القصة التي سمعت عنها على ما أعتقد:

- جيمس
- نعم يا سيدي.
- هل وضعت رملاً في السكر.
- نعم يا سيدي.
- وهل أضفت الماء إلى الدبس؟

- نعم سيدي.

- إذاً هلمّ إلى الصلاة.

يعلم الله عدد المرات التي سمعت فيها هذه الحكاية في الدكان. فنحن عادة نبدأ اليوم بالصلاة قبل أن نرفع الستار. لم يكن العجوز غريمبيت يضع الرمل في السكر لأن ذلك لن ينفع، لكنه كان رجل أعمال ناجحاً ويتاجر بكل البقالة التي تحتاجها الطبقة العليا في بينفيلد والريف المحيط بها، ولديه ثلاثة معاونين بالإضافة إلى صبي المحل وسائق العربة وابنته التي تعمل محاسبة. وكنت صبي المحل خلال الستة أشهر الأولى، وبعدها ترك المحل أحد المعاونين للالتحاق بالجامعة فدخلت إلى المحل ولبست مئزري الأبيض، وتعلمت حزم الطرود وربط الزبيب وطحن القهوة وعمل شرائح من لحم الخنزير وتقطيع لحمه وتنظيف السكاكين وكنس الأرض ونفض الغبار عن البيض دون كسره وبيع سلعة رديئة على أنها جيدة وتنظيف الواجهة وتقدير رطل الجبنة وفتح صندوق التعبئة وقطع ألواح الزبدة في شكل معين، وأصعب شيء معرفة مكان المخزون.

ذاكرتي عن البقالة ليست مفصلة كذاكرتي عن الصيد، ولكن لدي ما يكفي منها لأتذكر كيف أقوم بأصابعي بخدعة الخيط، وأستطيع العمل في مشرحة بشكل أفضل من العمل على الطابعة، كما أني أستطيع تدويخك [illegible] جميلة بأنواع

الشاي الصيني ومكونات السمن النباتي ومتوسط وزن ليمة وسعر أكياس الورق بالآلاف. قضيت الخمس سنوات كتلة وأنا شاب صغير بوجهي الدائري الوردي وشعري الذي بلون الزبدة، والذي كان مسرّحاً وطويلاً، مربياً وممشوطاً إلى الخلف بطريقة سماها الناس آنذاك التسريحة المشيطة لدعمة. عملت جاداً خلف الطاولة لأكثر من خمس سنوات مرتدياً مئزري الأبيض وقلم الرصاص وراء أذني، وأنا أربط أكياس القهوة بسرعة البرق، وأتكلم مع الزبائن (حاضر يا سيدتي، بالتأكيد يا سيدتي، ما هو طلبك التالي يا سيدي) بلهجة فيها أثر من السوقية. كان العجوز غريميت يشغلنا بقسوة كبيرة حيث إن يوم العمل كان إحدى عشرة ساعة ماعدا يومي الخميس والأحد وأعياد الميلاد، كان كابوساً استمر زمناً طويلاً عند النظر إليه. لا تظن أنني بلا طموح ولقد أدركت أن البقاء معاون بقال إلى الأبد هو مستحيل، وسأوفر النقود بأي طريقة لأضع الأساس لعملي الخاص.

كان العالم قبل الحرب كبيراً، أي قبل هبوط الأسعار وإعانات العاطلين عن العمل، فاتسع العالم لكل الناس حيث يمكن لأي شخص أن يؤسس مشروعه، وتوافرت الأمكنة للمحلات الجديدة على الدوام، لكن الوقت مر سريعاً 1909، 1910، 1911 ومات الملك ادوارد، وصدرت الصحف موشحة بعلامات الحداد، وتم افتتاح داري للسيـ

في والتون وشاعت السيارات أكثر وانطلقت الحافلات لعبرة البلاد، وحلقت طائرة فوق بلدة بعيد ذلك الشيء لقيح الذي يشبه الكسيح حيث يجلس الطيار في وسطها على شيء يشبه الكرسي، وخرجت البلدة كلها تصيح، وبدأ الناس يرددون بأن إمبراطور ألمانيا قد كبر على حذائه، ومضى عهد، أن الحرب ضد ألمانيا قادمة. إزداد أجري تدريجياً حتى وصل إلى ثمانية وعشرين شلناً في الأسبوع، وذلك قبل الحرب فكنت أدفع لأمي عشرة منها مقابل طعامي. وعندما ساءت الأمور ردتها إلى خمسة عشر وما تبقى كان يكفيني ويشعرني بالغنى، فازداد طولي بوصة أخرى، وبدأ شاربي بالظهور، ولبست الجزمة ذات الأزرار والقبة العالية والقبة المستديرة والقفازات الجلدية مثل السادة تماماً. بين العمل والمشاوير فكرت بالبنات والشباب، وانتابني طموح بأن أصبح رجل أعمال كبيراً مثل ليفر أو وليام وايتلي، وبذلت جهوداً كبيرة بين السادسة عشرة والثامنة عشرة لأحسن من مستوى العقلي، وأدرب نفسي في مجال الأعمال، فعالجت نفسي من القلقلة والتأتأة، وتخلصت من اللهجة المحلية -كانت اللهجات الريفية تتلاشى من وادي التيمز ماعدا صبيان المزارع، أما كل من ولد بعد 1890 فقد تكلم اللهجة الكوكوية المحلية- ودرست منهجاً بالمراسلة في أكاديمية لينل بيرنس التجارية، وتعلمت مسك الدفاتر والانكليزية لحصة

بالتجارة والأعمال، وقرأت كتاب فن البيع، وكان محشواً بهراء فظيع، وطورت قدراتي بالحساب والكتابة، وعندما أصبحت في السابعة عشرة من عمري كنت أظل ساهراً حتى وقت متأخر في الليل، وأنا أتمرن على طباعة الكليشيهات الحماسية على طاولة السرير وعلى ضوء مصباح زيتي صغير.

قرأت كثيراً قصص الجرائم والمغامرات وكتباً مغلفة بالورق توصف بالحقارة يتداولها شباب المتجر، وهي ترجمات موبسان وبول دي كوك، وعندما بلغت الثامنة عشرة صرت مثقفاً وحصلت على تذكرة في مكتبة كاونتي، وقرأت كتب ماري كوريللي ووهول كايين وانتوني هوب بصعوبة وانضممت في الوقت نفسه إلى دائرة بيميلد للمطالعة التي أدارها القس، وكانت تجتمع مرة في الأسبوع خلال الشتاء للقيام بنقاش أدبي، وتحت ضغط القس قرأت سمسم وليمر وبراوننغ.

مر الوقت مسرعاً، وتتالت أعوام 1910 و1911 و1912، ووصلت تجارة أبي إلى أسوأ حال لم تعرفه من قبل، فتغير والداي بعد هروب جو من البيت ولم يعودا كعهدهما بعد أن عملت عند غريميت بوقت ليس طويلاً. جو الذي أصبح رجلاً ضخماً مشاكساً في الثامنة عشرة وكان أكبر وأقوى من أفراد العائلة بكثير، بأكتاف عريضة جداً ورأس كبير، يدس يديه في جيوبه وينظر شزراً إلى المارة وكأنه يريد

مصارعتهم، فكان يقف في مدخل مشرب جورج سداً الطريق، ومن جاء شخص ما ليدخل يتحرك إلى الطرف قليلاً ليفسح له في الدخول دون أن يخرج يديه من جيوبه ويصرح قائلاً: هل هو محل والدك؟ وعندما يأتي الناس للشكوى منه يقول أبي وأمي لا نعرف ماذا سنفعل به؟ كان مستعدٌ لبيع أي شيء للشيطان مقابل شرابه ودخانه اللذين كان يستهلك الكثير منهما ولقد شكلت طلباته عبئاً ثقيلاً، ومرة خرج من البيت ولم يرجع ثانية بعد أن فتح عنوة درج النقود وأخذ كل ما فيه، ولحسن الحظ لم يكن فيه سوى ثمانية عشر جنيهاً كانت كافية للحصول على تذكرة رخيصة إلى أميركا إن رغب بذلك، ومن المرجح أنه فعلها لكننا غير متأكدين. تفشت أنباء فضيحة في البلدة كلها والنظرية الرسمية هي أن جو على علاقة بفتاة اسمها سالي شيفرز كانت تسكن في الشارع نفسه، وأنها أوشكت على الإنجاب، واتهم العشرات مع جو ولم يعرف من هو والد الطفل. تقبل أبي وأمي ذلك وفي سرهما سامحا جو على سرقة الجنيهات الثمانية عشر لكن لم يستطيعا إدراك أن جو هرب لأنه لم يقدر أن يتحمل حياة محتشمة في بلدة ريفية صغيرة، فهو يريد حياة تسكع ونساء وعراك، ولم يصلنا أي خبر منه أبداً، فربما انحدر نحو الأسوأ أو قتل في الحرب أو لم يتجشم عناء الكتابة لنا، ولحسن الحظ فقد ولد الطفل ميتاً لذا لم تكن هناك تعقيدات

أخرى، وبالنسبة لسرقة الحيوانات فقد بقي سراً بين أبي وأمي إلى أن ماتا واعتبراها نقيصة أكبر من طفل سالي شيفر. لقد أزعجت مشكلة جو أبي وضجرته قبل أوانه لأن ضياعه لم يكن خسارة فقط بل كان عاراً لأهلي، وازداد اللون الرمادي في شاربه وأصبح أصغر حجماً من ذي قبل بوجهه المدور المكسو بالتجاعيد ونظارته المعبرة، وبالتدريج كثر قلقه حول النقود، وقلّ اهتمامه بالشؤون الأخرى، كما قلّ حديثه عن السياسة وسوء أحوال التجارة وانكمشت أمي قليلاً أيضاً، أمي التي عرفتها في طفولتي كشيء قاهر ومهيمن بشعرها الأصفر ووجهها المشعّ وصدرها الضخم! إنها مخلوق عظيم كتمثال في مقدمة سفينة حربية فقد تحولت الآن إلى حجم أصغر يسيطر القلق عليها، وبدت أكبر من عمرها الحقيقي وأقل هيبة في المطبخ، تميل إلى طبخ لحم الضأن وتستعمل السمنة النباتية التي رفضت إدخالها إلى البيت في الأيام السابقة كما كان يقلقها سعر الفحم.

اضطر أبي إلى استئجار صبي للعمل في المحل بعد رحيل جو، وكان يستأجر أولاداً صغاراً جداً يبقيهم عنده سنة أو اثنتين لكنهم كانوا غير قادرين على حمل الأشياء الثقيلة، لذلك كنت أساعده عندما أكون في البيت أحياناً وكانت أمي تمنعني من مساعدته دائماً ولا أزال أراه وهو يشق طريقه ببطء عبر الساحة محني الظهر، ولا يظهر سوى الكيس

الضخم الذي يزن أكثر من مئة وخمسين رطلاً الذي يضغط على رقبته وكتفيه ويحنيه إلى الأرض وهو ينظر بوجهه القلق ونظارته المعبرة من الأسفل ؛ ولقد أصابه فتق في عام 1911 فأمضى عدة أسابيع في المستشفى واستأجر شخصاً يدير المحل لكنه استحوذ على قسم من رأس المال. إن منظر البقال المتجه نحو الإفلاس مرعب، لكنه غير مزعج مثل العامل المطرود من عمله ليعتمد على إعانة البطالة. إن استمرار التدهور التدريجي في التجارة صعوداً أو هبوطاً، أي بضعة شلنات خسارة أو ستة بنسات ربح والحالة الصحية للزبائن الذين تعاملوا معه سنوات والذين تحولوا إلى محلات سبراريتر وأصبح الزبون الذي يشتري دزينة دجاج يكتفي بطلب كميات من الذرة تكفيه أسبوعاً، لكن على الرغم من ذلك استمر وظل سيد نفسه مع ازدياد القلق و الإهمال وانكماش المال لكن الاستمرار كان ممكناً، وإن جانبك الحظ تستمر سنوات حياتك كلها. مات عمي ريكيل عام 191 تاركاً مئة وعشرين جنيهاً، ولقد شكل ذلك المبلغ دعماً كبيراً لوالدي حتى عام 1913 عندما رهن والدي تأمين حياته وهو ما لم أسمع به من قبل أو أفهمه في ذلك الوقت، وكل ما أدركته أن إدارة أبي لم تكن ناجحة وتجارته خاملة وراكدة. لقد نظرت إلى المحل على أنه شيء أبدي ودائم مثلما اعتقد أبي أيضاً، وإني لذلك أحتاج إلى وقت طويل

كأسس مشروعي الخاص، وبالتأكيد سينتهي بي المطاف في الملجأ. كنت أمر أمام محلات سيراريبر كثيراً، لكن بتجرّد لقد فضلت واجهاتهم الزجاجية الملساء على محل والدي المعبر بيافطته (اس بوليع) المعبرة التي لا تقرأ إلا بصعوبة بأحرفها البيضاء، وعلبة البلور الباهتة ولم يخطر ببالي أن ساراريبر دودة شريطية تأكل أبي حياً.

كنت اقرأ له أحياناً عن منهج التجارة وأساليبه الحديثة الذي كنت أدرسه بالمراسلة، لكنه لم يكن يدرك أو يهتم. لقد ورث تجارة مستقرة، وعمل بجد وجهد، وتاجر تجارة شريفة وقدم بضاعة جيدة معتقداً أن هذا كاف لتحسين الأمور. إن عدد الباعة الذين انتهوا إلى الإفلاس كان قليلاً ومهما ساء الحظ فيبقى عندك جنيهات قليلة بعد أن تموت، فكان سباقاً حاداً بين الإفلاس والموت، وأحمد الله أن الموت كان الأسبق لأبي وأمي.

كانت الحياة ممكنة في الأعوام 1911 و1912 و1913، ولقد قابلت ويلسي ووترز في أواخر عام 1912 لأول مرة من خلال جماعة القس للمطالعة، وحتى تلك الحين كنت مثل كل الفتيان في البلدة أخرج وراء الفتيات، وكان ذلك عملاً مرياً، فعندما تكون في حدود السادسة عشرة من العمر، وفي مكان معروف في المدينة، فإنك مجبر على مجاراة الأولاد الذين يتمشون في مجموعات من شخصين ذهاباً وإياباً،

وينظرون إلى الفتيات اللواتي يقمن بالعمل ذاته أيضاً ويتظاهرون بعدم ملاحظة الأولاد، ويحدث أحياناً اتصال من نوع ما في الحال، فيتقاطر الأربعة، لكن من دون كلام وأسوأ ما في تلك المشاوير هو الخروج وحدك مع الفتاة في المرة الثانية حيث تمثل فشلاً ذريعاً في القيام بأي نوع من الحديث، لكن إيلسي ووترز كانت مختلفة، والحقيقة أنني كنت أكبر وأكثر نضجاً.

لا أريد أن أحكي قصتي مع سالي ووترز، حتى إن كانت هناك قصة، بل لمجرد أنها جزء من صورة عالم ما قبل الحرب حيث يبدو فيه الوقت أنه صيف دائم- إنه وهم ولقد أشرت إليه آنفاً - لكنني هكذا أتذكر الأشياء.

عندما أغمض عينيّ وأفكر في عالم ما قبل الحرب، ألمح الطريق الترابي الأبيض الممتد من أشجار الكستناء إلى البرك الخضراء وشرشة بودفورد، وأرى أن إيلسي ووترز جزء منه إلى النهاية.لا أدري إن كانت إيلسي تعتبر جميلة بمقاييس الحاضر لكنها آنذاك كانت في طول قامتي تقريباً، شعرها ذهبي باهت تطليه وتلفه فوق رأسها، ووجهها جميل وناعم دائماً وتبدو في أفضل حالاتها عند ارتدائها الثياب السوداء ولقد كانت تعمل في محل ليلي برايت للأقمشة وتنحدر أصولها من لندن، وهي تكبرني بسنتين كما أعتقد.

إنني ممتن وشاكر لإيلسي لأنها أول من علمني الاهتمام

بالمرأة. لا أقصد النساء بشكل عام بل المرأة الفرد. التقيت لأول مرة في حلقة المطالعة، وبصعوبة لاحظت وجودها، وفي اليوم التالي دخلت إلى الأتولير خلال ساعات العمل وهو ما لم أكن أفعله عادة، فهو جو نسائي، وصمت مكبوت وأضواء خافتة ورائحة القماش الباردة وصرير خفيف للبكرات الخشبية التي تدور إلى الأمام من الخلف؛ كانت إيلسي محنية وراء طاولة تقص قماشاً بمقص كبير في يدها وكان لها سحر لا أستطيع وصفه وهي في ثوبها الأسود وقد تكور صدرها الطري على الطاولة، وحالما تراها تشعر أن بإمكانك أخذها بين ذراعيك وفعل ما تشاء بها. كانت أنثى حقيقية بكل معنى الكلمة، ومطيعة جداً وتفعل ما يطلبه منها الرجل دائماً، لكنها ليست ضعيفة ولا غبية أو صغيرة وتميل إلى السكوت وأحياناً مهملة بشكل فظيع كما كنت أنا في تلك الأيام.

قضينا معاً سنة تقريباً، تمكنا فيها من العيش سوياً بالمعنى المجازي في بلدة مثل بينفيلد فرسمياً كنا نخرج لنتمشى، وهذا عادي بدون خطورة في طريق بطول ميل يتفرع من الطريق المؤدي إلى بينفيلد ويمتد تحت التلال، وفي قسم منه يكون مستقيماً ومغطى بأشجار الكستناء الضخمة، وعلى جانبيه المعشب، وهناك ممر تحت الأغصان يدعى زقاق العشاق، كنا نذهب إليه في أمسيات شهر أيار (مايو) عندما يكون الشفق أزرق وطويلاً والهواء يدغدغ الوجوه كالحرير.

وفي أيام الآحاد كنا نذهب إلى المروج المائية في كمفورد على طول التيمز يا الله ما أجمل عام 1913... هدوء ومدى اخضر، وهو لن يتكرر ثانية. لا أقصد أن العام هو الذي لن يتكرر، إنما الشعور الداخلي بأنك لست على عجلة من أمرك وأنك غير خائف.

لم تسنح لي الفرصة إلا في أواخر الصيف عندما بدأت ما سميناه بالعيش معاً. ولقد كنت خجولاً جداً وأخرق لأبدأ، كما أنني كنت جاهلاً كي أعرف إن كان هناك آخرون قبلي. وفي إحدى الأمسيات دخلنا بين أشجار الزان المحيطة ببينفيلد حيث رغبت أن نكون لوحدنا كما كنت بأمس الحاجة إليه. عرفت بأنها تنتظرني كي أبدأ. خطر ببالي أن ندخل إلى أرض بينفيلد هاوس لكن العجوز هودجز الذي تجاوز السبعين كان سريع الغضب وقد يطردنا، وربما يكون نائماً في قيلولة بعد الظهر، فتسللنا من خلال فرجة في السياج وانحدرنا إلى الممشى بين أشجار الزان صوب البركة الكبيرة التي لم أذهب إليها منذ أربع سنوات والتي لم يتبدل فيها شيء إذ لا يزال المكان في عزلة مطلقة، وانتابني شعور غريب جميل وأنت محاط بالأشجار من كل صوب والقارب القديم يتعفن بين أشجار الديس استلقينا في الوادي العشبي بجانب النعنع البري لوحدنا وكأننا في إفريقيا الوسطى. الله هو الذي يعلم كم قبلة قبلتها، ثم نهضنا وتمشينا ثانية. لقد أردتها بإلحاح

شديد، وأردت أن أقوم بالعمل الحاسم. لكني كنت نصف خائف، وخطرت ببالي فكرة أخرى في ذات الوقت، فقد نويت المجيء إلى هنا منذ سنتين ولم أفعل، وكان من العبث أن أدع الفرصة تفوت للنزول إلى البركة الأخرى وإلقاء نظرة على سمك الكارب الكبير، فشعرت أنني سأخذل نفسي إن لم أفعل، والحقيقة أنا لا أعرف لماذا لم أرجع من قبل. كان سمك الكارب مخزناً في عقلي، ولا يعرف بوجوده أحد غيري، سوف أعود وأمسكه في وقت ما وهو عملياً لي، فبدأت أتجول حول الضفة في ذلك الاتجاه، وبعد عشر ياردات رجعت إلى الوراء لأنه كان عليّ المرور عبر شجيرات العليق والأغصان المتجمعة المقطوعة، وأنا بأفضل ثيابي المخصصة لأيام الآحاد، بذلة رمادية وقبعة مدورة وقبة توشك أن تقطع أذني، وكان هذا هو لباس جميع الناس يوم الأحد في تلك الأيام. رغبتي في إلسي كانت جامحة فعدت ووقفت بجانبها للحظة، كانت مستلقية على العشب واضعة يديها على وجهها، لم تتحرك عندما سمعتني قادماً وبدت في ثوبها الأسود طرية ناعمة ومستسلمة كما لو أن جسدها مادة لينة يمكنك أن تعمل ما تشتهي به. وفجأة توقف خوفي ورميت القبعة فوق العشب، فارتددت إلى الخلف فجثوت بقربها واحتضنتها في الوقت الذي كنت لا أزال أشم رائحة المرج البري. كانت المرة الأولى لي، لكن لست لها كذلك ولم

تعمل الكثير... وتوقفت وكان ما كان. تلاشى سمك الكرب من ذهني، وفي الحقيقة لم أفكر به طيلة السنوات الطويلة التي أعقبت ذلك.

وخلال عامي 1913 و1914 وبالتحديد في ربيع العام 1914 عندما أزهر البرقوق ثم الزعرور البري وبعدهما الكستناء، وبعد ظهر أيام الأحد، وعلى طول الممر حيث الريح تهز أشجار الأسل الكثيفة التي كانت تتأرجح مثل شعر امرأة، وأمسيات حزيران (يونيو) الطويلة والممشى المغطى بأشجار الكستناء، وصوت البومة الذي كان يُسمع في المكان، وجسد إيلسي الذي يلتصق بي. لكنّ شهر تموز (يوليو) كان حاراً جداً في تلك السنة، فقد تعرّقت كثيراً في المحل بالإضافة إلى رائحة الجبن والقهوة المطحونة القوية، ثم يأتي المساء البارد في الخارج ورائحة الميسولا وتبغ الغليون في الممشى خلف البساتين والتراب الناعم تحت الأقدام والسد الذي يصيد خنافس الباتات.

يا إلهي، وما الفائدة من ذكر ذلك لشخص إن لم يكن محباً لعالم ما قبل الحرب؟ لكنني عاطفي ومتعلق به وأنت كذلك لو تذكرته لتعلقت به أيضاً. صحيح أنك إذا استرجعت فترة محددة من الماضي فإنك تميل إلى تذكر الأشياء السارة والصغيرة جداً وهذا ينسحب على عالم ما قبل الحرب أيضاً. لقد كان الناس يملكون شيئاً لا نملكه نحن الآن، لكن ما هو؟

كانوا لا ينظرون إلى المستقبل كشيء مرعب، والحياة لم تكن أسهل وأنعم مما هي عليه الآن بل كانت أصعب وأقسى. فالناس عملوا بجهد أكبر وعاشوا براحة أقل وماتوا بألم أشد، عمل العمال الزراعيون ساعات طويلة من أجل أربعة عشر شلناً في الأسبوع، وانتهوا مهترئين وبإصابات دائمة ويتقاعد شيخوخة بخمسة شلنات، كما تمنحهم الكنيسة نصف جنيه في المناسبات، وأوضاعهم أسوأ بكثير مما يسمى بالفقير المحترم. وانسون تاجر قماش صغير في الطرف الآخر من الشارع العام فشل بعد سنين من الصراع، وكان رصيده جنيهين وسبعة بنسات، ولقد مات مباشرة بسبب أسلوبه الفرحة، أما الطيب فقال: مات بسبب الجوع، ومع كل ذلك ظل متمسكاً ببدلة الصباح السوداء القديمة إلى النهاية. أما السهاتي، ذلك الحرفي الماهر الذي بدأ صبياً في العمل ثم أصبح رجلاً وعمل مدة خمسين سنة إلى أن أصابه العمى ودخل الملجأ مضطراً. أما أحفاده فكانوا يتصارخون في الشارع عندما أبعدوه في حين خرجت زوجته تتسوّل، وبمجهود يائس كانت ترسل له شلناً في الأسبوع كمصروف جيب. ما نراه الآن مرعباً جداً والأعمال التجارية الصغيرة تتدهور ويتحول التجار القدماء الأقحاح بالتدريج إلى الإفلاس، ويموت الناس بالسرطانات وأمراض الكبد ويقسم الأزواج المدمنون على الإقلاع عن الخمر يوم الاثنين ليعودوا

إنها يوم السبت، وتتحمر الناس بسبب الأطفال اللاشرعيين والبيوت التي بلا حمامات وتكسير الجليد الذي في الأحواض كل صباح في الشتاء، ورائحة العفونة في الشوارع الخلفية في الصيف الحار وساحة المقبرة المعبرة وسط البلدة بحيث تتذكر النهاية المحتومة كل يوم، ورغم كل ذلك فإن الناس كانوا يملكون شيئاً في تلك الأيام، نحن لا نملكه الآن، وهو الشعور بالأمان، وبدقة أكبر إنه الشعور بالاستمرارية. حتى في غياب الأمان فالكل مدرك أنه سيموت، وقلة منهم عرف أنهم سيفلسون لكن الذي لم يعرفوه هو أن ترتيب الأشياء ونظامها قد يتغيران، فمهما يحدث لهم فإن الأشياء سوف تستمر من بعدهم كما ألفوها، ولا أعتقد بأن ما أسموه بالإيمان الديني قد شكل فرقاً، فكل الناس كانوا يرتادون الكنائس في كل أنحاء البلاد آنذاك.

أنا وبلسي كنا نذهب إلى الكنيسة أيضاً باعتباره عملاً طبيعياً حتى عندما كنا نعيش في الحرام أو الرذيلة كما أسماها القس، وإن سألت الناس عن إيمانهم في الآخرة فأغلبهم سيجيب بنعم، لكنني لم ألتق بأحد خلق عندي الانطباع بأنه مؤمن حقيقي بالحياة المستقبلية، وأعتقد أن الناس يؤمنون بهذا كإيمان الصغار بآباء أعياد الميلاد لكنها من دون شك كانت فترة استقرار، والحضارة وقفت فيها على أرجلها الأربع كالفيل لذلك لم تكن الأشياء المستقبلية مهمة،

إنه من السهل عليك الموت إن عرفت أن الأشياء التي تهمك ستبقى حية بعدك، فأنت عشت حياتك وبدأت تحس وحدك أوان الموت. بهذه الرؤية نظر الناس إلى الحياة، حياتهم كأفراد انتهت لكن أسلوب حياتهم مستمر وخيرهم وشرهم سوف يظلان خيراً وشراً، لم يشعروا أن البساط قد سحب من تحت أقدامهم.

ازدادت إخفاقات أبي دون درايته لأنه ظل يعتقد أن التجارة تتضاءل والظروف صعبة فعجز عن دفع فواتيره، وأحمد الله أنه مات فجأة إذ أصيب بأمفلونزا حادة تحولت إلى ذات الرئة في بداية عام 1915، ولم يعرف أن تجارته قد دمرت ولم يذق طعم الإفلاس. ظل يعتقد حتى النهاية بأن التدبير الجيد والعمل الجاد والتعامل الشريف والعدل لا يمكن أن يقود إلى الفشل، وهذا انسحب على الكثير من الباعة حتى انتهوا ليس إلى الإفلاس وفراش الموت بل إلى الملاجئ، ولوفمروف لم يقدر أن يدرك أنه خارج العصر ومنقرض كوحيد القرن، وهو يحدق بالسيارات وعربات الشحن.

وأمي أيضاً لم تعش طويلاً لتعرف أن الحياة التي تربت عليها قد انتهت إلى الأبد، حياة ابنة البائع المحتشم وزوجته المحتشمة اللذين يخشيان الله في عهد الملكة الطيبة فيكتوريا.

لقد كانت الأوقات صعبة والتجارة في وضع سيئ، وأبي

كان على قلقه لكن الأمور تواصلت على نفس المنوال، إنه نظام الحياة الانكليزي الذي لم يتغير منذ الأزل بدءاً للواتي يخشين الله ويطبخن الحلوى والرواية والتفاح في الأفران الضخمة ويلبسن الثياب الداخلية الصوفية ويتمن على الريش ويصنعن مربى الخوخ في تموز (يوليو) والمخلل في تشرين (أكتوبر) ويقرأن هيلد هوم كومبانيون بعد الظهر والذباب يطن حولك والسيقان السبة والنهايات السعيدة؛ عالم عائلي صغير ودافئ. لن أقول إنَّ أبي وأمي ظلا كما هما حتى النهاية، لقد اصفرا قليلاً وأحبطا أحياناً لكنهما على الأقل لم يعيشا ليعرفا إن كل ما آمنا به كان مجرد تفاهات فارغة. عاشا في نهاية حقبة عندما كانت الأشياء تذوب لتتحول إلى سيل متدفق جارف دون درايتهما. ظنا أن الأشياء أبدية ولا يمكن لومهما لأنَّ الأمور بدت هكذا. بعدها جاءت نهاية تموز (يوليو) وحتى بينفيلد عرفت بأن أشياء كانت تحدث إشاعات غامضة ومقالات لا تنتهي في الصحف كان والدي يحضرها ليقرأها بصوت عالٍ لأمي، واستمرت أياماً، وفجأة كانت الملصقات الكبيرة في كل مكان وبأحرف كبيرة:

الإنذار الألماني النهائي..

فرنسا تحشد وتتهيأ للحرب.

لقد بقيا عدة أيام ربما أربعة، فقد نسيت التاريخ الدقيق.. كان يخنقنا شعور غريب وجو حار جداً. كـ في

المحل لكن دون أن نحصل على الرغم من أن كل من في الجوار اندفع لشراء المواد الغذائية المعلبة والطحين ودقيق الشوفان بالنقود التي معه كأننا مصابون بالحمى نعرق وننتظر فقط، وفي المساء يبعث الناس إلى محطة القطار فيتقاتلون بضراوة للحصول على صحف المساء التي تصل على متن قطار لندن. وفي عصر أحد الأيام جاء ولد إلى الشارع يعدو مسرعاً ويداه ممتلئتان بالجرائد والناس يصيحون في مدخل بيوتهم. لقد دخلنا.. لقد دخلنا.. التقط الولد ملصقاً من لزمة ولصقه على واجهة المحل المقابل

انكلترا تعلن الحرب على ألمانيا.

اندفعنا أنا والمعاونون الثلاثة إلى الخارج وهتف، وهتف الكل معنا، لكن العجوز هربيت الذي استعاد كثيراً من رعب الحرب لم يؤيدها، وظل متمسكاً ببعض مبادئه الليبرالية، وقال إنها ستكون حرباً خاسرة وبعد شهرين كنت في الجيش وفي فرنسا بعد سبعة شهور.

8

لم أصب حتى وقت متأخر من عام 1916 عندما خرجت من الخنادق وسرنا في طريق يفترض أنه لا يتعدى أمتاراً فقط لكن طوله كان ميلاً تقريباً. فجأة أطلق الألمان علينا مدفع قذائف من النوع الثقيل والشديد الانفجار بمعدل قذيفة في

الدقيقة، وكانوا قد حصلوا على مدى لرمي مسبق؛ ولقد اعتدنا على سماع (وز... وي... بوم) ثم تهبط على الحقل الذي على يميننا، وأعتقد أن الطلقة الثالثة هي التي أصابتني،عرفت أنها ستصيبني فور سماع صوتها، وكأنها تقول أنا وراءك أنت، سألحق بك، وبعد آخر أنت انفجرت طبعاً ذلك لم يستغرق ثلاث ثوان فشعرت أن يداً ضخمة من الهواء جرفتني معها وصحوت فوراً على شعور من التحطم لدي سببه الانفجار لأجد نفسي وسط علب قصدير قديمة وقطع من الخشب والنفايات والأسلاك الشائكة الصدئة وعبوات المتفجرات الفارغة. سحبوني وأزالوا الأوساخ عن جسمي ووجدوا أن إصابتي لم تكن بليغة إذ انغرست بعض الشظايا الخشبية في أحد طرفيّ وأسفل فخذي، ولحسن الحظ تكسر ضلعي عند سقوطي مما كان كافياً لإعادتي إلى إنكلترا فأمضيت ذلك الشتاء في مستشفى ميداني على المرتفعات القريبة من ايستبورن.

هل تتذكر تلك المستشفيات الميدانية في زمن الحرب؟ صفوف طويلة من الأكواخ كأكواخ دجاج المزرعة على قمم تلك المرتفعات الباردة الموحشة التي سميت بالشاطئ الجنوبي مما جعلني أسأل عن حال الشاطئ الشمالي حيث تهب الريح علينا من كل الاتجاهات دفعة واحدة، بينما قطعان من الفتيان يتجولون في مريلاتهم القطنية الزرقاء لعدة

والربطات الحمراء صعوداً ونزولاً بحثاً عن مكان يلجأون إليه من الريح دون جدوى. وأحياناً كان يزورنا الأولاد المتفوقون من مدارس ايستبورن ليقدموا للجرحى دهن المتاع والسجائر، يقودونهم في طوابير فترى ولداً بوجه قرمزي بعمر الثامنة يمشي نحو مجموعة من الرجال المصابين الجالسين على العشب فيمتح علبة سجائر ويناولهم بتقدير واحترام وكأنه يطعم قرداً في حديقة الحيوان. لقد كانوا يسموننا الجنود "تومي" لكن كل جريح من هؤلاء قادر أن يلف ويتجول أميالاً كثيرة بأمل الحصول على واحدة من الفتيات اللواتي كانت أعدادهن غير كافية، وفي أسفل المخيم أيكة صغيرة ترى فيها قبل الغروب زوجاً ملتصقاً بكل شجرة وإن كانت ملتفة فإنك ترى ثنائياً آخر في مقلبها الآخر.

الشيء الأساسي في ذاكرتي فيما يتعلق بذلك الزمن هو الجلوس بجانب شجرة الجولق والريح قارصة مجمدة لدرجة أنني لا أستطيع ثني أصابعي من شدة البرد، وطعم الصمغ الكريه؛ هذه هي ذاكرة جندي نموذجي وحياة الجنود لا شك متشابهة. قبل أن أصبت أرسل الضابط الآمر اسمي في مهمة لأنهم كانوا آنذاك بحاجة ماسة إلى الضباط، وكل من هو غير أمي تماماً يمكنه الحصول على أن ينتدب في مهمة إن أراد، ذهبت من المستشفى مباشرة إلى معسكر تدريب الضباط قرب كلوشستر. غريب ما تنسه وتفعله الحرب بالناس، فقبل

ثلاث سنوات كنت معاون بقال نشيطاً في منزري لا أبيض محنياً على طاولتي. وأنا أردد. نعم يا سيدتي.. بالتأكيد يا سيدتي.. الطلب التالي يا سيدي.. أي حياة بقال، وكانت فكرة أن أكون ضابطاً في الجيش مثل فكرة الحصول على مرتبة فارس، وها أنا أتبختر في قبعة وياقة صفراء مرفوع الرأس وسط جمع من السادة المؤمنين، وغير المؤمنين وهذا بيت القصيد حيث لا يُستغرب شيء في تلك الأيام، وكأنك في قبضة آلة ضخمة تسلبك حرية التصرف والإرادة وفي ذات الوقت تعدم لديك نية المقاومة، ولولا هذا الشعور الذي يتملك الناس فلن تدوم الحرب أكثر من ثلاثة أشهر وستحزم الجيوش أمتعتها وتعود إلى أوطانها.

لماذا تطوعت للالتحاق في الجيش؟ أو لماذا تطوع مليون معتوه إلى الجيش قبل تنفيذ التجنيد الإلزامي؟ بسبب اللهو والمتعة وبسبب بلادي انكلترا وأهلي البريطانيين، لكن أليس ذلك محض هراء، وإلى متى سيستمر؟ أغلب الشباب الذين عرفتهم نسوا كل هذا الكلام الفارغ قبل أن يصلوا إلى مرتبة، ولم يكن الرجال في الخنادق وطنيين ويكرهون القيصر، ولم يبالوا البتة ببلجيكا الشجاعة الصغيرة ولا بالألمان الذين اغتصبوا الراهبات على الطاولات في شوارع بروكسل ودائماً على الطاولات لكي يبدو الأمر فظيعاً. وعلى الرغم من هذا لم يخطر ببالي أن أفرّ وأنجو لأن الآلة تمسك

بك وتفعل بك ما تشاء، ترفعك إلى الأعلى أو ترميك إلى الأسفل، أو تضعك في أماكن لم تحلم بها، وليس غريباً إذ رمتك على سطح القمر.

انتهت حياتي القديمة فور انضمامي إلى صفوف الجيش ولم تعد تعني لي شيئاً، وإن صدقتني أم لا فإنني لم أرجع إلى بينفيلد سوى مرة واحدة فقط لحضور جنازة أمي. يبدو أن هذا لا يصدق لكنه كان طبيعياً حينها، وأعترف أن السبب يعود إلى إلسي التي توقفت عن مراسلتي بعد شهرين أو ثلاثة لأنها أقامت علاقة مع شخص آخر، ولم أعد راغباً في لقائها بالتأكيد، وإلا لحصلت على إجازة مثلما فعلت عندما ذهبت لزيارة أمي التي انتابتها نوبات إثر انضمامي إلى الجيش، لكنها فرحت بزيي العسكري. مات أبي في عام 1915 عندما كنت في فرنسا، ولن أبالغ إن قلت إنّ موته يؤلمني الآن أكثر مما آلمني في حينه، فقد كان نبأ سيئاً تلقيته دون اهتمام ولامبالاة، وبشكل غبي مثل أي شخص في الخنادق، وأتذكر كيف زحفت في الخندق نحو الضوء لأقرأ الرسالة، وشعرت بألم في ركبتي، وبرائحة الوحل ودمع أمي المتألمة الذي ترك بقعاً على الرسالة. إنّ تأمين حياة أبي المرهون قد فقد قيمته، وكان هناك مبلغ صغير في البنك إذ سيشتري ساريس المحروق وسيدفع مبلغاً صغيراً مقابل استخدامه لمؤسسة تجارية وهذا ما سيوفر لأمي أكثر من مائتي جنيه، بالإضافة

إلى الأثاث. فاستأجرت مؤقتاً مع ابنة عمها، وهي زوجة مالك صغير استعاد من الحرب وحقق نجاحاً. كنت تسكن قرب دوكسي على بعد أميال قليلة من والتون، وكان الإحساس بأن كل شيء هو مؤقت، وما حدث يعتبر طبيعياً، أما لو كان ذلك في الماضي أو حتى منذ سنة فسيبدو الأمر كارثة مرعبة، وسيكون مثل مشاهدة مأساة مؤلفة من خمسة عشر فصلاً. لقد بيع المحل بعد موت أبي، وأصبح لدى والدتي مائتا جنيه. إن الشعور بعدم امتلاك الشخص لمنه قد طغى على كل شيء، ولم يعد الناس يفكرون بأشياء مثل الإفلاس أو الملاجئ. هذا الوضع انطبق على أمي التي ليس لديها سوى أفكار غامضة جداً عن الحرب، فجاءت لزيارتي في المستشفى في ايستبورن مرة منذ أكثر من سنتين، وأصبت بصدمة حين رأيت مظهرها كونها بدت ذابلة ومتقلصة. لكن ربما لأنني كبرت وسافرت بدا لي كل شيء صغيراً، ولكن من دون شك إنها هزلت كثيراً وشحبت أكثر، تكلمت بطريقتها القديمة عن العمة مارثا ابنة عمها التي تقيم معها، والتغييرات التي حدثت في بينفيلد منذ الحرب، والأولاد الذين انضموا إلى الجيش، وسوء الهضم المتفاقم عندها، وشاهدة قبر أبي وجسده المسجى الجميل، والحديث الذي سمعته منذ سنتين ومع هذا كانت مثل شبح ناطق. من جهتي لم أكن أكترث لأنني عرفت فيها كائناً عظيماً ورائعاً وحصناً

كربان سفينة، ومثل دجاجة تحضن أفراخها، أما الآن فهي ليست سوى عجوز هزيلة في رداء أسود. لقد تبدل كل شيء وتلاشى، وهذه هي آخر مرة رأيتها فيها على قيد الحياة، ثم وصلتني برقية تقول إنها مريضة جداً وذلك عندما كنت في مدرسة التدريب في كلوشستر فأخذت إجازة طارئة لكن الأوان قد فات وماتت قبل أن أصل إلى دوكسي. كان ما تخيلته هي والآخرون على أنه عسر هضم ليس سوى ورم، فأصيبت برشح معاجين أدى إلى وضع حدٍّ لحياتها، وحاول الطبيب التخفيف عني بأنّ الورم كان حميداً ولقد أدهشتني تلك التسمية الغريبة.

دفناها بجانب قبر أبي، وكانت تلك آخر نظرة لي إلى بيمبلد التي تبدلت خلال السنوات الثلاث الأخيرة حيث أغلقت بعض المتاجر وعلّقت على واجهات بعضها الآخر أسماء مختلفة، ورحل الرجال الذين عرفتهم تقريباً منذ إن كانوا أولاداً، ومات قسم منهم، فسيد لوفمروف قتل في سومي وغيجو واتسون صبي المزرعة وأحد أفراد عصابة الكف الأسود مات في مصر، وأحد الشباب الذين عملوا معي في محل غريميت فقد ساقيه والعجوز لوفمروف أغلق محله وسكن في كوخ قرب والتون معتمداً على تأمين الحياة القليل جداً. أما العجوز غريميت فقد حقق نجاحاً تجارياً في الحرب، وتحول إلى وطني وأصبح عضواً في الهيئة المحلية

التي حاكمت معارضي الحرب، وأكثر ما أضيف إلى منظر المدينة الفارغة والمهجورة أهمية هو اختفاء الخيول، إذ صودرت كل الأحصنة الجيدة منذ زمن طويل ولم يبق سوى عربة المحطة، لكن البهيمة التي تجرها لم تعد تستطيع الوقوف لولا وجود العريش. تجولت خلال الساعة التي أمضيتها في بينفيلد أحيي الناس وأنا بالزي العسكري ولم أشاهد ويلسي لكني رأيت كل التبدلات وكأني لم أرها لأن عقلي كان مشغولاً بأشياء أخرى وخصوصاً مظهري العسكري ورتبة الملازم الثاني والزرار الأسود الذي بدا جميلاً على اللون الكاكي وسروالي القصير الجديد ذو القماش المضلع وقعت على طرف القبر ثم رموا بعض التراب على الكفن، وأدركت ما يعنيه موت الأم وهي مسجاة وفوقها سبعة أقدام من التراب فشعرت برعشة في عيوني وأنفي لكن حتى لحظة ذلك لم يخرج السروال القصير من بالي.

لا تظن أو تعتقد أنني لم أتأثر وأحزن على وفاة أمي بل على العكس حزنت لأنني لم أكن في الخنادق وإني أشعر بالأسى الذي يسببه الموت، لكن ما لم أفهمه أو أهتم به هو أن الحياة القديمة التي ألفتها قد رحلت أيضاً. أرادت العمة مارثا المغرورة مثل أختها الضابط أن تلتف الأنظار لو أنني سمحت لها ورجعت إلى دوكسلي في الحال، أما أنا فاستقلت العربة إلى محطة القطار لأذهب إلى لندن ومنها إلى

كلوشستر. كذلك مررت بالدكان الذي لم يشغله أحد منذ وفاة أبي، لقد كان مغلقاً وواجهته مسودة بالغبار وبعضه محروقة، كما رأيت البيت الذي ولدت وترعرعت فيه إلى أن أصبحت رجلاً صغيراً، فقد زحفت بأرض مطبخه وشممت رائحة السفون وقرأت دوموهان الذي لا يقهر وكتبت واجباتي المدرسية وخلطت عجينة الصيد، وفيه عملت على إصلاح ثقوب إطار الدراجة وفيه أيضاً لبست أول ياقة عريضة. أشياء نحن في أبديتها كأنها مثل أهرامات مصر أو لأن فيهي مجرد أشياء عابرة إن وطئتها قدمي. أبي وأمي وجو ولعبية والكلب العجوز تيلر والطائر جاكي والقطتان والكلب سبوت الذي خلف تيلر والفئران التي في العلية كلها راحت ولم يبق سوى التراب، ولم أعد أهتم بها قط. طبعاً أسفت على موت أمي وموت أبي أيضاً، ولكن بالي كان مشغولاً دائماً بأشياء أخرى، فكنت فخوراً بأن يراني الناس بالسيارة وهو شيء لم أعتد عليه بعد، وحذاء عسكري خاص بالضباط ناعم وجميل وهو يختلف عما يلبسه الجنود ومن ثياب الآخرين في كلوشستر والستين جنيهاً التي تركتها لي أمي وشكرت الله لأنني لم أر إيلسي.

لقد عملت الحرب العجائب في الناس والأغرب من ذلك طريقة قتلها لهم أو عدم قتلهم أحياناً. فكانت مثل طوفان كبير يجرفك معه إلى حتفك، وفجأة تقذفك موجة

مرتبة لتجد نفسك حياً وتقوم بأشياء لا تصدق وبلا معنى، وتأخذ مقابل ذلك أجراً زائداً. كانت هناك كتائب من العمال الذين يشقون طرقاً لا تؤدي إلى أي مكان في الصحراء، وهناك رجال آخرون ألقي بهم في جزر قصية في المحيط الهادي ليحذروا من السفن الحربية الألمانية التي غرقت قبل سنوات من ذلك، وكانت هناك وزارات لهذا وذاك مع جيوش من الموظفين والكتبة استمرت في الوجود سنوات عديدة بعد انتهاء وظيفتها، ونوع من البطالة المتعمدة كان الناس يقحمون في أعمال ووظائف لا معنى لها، فنسي السلطات أمرهم سنوات طويلة، وهذا ما حدث معي، ولولاه لما كنت هنا. لكن تسلسل الأحداث ممتع إلى حد ما.

بعد فترة قليلة من نشر اسمي كانت هناك دعوة للضباط من إدارة المحاسبة. وفور سماع الضابط الآمر في المعسكر بأنني أعرف شيئاً عن أمور التجارة والمحاسبة علماً أنني لم أصرح عن عملي وراء طاولة بيع سابقاً أرسل اسمي وسارت الأمور كما يجب، وكنت على وشك المغادرة إلى مدرسة تدريب المحاسبة في ميدلاند.

هناك طلب على كل الضباط الصغار الملمين بمهنة المحاسبة للعمل شبه سكرتير في مكتب السير جوزيف شيم الذي كان من الأسماء الكبيرة في الإدارة، ويعلم الله وحده لماذا اختاروني. لقد اعتقدت أن الأمر قد اختلط عليهم وظنوا

أنني شخص آخر، وبعد أيام ثلاثة كنت أحيي السير جوزيف في مكتبه كان جبيراً كبيراً ذا قامة منتصبة وشعر مخطط بالشيب وقور الطلعة له تأثير مباشر، ويبدو عسكرياً محترفاً وضابطاً متميزاً ممن استحقوا وسام الخدمة المميزة أو من فرسان القديس جورج، وكأنه الأخ التوأم للرجل الذي ظهر في إعلان ديريسكي. أما في حياته العامة فكان مدير أحد المحلات المتسلسلة المشهورة في كل العالم وبظامها المدعو شيم لتقليص الأجور، توقف عن الكتابة عندما دخلت وفحصني من رأسي حتى أخمص قدمي.

- هل أنت من طبقة النبلاء؟

- كلا

- حسناً، إذاً ربما نجد لك عملاً.

وفي غضون ثلاث دقائق استدرجني وعرف أنه لا خبرة لي في السكرتارية ولا أعرف الاختزال ولا أستطيع الطباعة، وإنني عملت في بقالية بثمانية وعشرين شلناً في الأسبوع، لكنه قال لي ستعمل لأنه يوجد الكثير من النبلاء في هذا الجيش اللعين ولكنه يبحث عن شخص يستطيع العد إلى العشرة أحببته وتشوقت للعمل عنده لكن القوى الغامضة التي تحرك الحرب فرقتنا ثانية هناك شيء أسموه قوة الدفاع عن الساحل الغربي كانت تتشكل أو لديهم النية تشكيلها، وهناك فكرة مبهمة عن تأسيس مستودعات تموين ومخازن أخرى في

نقاط مختلفة على طول الشاطئ، ومن المفترض أن يكون السير جوزيف المسؤول عن تلك المستودعات هي لروية الجوية الغربية من انكلترا. ففي اليوم التالي بعثني لأفتش المخازن الموجودة في مكان يدعى مستودع الميل لثاني عشر في كورنيش الساحل الشمالي أو ربما كانت مهمتي أن اكتشف إن كانت المستودعات موجودة أم لا لأنهم لم يكونوا متأكدين من ذلك. وصلت إلى هناك وكانت المستودعات تتألف من إحدى عشرة علبة من لحم البقر فقط، ووصلت برقية من وزارة الحرب تكلفني بمسؤولية مخازن الميل لثاني عشر وأن أبقى فيها حتى إشعار آخر، وأبرقت بالرد أنه لا توجد مخازن، ولكن فات الأوان فقد وصل كتاب رسمي في اليوم التالي بتعييني الضابط الآمر لمستودعات الميل لثاني عشر وتلك هي نهاية القصة وبقيت هناك إلى نهاية الحرب.

لا أعرف ولا فائدة من سؤالي عن ماهية قوة الدفاع عن الساحل الغربي، وما هو عملها. ويبدو أنه لم يكن هناك أحد على معرفة بما يحدث. إنها خطرت ببال أحد الأشخاص بسبب إشاعة غامضة عن غزو ألماني عبر ايرلندا، كما أعتقد أيضاً أن فكرة المستودعات التموينية التي كان من المفترض أن تكون على طول الشاطئ أيضاً وهمية، وكل الأمر دام ثلاثة أيام مثل الفقاعة، وبعدها نسيت الفكرة ونسيت أنا معها أيضاً إحدى عشرة علبة من لحم البقر تركت خلف بعض

الضباط الذين كانوا في مهمة عربية والذين تركوا ورءهم مجوراً أطرش يدعى ليجرد. أما مهمة المجور الموكولة إليه فلم أعرفها وإن كنت تصدق فإني بقيت في حراسة لعلب تلك من منتصف عام 1917 إلى بداية عام 1919 قد لا تصدق لكن هذه هي الحقيقة ولكوسا في ذلك لرس فلا يوجد شيء غريب، قبل عام 1918 بطلت عادة توقع الأشياء المعقولة.

كانوا يرسلون إليّ كل شهر استمارة رسمية يطلب مني فيها توضيح عدد رحلة المعاول وأدوات حفر الخنادق ولفات الأسلاك الشائكة والبطانيات والأرضيات العازلة للماء ومعدات الإسعاف الأولي وصفائح الحديد المموج وعلب العرس التي في عهدتي. أدخلت صفراً أمام كل بند في الاستمارة وأعدتها لكن لم يحدث شيء. ويبدو أن الشخص الموجود في لندن كان يصنف الاستمارات ويرسل استمارات جديدة أخرى. وهكذا كانت تحدث الأمور. الضباط الكبار الذين كانوا يديرون الحرب نسوا وجودي. ولم أرد بتذكرتهم كما أنني كنت في مكان معزول ولا يؤدي إلى أي مكان آخر، وبعد انقضاء سنتين في فرنسا لم اشتغل بالوطنية بل ما رغبت به هو الخروج منها.

كان جزءاً معزولاً من الشاطئ لا يمكن أن ترى فيه أي روح سوى بعض الفلاحين الذين لم يسمعوا بالحرب

المشتعلة، وعلى بعد ربع ميل، وعند أسفل التل يهدر البحر وتضرب الأمواج السهول الرملية الممتدة ويدوم هطول الأمطار تسعة شهور، وفي الثلاثة أشهر الأخرى تهب ريح عاتية من المحيط الأطلنطي، وليس هناك أحد سوى والمجور بريعيت ليجرد بالإضافة إلى كوخين عسكريين لأول مقبول ويتألف من غرفتين سكنت مع العلب الإحدى عشرة؛ كان ليجرد عمرياً عتيداً ولم أعرف عنه سوى انه كان بستانياً قبل انضمامه إلى الجيش، لذلك فإنّ من الممتع أن ترى كيف يحول الإنسان إلى نموذج بسرعة. قبل أن أصل إلى مستودع الميل الثاني عشر، كانت هناك بقعة حول أحد الكوخين التي بدأ ليجرد بشتل البطاطا فيها، وفي الخريف حرث بقعة أخرى حتى صار عنده حوالي نصف فدان صالحاً للزراعة، وفي بداية عام 1918 صار مربي الدجاج الذي أصبحت أعداده جيدة. وفي نهاية الصيف وقبل بداية السنة أنتج خنزيراً، ويعلم الله من أين، ولا أعتقد انه سأل نفسه منذ متى نعمل هناك، وللآن يربي الخنازير ويزرع البطاطا في البقعة التي كان يقوم عليها مستودع الميل الثاني عشر، وإني أتمنى له التوفيق والحظ الجيد.

وبعد فترة صرت أزاول عملاً لم تسنح لي الفرصة سابقاً للتفرغ له هو القراءة. لقد ترك من كان قبلي من الضباط بعض الكتب وأكثرها كان من الطبعات الرخيصة ذات السمعة السيئة

ومن النوع التافه التي كان يقرأها الناس آنذاك مثل بيدن وسابر وكريبع كيندي وغيرها، لكن كان واحد منهم يعرف الكتب التي تستحق القراءة، وأنا شخصياً لم أكن أعرف أي شيء في هذا الخصوص سابقاً، فالكتب الوحيدة التي قرأتها هي القصص البوليسية بالإضافة إلى كتاب جيني ميتلل، وأنا لا أصنف نفسي من المثقفين، لكن لو سألتني عن كتاب جيد حينها لأجبتك الجيد هو الذي لا يملك الشخص الوقت لقراءته، وبما أنني كنت في ذلك المكان المهجور، ولا يوجد ما أقوم به والبحر يهدر على الشاطئ والمطر الغزير يسيل على زجاج النافذة وهناك صف كامل من الكتب يحدق بوجهي على الرف المؤقت الذي وضعه أحدهم على حائط الكوخ، لهذا من الطبيعي أن أقرأها من الجلد إلى الجلد؛ ولقد قمت بمحاولات كثيرة للتمييز بينها لكنني كنت في البداية مثل خنزير يشق طريقه عبر برميل من الزبالة. كان بينها ثلاثة أو أربعة كتب تختلف عن البقية. لا تخطئ الفهم وتذهب بفكرك بعيداً وتتصور أنني اكتشفت فجأة مارسيل بروست أو هنري جيمس، فأنا لن أقرأ كتبهم حتى لو كانت عندي. إن الكتب التي أتكلم عنها ليست كتب مثقفين، لكن بين آن وآخر كان الحظ يحالفني بالحصول على كتاب يناسب مستواي العقلي الذي بلغته آنذاك، وكان أحدها كتاب ل هـ. ج. ويلز (تاريخ العالم الموجز)، وكانت طبعته من النوع

الرخيص كتلك ورقة المقطع لكن تأثيره فيّ كان كبيراً. هناك
بتريتي الريفية وأصابني ذلك الكتاب! كتاب آخر لـ كومبتون
ماكينزي بعنوان (مخطط الشارع) الذي كان فضيحة الموسم
قبل بضع سنين، وكنت قد سمعت إشاعات غامضة عنه في
بنفيلد، وآخر لكونراد بعنوان (النصر)، ولقد أضجرتني بعض
أقسامه لكنه أجبرني على التفكير كمؤلفه، بالإضافة إلى أعداد
قديمة من مجلات ذات أغلفة زرقاء تنشر فيها قصص د. هـ.
لورانس التي لا أتذكر اسمها لكنها كانت عن مجند ألماني
يدفع رئيسه الرقيب الألماني من حافة قلعة ثم يهرب سراً لكن
يتم القبض عليه في غرفة نوم حبيبته، ولقد حيرتني كثيراً،
ولم أدرك المغزى، وتركتني في إحساس غامض وحب لقراءة
القصص المشابهة. استمرت شهيتي للكتب عدة شهور، وكانت
كالعطش، ولقد مثّلت المدخل الحقيقي لي إلى عالم المعرفة.
منذ أيام دونوفان لم يكن لدي أي فكرة عن كيفية الحصول
على الكتب، واعتقدت أن الطريقة الوحيدة هي شراؤها وهذا
يبين الخلاف الذي تحدثت عنه في التربية لأنني أعتقد أن
أبناء الطبقة الوسطى ذوي مدخول الخمسين جنيهاً في الأسبوع
يعرفون كل شيء عن كتب نادي التايمز ومودي منذ كانوا
في مهودهم. كذلك عرفت بعد وقت بوجود مكتبات الإعارة
فاشتركت في مودي ومكتبة أخرى في بريستول، وقرأت في
السنة التالية لويلز وكونراد وكبلنغ وغالسوورثي وباري بر

وو جاكوبز ويت ريدج واليمر اوبيون وكومبتون ما كيري وهـ ميتون ميريمان وموريس بارليـج وستيفن ماكيا ومدي سنكلير وارنولد بينيت وانثوني هوب وابليـور غلين وو.هنري وستيفن كيوك وسيلاس هوكينغ وجين ستراسون بورتر ولا اعرف كم اسماً لدي في القائمة. إن نصف الكتب التي اعتبرها الناس في تلك الأيام مهمة هي منسية الآن. في البداية كنت أبلعها كتمساح وقع على قطيع من جراد البحر، لكن بعد قليل أصبحت مثقفاً أكثر واستطعت أن أميّز بين الجيد والتافه، وقرأت (أبناء وعشاق) للورانس وتمتعت بها قليلاً واستمتعت جداً بـ (دوريان غري) لاوسكار وايلد و(الليالي العربية الجديدة) لستيفنسن. كان لويلز أكبر الأثر عليّ، وقرأت (ميا ايستر) لجورج مور وحاولت مرات كثيرة مع روايات هاردي لكني كنت أعلق في وسطها دائماً وحاولت أيضاً مع إبسن الذي تركني في انطباع المطر الدائم الهطول في النرويج. كنت ملازماً ثانياً ولم يبقَ للهجتي المحلية أي أثر، وصرت أميز بين ارنولد بينيت ويليور غلين. وقبل أربع سنوات كنت اقطع الجبن في شرائح وراء الطاولة في مئزر أبيض، وأطمح أن أصبح معلم بقالة، وبالإجمال أعتقد أنه عليّ الاعتراف بأن الحرب أفادتني مثلما أضرّتني. على أي حال كانت قراءة الروايات في تلك السنة هي التعليم الحقيقي الذي حصلته. لقد فعلت الكتب فعلها الكبير في عقلي وصار لي موقف ورأي استفهامي لم أكن أحصل عليه لو تمت حياتي بالطريقة

العادية الحية، وتسأل إن كنت قد أدركت «الشيء» الذي غيرني حقيقة وأثر علي فعلياً. لم تكن الكتب التي قرأتها بقدر ما كانت الحياة التافهة المتعفنة التي كنت أحياها. لقد كنت بلا معنى، وفي عام 1918 كنت أجلس بجانب «الموقد في كوخ عسكري اقرأ الروايات وعلى بعد بضع مئات من الأميال من فرنسا حيث كانت المدافع تهدر وقطعان من الأولاد البائسين يبللون سراويلهم من الخوف ويساقون إلى وابل من نيران البنادق الآلية مثلما ترمي فحمة صغيرة في أتون فرن كبير. كنت واحداً من المحظوظين. لقد غبت عن أعين الضباط الكبار وها أنا هنا في حفرة قليلة دافئة أقبض راتب مقابل وظيفة غير موجودة. ويصيبني الذعر أحياناً لخوفي من أن يتذكروني ويجدوني لكن ذلك لم يحدث قط، وظلت الاستمارات الرسمية الرمادية تأتي كل شهر أملاها وأعيدها إليهم، ثم يرسلون استمارات جديدة أخرى أعيدها بعد ملئها، وهكذا وكان لهذا سحر كبير مثل حلم المجانين إذ إنّ أثره وأثر الكتب التي قرأتها نزعا مني الإيمان بأي شيء.

لم أكن الشخص الوحيد على هذه الحال، وكانت الحرب مليئة بالنهايات الضعاضعة والكثير من الزوايا المنسية، وفي هذا الوقت كان ملايين الناس محصورين في مناطق مهجورة بشكل أو بآخر، جيوش كاملة كانت تتقهقر على جبهات الحرب التي نسي الناس أسماءها لقد كانت وزارة الحرب وزارة ضخمة مجوش من الموظفين والكتبة الذين

يكونون جيدين أو أكثر في الأسبوع ويكومون تلالاً من الورق مع أنهم يعرفون تماماً، وبشكل جيد، أن ما يقومون به مجرد تكديس للأوراق ولم يعد أحد يصدق تلك القصص الوحشية والهراء عن بلجيكا الصغيرة الشجاعة؛ وأعتقد بأن الألمان رفاق طيبون كرهوا الفرنسيين كالسم، وكان الضباط الصغار يعتبرون هيئة الأركان العامة عبارة عن مجموعة من المتخلفين عقلياً. اجتاحت إنكلترا موجة من عدم الإيمان ووصلت إلى مستودع الميل الثاني عشر، ومن المبالغة القول إن الحرب قد حوّلت الناس إلى متهكمين لكنها حولتهم إلى عدميين في الوقت الراهن. الناس الذين كانوا سيؤدون أدوارهم في حياتهم بطريقة طبيعية وميلون للظن بأنهم مثل طعم الحلويات الدسمة قد تحولوا إلى شيوعيين متطرفين. لو لم تكن الحرب فماذا كنت أعمل؟ لا أعرف ولكن كنت سأكون شيئاً مختلفاً مما أنا عليه الآن، وإن لم تقتلك الحرب فإنها ستجعلك تفكر، وبعد كل تلك الفوضى المجنونة التي تفوق الوصف لا يمكنك الاستمرار بالإيمان بأبدية المجتمع التي لا تقبل الجدل كالأهرامات.

9

رمتني الحرب خارج الحياة التي ألفتها لكن الفترة الغريبة التي تلتها أنستني الحرب تماماً. من المؤكد أنّ الإنسان لا

بني شيئاً إطلاقاً، وأنك تتذكر قشرة البرتقال التي رأيتها في البالوعة منذ ثلاث عشرة سنة والملصق الملون لتوركي الذي رأيته في المحطة، لكني أتكلم عن نوع آخر من الذاكرة، أي أنني أتذكر الحياة القديمة في بيفيلد ومنارة المعبد ورائحة السمون وأمي الواقفة خلف إبريق الشاي والطائر جاكي ومشرب ومعلف الخيل في السوق، تلك الأشياء التي لم تعد حية في عقلي وبعيدة جداً، لقد انتهيت منها ولم يخطر في بالي يوم العودة إليها.

تلك السنوات التي تلت الحرب مباشرة كانت أكثر غرابة من الحرب نفسها، لكن الناس لا يتذكرونها جيداً. لقد أصبح عدم الإيمان بأي شيء أقوى من قبل، فقد سرح ملايين الناس من الجيش واكتشفوا بأن الوطن الذي قاتلوا من أجله لا يريدهم وأن لويد جورج وشلته كانوا يملؤون الأوهام العمالة لخدمة مخططاتهم. حشود غفيرة من العسكريين المسرحين يتجولون في الشوارع ذهاباً وإياباً يحدقون بصناديق جمع المال، والنساء المقنعات يغنين في الشوارع ورجال في سترات رسمية يعزفون على آلات الأرغن اليدوية. الناس كلهم في انكلترا كانوا يتدافعون للحصول على الوظائف وأنا أحدهم لكني كنت محظوظاً أكثر من غالبيتهم لأني حصلت على منحة جرح صغير بالإضافة إلى النقود القليلة التي كنت ادخرتها في السنة الأخيرة من الحرب بعدم وجود المجال

لصرفها، لهذا خرجت من الجيش بمبلغ لا يقل عن ثلاثمئة وخمسين جنيهاً، وذلك شيء ممتع! ومن المؤكد أنك لاحظت ردة فعلي وها أنا ها ومعي مبلغ كافٍ لأقوم بالشيء الذي تربيت من أجله وحلمت به سنوات طويلة، أي أن أفتح محلي الخاص، فلدي مال وفير وإن انتظرت الفرصة المناسبة وكنت متيقظاً سأتمكن من إيجاد عمل تجاري صغير ومناسب بثلاثمائة وخمسين جنيهاً في عام 1925. لقد فكرت بذلك فعلاً، لكن يبدو أنني تجاوزت عالم البيع والشراء وذلك بسبب الجيش الذي حولنا إلى سادة مرفهين، وجعلنا نعتقد اعتقاداً ثابتاً بوجود مبلغ قليل من المال يأتي من مكان ما دائماً. ولو أنك اقترحت عليّ في عام 1919 أن أفتح محل تبغ أو حلويات أو مخزناً عاماً لسررت كثيراً ورضيت لبدور على أكتافي ولارتفع مستواي الاجتماعي لأسي في ذلك الوقت لم أكن أعيش في الوهم السائد وسط الضباط المسرحين ولا أتخيل أن أمضي حياتي في تداول مشروب الجنّ الوردي

أدركت ضرورة الحصول على وظيفة، وطبيعي أن تكون في التجارة لكن دون أن أعرف نوع العمل بالضبط، أي عمل بمنصب رفيع وهام مع سيارة وهاتف وإن أمكن مع سكرتيرة وسمر دائم. في غضون السنة الأخيرة من الحرب سيطرت الأوهام على عائلتنا، فالشاب الذي عمل بائعاً متجولاً حلم

نعه مندوب مبيعات، والمندوب بدوره حلم أن يكون مديراً كبيراً. إنه تأثير حياة الجيش ولبس الإشارات ودفاتر الشيكات وتسمية وجبة المغرب بالوجبة الرئيسية. هذا لم يصب سوى الضباط الصغار فقط، وطوال تلك الفترة كانت تطوف في بالي فكرة أننا عندما نخرج من الجيش ستكون الوظائف بانتظارنا، وستدر علينا مرتبات لا تقل عما يدفعه الجيش لك. ومن المؤكد أنه لو لم تروج هذه الأفكار فلن يكون هناك قتال في أي حرب. حسناً إنني لم أحصل على تلك الوظيفة، وليس هناك من هو متلهف ليدفع لي ألفي جنيه في السنة مقابل الجلوس في مكتب مؤثث لإملاء الرسائل على سكرتيرة شقراء بلاتينية. لكني اكتشفت أن ثلاثة أرباع الرجال الذين كانوا في الجيش يعلمون على الصعيد المالي بأن الوضع في الجيش أفضل بكثير مما سيكون عليه بعده؛ وتحولوا فجأة من سادة تحمل تكليف جلالة الملكة إلى موظفين بؤساء عاطلين عن العمل. انحطت أفكاري من ألفي جنيه في السنة إلى ثلاثة أو أربعة جنيهات في الأسبوع لكن حتى وظائف الثلاثة جنيهات بدت غير متوافرة إذ كل الوظائف شغلت مسبقاً إما من قبل الأشخاص الأكبر بما ينيف سنوات أو ممن هم أصغر منا ببضعة شهور، أما أولاد الزنا المساكين الذين ولدوا ما بين 1890 و1900 فقد تركوا في العراء، ورغم كل ذلك لم يخطر ببالي أن أعود إلى مهنة التجارة حيث من

المحتمل أن أجد عمل معاون عتال للعجوز غريمبث إن كان لا يزال حياً ويعمل بالتجارة، وقد يزكيني، إذ لم أكن على تواصل مع بيغبلد لكي دخلت في مدار مختلف؛ وحتى لو لم ترتفع أفكاري الاجتماعية من الصعب التخيل بعد أن رأيت وتعلمت العودة إلى الحياة القديمة الآمنة، والوقوف وراء طاولة البيع. أريد أن أظل في سفر كبائع متجول لأنه يناسبني.

لا توجد وظائف بمرتب للباعة المتجولين، وإنما توفرت وظائف يكون راتبها على أساس العمولة. ولقد كان هذا بداية النصب، فهي طريقة بسيطة جداً لزيادة مبيعاتك والإعلان عن بضاعتك دون مخاطر. هذه العملية في الأوقات الصعبة كونهم يبقونك على أعصابك بالتلميح إلى إمكانية توفر الوظائف التي بمرتب في الأشهر الثلاثة التالية، وعندها تضجر من الانتظار ويحل مكانك فقير بائس آخر ولم يمر وقت طويل قبل أن أحصل على وظيفة راتبها على أساس العمولة، وأحمد الله أنني لم انحدر إلى فئة الكناسين الجوالين أو الأسوأ. كنت أسافر حاملاً السكاكين والملاعق والشوك ومسحوق الصابون والقناني والعلب الأخرى والأدوات المكتبية وورق النسخ وأشرطة الطابعات ومشابك الورق وغيرها ولم أفشل أبداً، فأنا من النوع الذي يستطيع بيع الأشياء بعمولة، ولدي المقدرة والأسلوب، ولم أقترب

من المكتب الكبير أبداً لأنّ هذا يستحيل في هذا النوع من الأعمال.

عملت في هذا المجال سنة كانت غريبة من الرحلات العابرة للبلاد الى الأماكن السيئة التي نتوقف فيها في الضواحي ووسط المناطق، أماكن لن تسمع بها لو عشت مئة عام، وتلك البيوت التي تقدم المنامة والطعام بملاءاتها القذرة ورائحتها السيئة والبيض المقلي في وجبة الإفطار الذي يشبه صفاره الشاحب الليمون، وأعداد من الباعة البؤساء نلتقي بهم باستمرار. إنهم أرباب عائلات بمعاطفهم الرثة وقبعاتهم المدورة في أواسط أعمارهم يصدقون بأن التجارة ستنتعش وستصل أرباحهم إلى خمسة جنيهات في الأسبوع، هناك هو المشي المتعب من دكان إلى آخر، والمساومات مع الباعة الذين يرفضون سماعك وإهانة النفس عندما يدخل زبون وتنسحب إلى الخلف ولا تظنّ أن هذا قد أزعجني، بعض الناس ينظر إلى هذا النوع من الحياة على أنه عذاب، كما يوجد البعض الآخر ممن لا يستطيع دخول المحلات وفتح الحقائب التي تحوي النماذج التي يروجونها دون التعبير عن امتعاضهم وكأنهم يصعدون قمة جبل. أما أنا فلست كذلك، بل كنت صلباً وأستطيع التحدث إلى الناس ليشتروا حاجات لا يريدونها، ولا أنزعج إن صفقوا الباب في وجهي. إن بيع الأشياء بعمولة عمل أحبه شرط أن أحصل على ربح

منه، ولا أدري إن كنت تعلمت شيئاً في تلك السنة من العمل. فلقد تغلبت على هراء الجيش في داخلي ونزحت الأفكار التي التقطتها خلال فترة سنة والتي قضيتها في قراءة الروايات إلى مؤخرة رأسي، ولم أقرأ أي كتاب أو حتى رواية بوليسية خلال فترة العمل كلها لأنني كنت دائماً على الطرقات. كذلك لم أعد مثقفاً وإنما كنت في القاع وسط حقائق الحياة المعاصرة. لكن ما هي تلك الحقائق؟ حسناً إن الحقيقة الرئيسية هي الصراع المجنون والأولي لبيع لا شيء، ومع بعض من الناس تأخذ الأمور شكل بيع الناس لأنفسهم وهذا يعني الحصول على وظيفة والمحافظة عليها. أعتقد أنه لم يمر شهر واحد على نهاية الحرب إلا وكان هناك رجال أكثر بكثير من الوظائف المتاحة في أي مهنة كانت، مما نشب شعور مخيف من الحياة، مثل وجودك على متن قارب غارق مع سبعة عشر رجلاً وأربعة عشر طوق نجاة فقط، لكن ما هو العصري في هذا؟ وهل له علاقة بالحرب؟ يبدو أنه كذلك. إنه الشعور بأنك في قتال وتدافع أبدي، ولن تحصل على أي شيء إلا إذا انتزعته من شخص آخر، فهناك من يطلب وظيفتك دائماً وفي الشهر التالي أو الذي بعده سيقلصون الملاك وتطرد من عملك. أحلف جازماً أن هذا لم يكن موجوداً قبل الحرب.

مرت فترة بعد الحرب دون أن أقلق تماماً، فقد كنت

أربح القليل وما زال عندي بعض النقود في البنك التي تساوي حوالي مائتي جنيه، ولم أكن خائفاً من المستقبل لأني كنت متيقناً بأني سأحصل على وظيفة دائمة عاجلاً أم آجلاً، ولقد حدث ذلك بعد سنة وبضربة حظ. في الحقيقة أنا من النوع الذي يتدبر أمره في كل الظروف، ولست من النوع الذي يموت من الجوع ولو في أصعب الأوضاع، واحتمال أن ينتهي بي المطاف إلى الملجأ مثل احتمال وصولي إلى مجلس اللوردات، فأنا من النوع الوسط الذي سيجذب إلى مستوى الخمسة جنيهات كل أسبوع بشكل طبيعي وطالما هناك وظائف سوف أحوز لنفسي واحدة.

حدث ذلك بينما كنت أتجول لترويج حافظات الورق وأشرطة الطابعات فدخلت إلى بناية تضم مكاتب في شارع فليت، بناية لم يسمحوا بدخول الباعة الجوالين إليها لكنني أقنعت صاحب المصعد أن حقيبة النماذج هي حقيبة دبلوماسية. كنت أسير في أحد الممرات أبحث عن مكتب شركة لمراشي أسنان رخيصة عندما رأيت شخصاً مهماً جداً قادماً من الجهة المقابلة فعرفت في الحال أنه على قدر من الأهمية. أنت تعرف رجال الأعمال الكبار فهم يشغلون حيزاً أكبر ويصدرون ضجيجاً أعلى في مشيهم من الناس العاديين، وتلوح منهم علامات الغنى التي تحسّ بها من على بعد خمسين ياردة، وعندما اقترب مني عرفته. إنه السير جوزيف

شيء! لكنه الآن مثلي بالطبع ولم أجد أي صعوبة في معرفته، ربما هو هنا من أجل مؤتمر لرجال الأعمال أو ما شابهه وكان يتبعه رجلان من الموظفين أو السكرتيرين وكأنهما يحملان ذيل ثوبه، أو هذا ما أوحى به منظرهما. تنحى جانباً في الحال، ومن الغريب جداً أنه عرفني رغم أنه لم يرني منذ سنين ولدهشتي وقف وتكلم معي.

- أنت، مرحباً، لقد رأيتك في مكان ما من قبل، ما اسمك؟ إنه على طرف لساني وماذا تعمل؟

- بوليغ يا سيدي كنت في إدارة الحسابات العسكرية.

- بالتأكيد أنت الولد الذي قال بأنه ليس سيلاً. ماذا تعمل هنا؟

كان من الممكن أن أقول إنني أبيع أشرطة لطابعات وسهى كل شيء لكن غمرتني الإلهام المفاجئ الذي يأتيك أحياناً وقلت:

- حسناً يا سيدي في الحقيقة إنني أبحث عن وظيفة.

- وظيفة؟ ليست سهلة في الوقت الحاضر.

نظر إلي من الأعلى إلى الأسفل وابتعد عنه حاملاً الذيل مسافة قليلة ورأيت وجهه الحسن وحاجبيه الرماديين وأنفه الذكي وهو يتفحصني فأدركت أنه سيساعدني.

غريبة سلطة هؤلاء الأغنياء. مر من جانبي في هيئته ومجده وبطانته تتبعه وسرعة التفت جانباً فجأة مثل إمبراطور

يرمي قطعة نقدية لأحد المتسولين.

إذاً أنت تريد وظيفة ؟ ماذا يمكنك أن تعمل؟

وأسعفني إلهامي ثانية ولكن مع رجل مثله لا يجدي شيئاً سوى الحقيقة ولا فائدة من المبالغة في توصيف «الكفاءات» والالتزام بالحقيقة هو الأفضل.

- لا شيء يا سيدي لكن أريد العمل كبائع متنقل.

- بائع؟ لست متأكداً أنه لدي شيء لك في الوقت الحاضر. دعنا نرى.

برم شفته للحظة، ربما لنصف دقيقة وفكر بعمق. غريب! حتى في ذلك الوقت كان غريباً أن مثل هذا الرجل المهم والكبير الذي يساوي نصف مليون جنيه على الأقل يشغل تفكيره لمصلحتي ومن أجلي. لقد حرفته عن طريقه وضيعت من وقته ثلاث دقائق على الأقل، كل ذلك بسبب ملاحظة عابرة حدثت منذ سنين لصقت بذاكرته وهو راغب أن يتحمل عبئاً قليلاً مطلوباً ليجد وظيفة لي. وأجرؤ على القول إنه يقوم بذلك في اليوم الذي قد يكون صرف فيه عشرين موظفاً. وأخيراً قال:

- هل تحب العمل في شركة تأمين؟ آمنة ودائمة. أنت تعرف أن على الناس الحصول على تأمين مثلما عليهم أن يأكلوا!

قفزت من الفرح طمعاً بفكرة الدخول إلى شركة التأمين.

إن السير جوزيف كان مشاركاً في فلايبغ سالامدرز ويعلم الله بكم شركة أخرى غيرها. إثر ذلك تقدم أحد المرافقين إلى الأمام ورفع سند الكتابة وبقلم حبر أخرجه من جيبه، خربش السير جوزيف ملاحظة للمسؤول في الفلايبغ سالامدرز، ثم شكره وتابع سيره. مشيت متسللاً إلى الجهة الأخرى ولم نر بعضنا ثانية أبداً.

حصلت الآن على وظيفة كما قلت سابقاً وتملكتني ولا أزال أعمل في الفلايبغ سالامندرز منذ ثماني عشرة سنة، وقد بدأت العمل في المكتب لكنني الآن أعمل متنقلاً، وللتأثير أكثر مندوباً. أعمل يومين في الأسبوع في مكتب المقاطعة وبقية الأيام أتنقل مسافراً لأقابل الزبائن الذين يرسل أصحابهم عملاؤنا المحليون صحن المحلات والملكيات الأخرى، وبين الحين والآخر أصدر بضعة أوامر على مسؤوليتي وأكسب حوالي سبعة جنيهات في الأسبوع، وبعبارة أوضح هذه نهاية حياتي الحافلة، وعندما أنظر إلى الوراء أدرك أن حياتي الحقيقية انتهت منذ أن كنت في السادسة عشرة، وأنّ كل الأشياء المهمة التي حدثت لي فعلياً تعود إلى قبل ذلك التاريخ، لكن وكما يقال تستمر الأشياء بالحدوث وتستمر الحياة كالحرب مثلاً. لكن منذ الوقت الذي حصلت فيه على الوظيفة مع الفلايبغ سالامدرز لم يحدث أي شيء مهم في حياتي، لكن كما هو معروف أن السعداء لا تاريخ لهم، أو

ما يمكن وصفه أنه حدث باستثناء زواجي من هيلد. الذي وقع بعد سنتين ونصف أي في بداية عام 1923.

10

سكنت في بيت يقدم الطعام أيضاً في (ايليغ) ودرت السنوات وخرجت بينفيلد من ذهني تماماً. فقد كنت عاملاً من عمال المدينة الشبعين، أخرج مسرعاً للحاق بقطار الثامنة وخمس عشرة دقيقة، وأحيك المؤامرات لزملائي في الوظيفة وسمعتي جيدة في الشركة ومقتنع بالحياة إلى حد ما. لقد أسرني وهم النجاح بعد الحرب والأحاديث الطويلة الحلوة والنشاط والقوة والعزم والشجاعة والنجاح والدخول والخروج واتساع القمة لأكثر من شخص وعدم القدرة على سد الطريق أمام الرجال الأخفاء وإعلانات الجرائد عن الشاب الذي يربت الرئيس على كتفه، والمدير الحذق الذي يجر الكعكة الكبيرة ويعزو نجاحه إلى منهج مراسلة تعلمه.لا أدري كيف بلعنا كل هذه الترهات؟

أنا لست عدوانياً أو مغروراً وكذلك لست عاطلاً أو عاجزاً، وإني بطبيعتي غير قادر ان أكون هكذا لكنها كانت روح العصر انجح واستعد وإذا رأيت رجلاً ينهار فمر على أحشائه قبل أن يقف ثانية. هكذا كانت بداية العشرينات عندما تفسخت آثار الحرب ولم يبدأ انهيار الأسعار بعد بتمزيع أحشائنا

اشتركت في البولتس وذهبت إلى حفلات الرقص الرخيصة وانضممت إلى نادٍ محلي للتنس من نوادي الضواحي الارستقراطية مؤلف من خيمة خشبية صغيرة وسياج بشبك عالية وشباب بثيابهم البيضاء القصيرة يثبون للأعلى ويصيحون. عشرين، أربعين... الفرص والأفضلية للمجميع بأصوات مقلدة للطبقة العليا.

تعلمت التنس ولم أصبح راقصاً جيداً وكان تواصلي مع الفتيات جيداً أيضاً وعمري حوالي الثلاثين ولم يكن مظهري جيداً؛ وجه أحمر وشعر أصفر، وفي تلك الأيام كان خوض الحرب ميزة. لم أنجح لا في ذاك الوقت ولا في غيره في أن أبدو بمظهر السيد لكن لا يمكن اعتباري حانوتياً صغيراً من مدينة ريفية، ويمكنني الاستمرار حتى نهاية العيش وسط مجتمع خليط في مكان مثل ايلينغ مع أجزاء المكاتب وحرفيي الطبقة الوسطى المتداخلين مع بعضهم بعضاً.

قابلت هيلدا لأول مرة في نادي التنس وكانت في الرابعة والعشرين حينذاك، جميلة وعيونها واسعة جداً، لقد شبّهتها بالأرنب، كما أنها لم تكن تتكلم كثيراً لكنها تبقى على هامش الحديث الجاري موحية أنها تنصت، وإن قالت شيئاً سيكون أوه، نعم، وأنا أعتقد هذا أيضاً وكانت توافق رأي آخر متكلم دائماً. لماذا تزوجتها؟ سألت نفسي هذا السؤال مرات لا يعلم إلا الله عددها ولا أزال بعد أكثر من خمس

عشرة سنة من الزواج، ومن المؤكد أنك سألت نفسك ذلك أيضاً إن كنت متزوجاً.

تزوجتها لأنها شابة وجميلة، والأكثر من ذلك لأنها جاءت من أصول مختلفة كلياً عن أصولي. كان من الصعب علي أن أفهمها، لذا تزوجتها كي أكتشفها، أما لو تزوجت يلسي ووترز فقد كنت أعرف من تزوجت مسبقاً. تنتمي هيلدا إلى طبقة لا أعرف عنها شيئاً إلا من خلال الإشاعات والأقاويل، وهي طبقة ضباط معدمة؛ عائلتها من جنود وبحارة ورجال دين وموظفين انغلوهنود منذ أجيال، ولم يكن عندهم نقود أبداً، طبعاً ولم يقم أي منهم بعمل حقيقي. كان هناك نوع من جاذبية القذرة، فأنا الذي انتمي إلى طبقة صغار الباعة الذين يشربون الشاي مع السندويش، طبقة الكنيسة الانجليكانية ولا يؤثر ذلك علي الآن. لا تسئ فهمي، فلم أقصد أنني تزوجت من هيلدا لأنها تنتمي إلى الطبقة التي كنت أخدمها في محل البقالة لأن فكرة تسعيه نفسي في السلم الاجتماعي غير واردة، والسبب فقط أنني لم أفهمها، لذا كنت مغفلاً وما لم أدركه بخصوص فتيات الطبقة الوسطى المفلسة أنهن يتزوجن أي شيء في بنطال كي يتخلصن من البيت فقط.

لم يمر وقت طويل حتى أخذتني هيلدا إلى البيت لأتعرف على عائلتها، ولم أكن أدري بوجود مستعمرة كبيرة

من الانغلوهنود في البيع حيث تسنى لي اكتشاف هذا العالم الجديد تماماً. هل تعرف تلك العائلات الانغلوهندية؟ شبه مستحيل،متى ما دخلت بيوت هؤلاء الناس تحس وأنت في الشارع أن هذه هي انكلترا، وأنك في القرن العشرين لكن حالما تطأ قدمك عتبة مدخل أحد تلك البيوت ستشعر بأنك في الهند وفي الثمانينيات من القرن التاسع عشر. أثاث من خشب الساج المحفور والصواني النحاسية ورؤوس النمور المعبرة على الجدران وسيجار تريكينوبولي والمعاول الحمراء وصور الرجال الصفراء في الخوذ الشمسية ولكلمات الهندوستانية التي يتوقع منك أن تفهم معناها ولحكايات النادرة عن صيد النمور وأقوال سميث لجونز في 87. عالم صغير خلقوه لأنفسهم مثل كيسة قيح وهو كان ممتعاً وجديداً بالنسبة لي. والد هيلدا العجوز فيست لم يكن في الهند فقط، بل في بورنو أو ساراواك لقد نسيت أيهما وكان من النوع العادي، فهو أصلع تماماً ولا يبان من وراء شاربيه كما أنه مخزن لحكايات الكوبرا والوشاح الأخضر وأقوال جابي المقاطعة عام ثلاثة وتسعين أما أم هيلدا فكانت بلا لون مثل الصور الباهتة التي على الجدران، أما ابنهم هارولد فيعمل رسمياً في سيلان. لقد كان في إجازة في الوطن حين قابلت هيلدا أول مرة. إنهم يقطنون في بيت صغير مظلم في شارع خلفي من الشوارع المدفونة في ايلنغ الذي تتمت منه دائماً

رائحة الحيوانات البرية والبحار التي لا تسمح لك بالحركة إلا بصعوبة. تقاعد العجوز في عام 1910 ومنذ ذلك التاريخ أبدى وزوجته نشاطاً ذهبياً وبنياً مثل زوج من الضببات. كنت آنذاك معجباً بعائلة هيلدا بما فيها من رواد وعقداء وحتى أدميرالات، أما ما يخص موقفهم مني وموقفي منهم فهو درس ممتع عن حال الأغنياء عندما يكونون خارج عالمهم. فلو أنك وضعتني وسط التجار ومديري الشركات والباعة الجوالين لاستطعت الحكم عليهم بشكل صحيح وعادل لكني افتقر إلى الخبرة مع طبقة الضباط والمأجورين ورجالات الدين، فكنت ميالاً للتزلف إلى هؤلاء المنبوذين المتعصبين واعتبرتهم أرفع مني في المنزلة الاجتماعية والثقافية، وهم بدورهم أساؤوا فهمي واعتبروني رجل أعمال ناجحاً وسوف أصبح غنياً في وقت قصير لأن الأعمال والتجارة هي لغز بالنسبة لهم سواء كانت تأميناً أم بيع مكسرات، وكل ما يعرفونه أنها شيء تافه يمكنك الحصول على المال منه. تكلم العجوز كثيراً عني كرجل أعمال، وواضح أنه لا يعرف الفرق بين الموظف وبين صاحب العمل، فطالما أنني أعمل في الفلايينج سالامندرز فإنني سأرتقي إلى قمتها عاجلاً أم آجلاً وأعتقد أنه تخيل نفسه وهو يستدين مني المال في المستقبل. أما هارولد فإنني متأكد أنني رأيت ذلك في عينه، وإنني حتى وأنا في وضعي الحالي،

الحالي كنت سأقرضه لو ظل حياً لكنه مات بعد سنوات قليلة من زواجنا بسبب الحمى التيفية، كما مات أيضاً العجوز ن فيست.

تزوجنا أنا وهيلدا لكنه كان فشلاً وإخفاقاً منذ البداية. لهذا تسأل لماذا تزوجتها ولماذا تزوجتك؟ طبعاً إنّ مثل هذه الأشياء تحدث. وإن كنت تصدّقني لقد فكرت بقتل هيلدا، جدياً خلال السنتين أو الثلاث الأوائل لكن التفكير شيء والتطبيق أمر آخر. إنه نوع من التخيل يستمتع به الشخص، إضافة إلى أنّ كل الرجال الذين يقتلون زوجاتهم يلقى القبض عليهم دائماً، وعندما تقتل امرأة يكون المتهم الأول هو زوجها مما يعطي لمحة عما يعتقده الناس بالزواج.

ربما نعتاد الأشياء مع مرور الزمن، فبعد سنة أو سنتين أوقفت التفكير بقتل هيلدا واستبدلته بالتعجب منها. ساعات طويلة في أماسي الآحاد، وبعد أن أعود من العمل سأستلقي على السرير بكامل ثيابي ماعدا الحذاء متعجباً من النساء لماذا هن هكذا، وكيف يصبحن، وهل يفعلن هذا عن سبق تصميم وتصور؛ فتبدو لي السرعة المفاجئة التي تتحطم بها النساء جسدياً ومعنوياً بعد الزواج مخيفة جداً، وكأنهن متماسكات ومخصصات لعمل شيء واحد فقط، وبعد مجرد يذبلن كالزهرة التي تطرح بذورها. إنه الموقف الكئيب من الحياة، فإن كان الزواج عملية احتيال مكشوف توقعك المرأة

في فمه فإن ذلك لم يعد مهماً بالنسبة لي لا من قريب ولا من بعيد. تلتفت الزوجة إليك قائلة والآن أمسكت بك أيها اللقيط، ستعمل لحسابي بينما أنا استمتع بوقتي؛ فالزوجات لا يرغبن في الاستمتاع بالوقت إنما يفضلن النزول إلى أواسط العمر بأسرع ما يمكن بعد معركة رهيبة لإحضار رجالهن إلى المذبح ثم يسترخين وتتلاشى منهن لطاقة والشباب والنظرات ومتعة الحياة في ليلة وضحاها. هذا ما آلت إليه حال هيلدا إذ أضحت امرأة رثة الثياب مكتئبة جداً في منتصف عمرها. لا أنكر أني كنت جزءاً من السبب لكن حتى لو أنها تزوجت من شخص آخر فلن تتغير النتيجة اكتشفت ما كان ينقص هيلدا بعد أسبوع من زواجنا، وهو التلذذ بالحياة والاهتمام بالأشياء لذاتها وعمل أشياء تحبها والاستمتاع بذلك بفعلها لكنها لم تفهم هذا. كونت فكرتي الأولى عن عائلات الطبقة الوسطى المتعفنة من خلال هيلدا، والحقيقة الجوهرية تكمن في جفاف جيوبهم بسبب عوزهم للمال، فهذه العائلات تعيش على معاشاتها التقاعدية أو الهبات السنوية القليلة جداً التي لا تزيد بل يمكن أن تقل، لذلك ينتابهم الشعور بالفقر الشديد وينظرون إلى الستة قروش أكثر مما تنظر إليها عائلة عامل مزرعة كعائلتي؛ ويكون عوز المال في أسوأ حالاته عند وجود أولاد في المدرسة، وعندما يكبرون خصوصاً الفتيات اللواتي تتأصل فيهن فكرة أن

الشخص ليس في حالة ضحك دائم بل يجب أن يكون تعيساً بسببه.

في البداية عشنا في بيت ذي غرف صغيرة. أذهب إلى عملي على نفقتي الخاصة وبعدها نقلت إلى بلدتي، فصارت الأوضاع أفضل، لكن موقف هيلدا من النقود لم يتبدل دفاتر الحليب والفحم وإيجار البيت وأقساط المدرسة.تصبح كل حياتنا على نغمة سنصبح في الملجأ الأسبوع القادم.

لم تكن هيلدا أنانية حتى عندما تتوافر السيولة، وكنت أجد صعوبة في إقناعها لشراء بعض الثياب المناسبة لها كما يسيطر عليها الإحساس بوجوب إثارة القلق وخلق جو من البؤس بسبب الشعور بالواجب. أنا لست من هذا الصنف، وموقفي من النقود ليس كذلك، ويشبه موقف كل العمال، وأرى أننا يجب أن نعيش الحياة حتى لو واجهنا المأزق الأسبوع التالي الذي نعتبره مدة طويلة، وما يصدم هيلدا دائماً هو رفضي للقلق فتهاجمني دائماً. جورج يبدو أنك لا تدرك، ليس لدينا نقود إطلاقاً شيء خطير، ثم تدخل في نوبة تقويس الكتفين ولف يديها على صدرها، ولو سجلت ملاحظاتها في قائمة ستخرج ثلاثة أشياء خارج قوسين: لا نستطيع أن ندفع، وتوفير عظيم، ولا أدري من أين سيأتي بالنقود. إنها تفعل أي شيء بطريقة سلبية، فإن صنعت كعكة لا تفكر بالكعكة بل بكيفية توفير الزبدة والبيض. وعندما نكون في السرير معاً كل

ما تفكر فيه الخوف من إنجاب طفل، أما أساليبها في تدبير المنزل فكانت بالتأكيد استهلاك الأشياء وجعلها تعمل وتدوم لأطول مدة ممكنة.

هيلدا غير متكبرة أيضاً ولم تحتقرني يوماً لأنني لم أكن من النبلاء بل على العكس فأنا أكثر نبيل في سلوكي من وجهة نظرها، ولم نتناول وجبة في مشرب دون شجار عنيف هامس لأنني أعطيت النادلة بقشيشاً كبيراً. والغريب أنها في السنوات الأخيرة القليلة أصبحت أكثر انتماء إلى الطبقة الوسطى الدونية في الشكل والمضمون. بالطبع كل هذا التوفير لم ولن يؤدي إلى نتيجة. عشنا في المستوى نفسه من الجودة والسوء الذي عاشه الآخرون في إيلسمير رغم الطهي على نار هادئة ومحاولاتها بالتوفير من فاتورة الغاز والحليب والزبدة وأحذية الأولاد وأقساط المدرسة، واستمرت هيلدا في الأمر وكأنه لعبتها.

انتقلنا إلى بلشلي واشترينا بيتاً في إيلسمير في السنة التالية أي قبل ولادة بيلي بقليل، وأصبحت مفتشاً فصرت أكثر ابتعاداً عن البيت وتوافرت لي فرص أكثر مع نساء أخريات لكنني لم أكن خائناً، طبعاً ليس على الدوام، وعندما تتاح لي الفرصة؛ ومن الغريب جداً أن هيلدا لم تكن غيورة جداً لكنها مثل كل النساء تبدي أحياناً مكراً يفوق قدرتها المتوقعة فتجعلني أصدق مسألة التخاطر من خلال الطريقة

التي تمسكني بها حتى عندما أكون غير مذنب، فقد كانت شكاكة حتى عندما أكون بريئاً.

في السنوات الخمس الأخيرة كنت بريئاً تماماً وهذا هو حال يدين مثلي، وأعتقد أنني وهيلدا لم تتأثر علاقتنا مثلما حصل لنصف الأزواج في إيلسمير. فكرت كثيراً في الانفصال عن هيلدا لكن في العادة لا تصل الأمور إلى الفعل، واستمرت مسيرة حياتنا، ومع مضي الزمن تخليت عن الصراع واستسلمت، فعندما تعيش مع امرأة خمسة عشر عاماً يكون من الصعب تخيل الحياة بدونها إذ تصبح جزءاً من نظام الأشياء، وأجرؤ القول إنك يمكن أن تعترض على الشمس أو القمر لكن هل تريد فعلاً تغييرهما إضافة إلى وجود الأولاد، فالأطفال صلة كما يقولون أو ارتباط إن لم أقل إنهم كرة وقيد.

أقامت هيلدا صداقات كبيرة خلال السنوات الأخيرة وأقواها كانت مع صديقتين مقربتين، الأولى السيدة ويللر والثانية الآنسة مينز. السيدة ويللر أرملة، واكتشفت مؤخراً أنها تحمل أفكاراً سيئة عن الذكور ولا تستحسن دخولي إلى الغرفة بل أنها ترتجف عندما تراني. إنها امرأة صغيرة الحجم داملة، وفي رأسي انطباع بأن لها نفس اللون الرمادي لكنها مفعمة بالحيوية وتمارس تأثيراً سلبياً على هيلدا، كما أن لديها نفس الرغبة في توفير الأشياء ولكن بشكل مختلف

قليلاً، فهي ترى أنه بالامكان أن تستمتع بوقتك دون أن تدفع شيئاً مقابل ذلك، وتتحدث دائماً عن صفقات وتسالي لا تكلف شيئاً، وأثناء موسم التنزيلات والحسومات في المحلات الكبيرة تكون السيدة ويلر على رأس الطابور وهي تفتخر بذلك، وبعد قتال حول طاولة البيع تخرج دون أن تشتري شيئاً. أما الآنسة مينز فهي نوع مختلف تماماً وتمثل حالة حزن سلبي حقيقية، فهي امرأة طويلة ونحيفة في الثامنة والثلاثين بشعر اسود ووجه يوحي بالثقة. تعيش على دخل ثابت من التأمينات. وهي من بقايا مجتمع بلشلي القديم عندما كانت بلدة ريفية صغيرة قبل أن تكبر الضاحية. ويبدو عليها أن والدها كان قساً وقد ونّجها كثيراً في حياته، وهم منتج جانبي خاص من الطبقات الوسطى. تلك النسوة اللواتي يتحولن إلى أكياس ذابلة قبل أن ينجحن في النجاة من البيت. لا تزال الآنسة المسكينة العجوز بكل تجاعيدها تبدو طفلة تماماً، ولا يزال عدم الذهاب إلى الكنيسة مغامرة كبيرة عندها. إنها تثرثر دائماً عن التقدم الحديث والحركات النسائية وتملأها لهفة غامضة لعمل شيء ما لتنمية عقلها لكنها لا تعرف من أين تبدأ، وأعتقد أنها لصقت بهيلدا وويلر بسبب العزلة المطلقة ولأنهما تأخذانها أينما تذهبان.

كن يمضين وقتاً طويلاً مع بعضهن إلى حد أنني حسدتهن تقريباً على ذلك مرات ومرات. فالسيدة ويلر هي

الفائدة الروحية التي تجرجرهما إلى بلاهات يعطر تسميتهن من طسمة اللاموت إلى ولادة القطط شرط أن تكون مجدية، وكن يلعبن إلى طاحين مهووسين، ولقد التقطت السيدة ويللر مرة كتاباً يدعي الطاقة المشعة الذي ورد فيه امكانية العيش على الخس وأشياء أخرى لا تكلف نقوداً مما جلب هيلدا، وبدأت بتجويع نفسها وحاولت تجريب ذلك على الأولاد لكن اعتراضي حال دون ذلك. ثم ترددن إلى العلاج الإيمائي وعلاج تمارين الذاكرة وبعد مراسلات كثيرة اكتشفن عدم قدرتهن في الحصول على الكتيبات مجاناً؛ ثم كانت فكرة السيدة ويللر عن طبخ علب التبن ومادة قذرة أخرى تدعى خمر النمل الذي لا يكلف شيئاً لأنه مصنوع من لاشيء، لكنهن أهملن الفكرة بعد أن قرأن مقالاً في إحدى الجرائد يتحدث بأن خمر النمل يسبب السرطان، بعدها انضممن إلى نادٍ نسائي يدير رحلات إلى المصانع. لكن السيدة ويللر قررت أن الشاي المجاني الذي تقدمه المصانع لا يساوي الاشتراك، كما نجحت ويللر في التنقيب عن معرفة شخص يعطي بطاقات مجانية تصدرها جمعية للمسرح، فكن يجلسن ساعات طويلة للاستماع إلى مسرحيات خاصة بالمثقفين دون أن يفهمن كلمة واحدة ولا يقدرن حتى على قول اسم المسرحية بعد انتهاء العرض، لكنهن يشعرن أنهن يحصلن على شيء مقابل لا شيء؛ ومرة ذهبن إلى الروحانيين بعد أن

صادفت السيدة ويللر شخصاً مبوذاً يعمل وسيطاً روحياً بين عالم الأحياء وعالم الأرواح، حيث تكلف الجلسة ثمانية عشر بنساً لها ولرفقتها ليتمكنّ من رؤية ما وراء الحجب (الغيب). ولقد رأيته مرة في بيتنا عندما جاء للقيام بجلسة استحضار. لقد كان شريراً، أما منظره فمهلهل ويسيطر عليه رعب قاتل من الهذيان الذي يصيب مدمني الكحول. رأيته وهو يخلع معطفه وتشنجت أصابعه فسقطت حلقة من الخيوط القطنية من سرواله وهي المادة التي تصنع منها الهيولى وسجنت في رميها له قبل أن تراها النسوة وأظنه كان ذاهباً إلى جلسة أخرى بعد تلك. وكان آخر اكتشافات السيدة ويللر في السنوات الأخيرة هو نادي الكتاب اليساري عام 1936 عندما وصلت أخباره إلى بيلتشلي. انضممن إليه لورا وكانت المرة الوحيدة التي صرفت فيها نقوداً دون أن تحتج هيلدا، لأنها رأت أن شراء كتاب بثلث ثمنه الحقيقي عمل مربح. إن موقف تلك النسوة غريب فعلاً! حاولت الآنسة مينر أن تقرأ كتاباً أو اثنين وهو ما لم يخطر ببال الاثنتين الأخريين، ولم يكن لديهن أي رابط مباشر بنادي الكتاب أو أي فكرة عن ماهيته. وأعتقد أن السيدة ويللر ظنت في البداية أن الأمر أنه يمكنها أن تفعل شيئاً بالكتب المجانية المتروكة في عربات القطار لكنهن عرفن فيما بعد أن ثمن الكتاب ستة بنسات بدلاً من نصف جنيه فاعتبرن ذلك شيئاً جيداً بين الحين والآخر

يعقد نادي الكتاب اجتماعات ويسمح للناس بإلقاء الخطب فكانت السيدة ويللر تأخذهن دائماً ولديهن حماس للاجتماعات العامة أياً كان موضوعها شرط أن تكون داخل البيوت ويكون الدخول مجانياً فيجلسن مثل كتل الحلوى ولا يعرفن شيئاً عما يدور في الاجتماع ولا يهمهن ذلك. لديهن شعور مبهم وخصوصاً الآنسة مينز أنهن يطورن عقولهن دون أن يدفعن شيئاً.

هذه هي هيلدا، وعلى العموم أعتقد أنها ليست أسوأ مني. وفي بداية زواجنا شعرت أحياناً أنني أود خنقها لكن لم أعد أهتم بعد أن أصبحت بديناً واستقريت، وذلك في عام 1930 عندما سمنت فجأة وكأن قذيفة مدفع ضربتني واستقرت في داخلي. كيف يكون شعورك عندما تنام في إحدى الليالي وأنت شاب وعيونك على الفتيات وتستيقظ في الصباح التالي بشعور تام بأنك عجوز سمين مسكين وليس أمامك سوى الكد المضني وخروج الأحشاء لتشتري أحذية لأولادك. لأن نحن في عام 1938 في مكان مخصص للترميم حيث يرشمون السفن الحربية استعداداً لحرب أخرى، لقد صدف أن رأيت اسماً على ملصق صورة حرّك في داخلي كل هذا القدر من الأشياء الميتة منذ سنين مضت.

القسم الثالث

1

عندما رجعت إلى البيت في ذلك المساء كنت لا أدري كيفية صرف الجنيهات السبعة عشر. قالت هيلدا إنها ذاهبة إلى نادي الكتاب اليساري لتحضر محاضرة يلقيها رجل قادم من لندن، ولا أريد أن أذكر بأن هيلدا لا تعرف موضوع المحاضرة، فأخبرتها بأنني سأذهب معها رغم كرهي للمحاضرات عموماً لكن رؤى الحرب التي تملكتني في الصباح ومنظر الطائرة القاذفة التي حلقت فوق القطار أدخلاني في مزاج من التأمل والتفكير. وضعنا الأولاد في أسرّتهم باكراً بعد جلبهم المعتاد، وخرجنا في الوقت المحدد للاستماع إلى المحاضرة المقررة عند الساعة الثامنة.

كان المساء مغبراً والقاعة باردة وغير مضاءة جيداً إنها قاعة خشبية ذات سقف قصديري لإحدى الطوائف المنشقة الرجعية. اجتمع فيها حوالي خمسة عشر شخصاً وفي موجهة

المنبر ملصق جداري كتب عليه موضوع المحاضرة للذي لم يدهشني إطلاقاً (خطر الفاشية). ترأس الجلسة السيد ويت ثيت الذي يعمل في مكتب مهندس معماري، فقدم بتقديم المحاضر للكل بأنه السيد فلان، العدو المشهور للفاشية بطريقة تشبه تقديم عازمي الاورغ المشهورين. ولقد كان المحاضر صغير الحجم في الاربعين يلبس بدلة سوداء ولقد حاول فاشلاً إخفاء رأسه الأصلع بخصلات من شعره.

لا تبدأ مثل تلك الاجتماعات في الوقت المحدد عدةً، إذ هناك دائماً فترة من التأجيل والتظاهر بحجة ما على أمل حضور بعض الناس.كانت الساعة الثامنة وخمساً وعشرين دقيقة عندما نقر ويت ثيت على الطاولة وبدأ لحوه. وويت ثيت هذا رجل مقبول الشكل ذو وجه قرمزي يشبه وجوه الأطفال تعلوه بتسمة دائمة ومن جهتي أعتقد أنه سكرتير الحزب الليبرالي المحلي وعضو في المجلس المحلي ويرأس أمسيات محاضرات المصباح السحري لاتحاد الأمهات. ويمكن القول إنه ولد ليكون رئيس جلسات، كما يمكنك أن ترى الصدق في عينيه أخرج المحاضر رزمة من الأوراق أكثرها قصاصات جرائد، وثبتها تحت كأس الماء، وبدأ المحاضرة بلعق شفتيه ولقصف الكلامي، فهل ذهبت إلى المحاضرات العامة؟ عندما أذهب إلى واحدة منها أجد نفسي،كما في هذا المساء، أفكر بذات الفكرة، لماذا يفعل هذا؟ ولماذا يخرج الناس من بيوتهم في

ليل شتوي؟ نظرت في أرجاء الصالة وكنت في الصف الأخير، ولا أتذكر أبداً أنني حضرت اجتماعاً عماً دون أن أكون في الصف الأخير إن أمكني ذلك بينما هيلدا والآخرون حشروا أنفسهم في المقدمة كالعادة . كانت الصالة صغيرة وكئيبة وجدرانها صوبرية قاتمة مع سقف معدني مضلع وتيار هواء بارد يلزمك البقاء في معطفك بالإضافة إلى مجموعة صغيرة تحلقت حول المنبر في الضوء وهناك إلى الخلف حوالي الأربعين صفاً من المقاعد الفارغة. كانت أرضية المقاعد صغيرة وعلى المنبر خلف المحاضر هناك شيء مربع ضخم مغطى بصفحة مثل كفن ضخم، إنه بيانو.

لم أصغ جيداً في البداية، حيث كان المحاضر ضئيل الحجم أما شكله فمزري، لكنه متكلم جيد، وجهه أبيض وفمه سريع الحركة ويتمتع بصوت جهوري من كثرة الكلام في اللقاءات والاجتماعات كان يشتم النازية وهتلر ولم أسمع ما قاله لأنني لم انتبه لأننا كنا نقرأ نفس هذا الهراء في جريدة نيوز كرونكل كل صباح، وكان صوته يصلني على شكل غير مفهوم (بر بر بر) وكانت تأسرني عبارة من حين لآخر، مثل الوحشية والبهيمية والنوبات الشنيعة من السادية و لعصي المطاطية ومعسكرات الاعتقال والاضطهاد الجائر لليهود والعودة إلى عصور الظلام والحضارة الأوروبية قبل أن يموت الأوان، كذلك إذلال كل الشعوب المحترمة وتحالف الأمم

الديمقراطية وموقف ثابت والدفاع عن الديمقراطية، ديمقراطية .. فاشية.... ديمقراطية.........

استمتعت برؤية هذا الرجل التافه ذي الوجه الأبيض والرأس الأصلع وهو واقف على المنبر يطلق الشعارات. ماذا يفعل؟ إنه يثير الكراهية عامداً وبشكل صارخ، وبصراحة مطلقة باذلاً أقصى جهده ليجعلك تكره بعض الأجانب الذين يعتهم بالفاشيين. غريب جداً منطق هذا السيد المشهور، فلقد أصبحت معاداة الفاشية صنعة ومهنة غريبة، فماذا كان يعمل قبل مجيء هتلر، وماذا سيعمل إن اختفى هتلر؟ وخطرت ببالي فكرة أخرى، إنه يعني ما يقوله ولا يزيف أي كلمة يقولها، فهو يحاول أن يثير كره المستمعين الذي لا يقارن بالكره الذي يصدره هو، وكل شعار أطلقه كان حقيقة مقدسة عنده، ولو نظرت في داخله لوجدت ديمقراطية.. ، فاشية

ممتع معرفة ما يفعله هذا الرجل ومن هم على شاكلته في حياتهم الخاصة، وتساءلت إن كانت له وحدة أم أنه يتجول من منبر إلى آخر مطلقاً شعاراته ومثيراً الكراهية؟

ألقيت نظرة على المستمعين، وفكرت بهم بقدر ما استطعت. نحن خرجنا من بيوتنا في ليلة شتوية باردة لنسمع محاضرة هادفة ولها غرض واحد، يديرها نادي الكتاب اليساري وأنا معني لأنني واحد من الحضور هذه المرة. خطر

ـالي وأنا أنظر إلى المستمعين الذين فهم نصفهم محور المحاضرة بينما النصف الآخر لم يفهم شيئاً رغم أن المحاضر ظل يشتم هتلر والنازية أكثر من ساعة.

جلس ويت شيت بجانب طاولة المحاضر وكان يرقبه وعلت وجهه ابتسامة صفراء فبدا مثل نبات إبرة الراعي حيث يمكنك معرفة ما سيقوله في خطابه مسبقاً لأنه الخطاب نفسه الذي ألقاه في نهاية محاضرات المصباح السحري لإضاءة باطيل اميلا ديراين، وهو تعبير عن الشكر والإفصاح عن رأي الجميع والمساء الأكثر إثارة.

جلست الآنسة ميتز منتصبة ورأسها مائل قليلاً كالعصفور. تناول المحاضر ورقة من تحت قدح الماء وبدأ بقراءة إحصائيات عن معدل الانتحار في ألمانيا، ويمكنك أن تلاحظ من خلال رقبة الآنسة ميتز عدم ارتياحها وتساؤلها إن كان هذا يساعد في تحسين عقلها أم لا، وتمنت لو تعرف عما تدور حوله المحاضرة. أما الاثنتان الأخريان فجلست كقطعتين من الحلويات وبجانبهما امرأة ذات شعر أحمر تحيك سترة بدون رسوم؛ وتتمتم اثنان واحد اثنان واحد ثم واحد اثنان معاً كان المحاضر يصف كيف كان النازيون يقطعون رؤوس الناس بتهمة الخيانة العظمى، وكيف كان الجلاد يطلق طلقة وهمية أحياناً. من بين المستمعين امرأة ذات شعر أسود وهي إحدى معلمات المدرسة المحلية، إنها

محلات الأحريات بدت مستمتعة في الصف الأول ومثبتة عيبها السوداوين الكبيرتين باتجاه المحاضر بفم مفتوح كأنها تريد شرب المحاضرة كلها. خلفها مباشرة يجلس رجلان عجوزان من حزب العمال أحدهما بشعر رمادي قصير جداً والثاني أصلع الرأس وبشارب متدلٍ يلبسان معطفيهما وهم أعضاء في الحزب منذ 1900. ولقد ضحيا بعشرين سنة من حياتهما في سبيل الحركة وسجلا في القائمة السوداء. كذلك قضيا عشر سنوات أخرى يطالبان المجلس بفعل شيء للأحياء الفقيرة القذرة، أما الآن فيبدل كل شيء فجأة ولم يعد يهتم الحزب بهذه التفاهات القديمة لتورطه في السياسة الخارجية وهتلر وستالين والمقابر الجماعية والبنادق الرشاشة والعصي المطاطية ومحور روما برلين والجبهة الشعبية والحلف المعادي للكومنترون أشياء لا معنى لها.

جلس أمامي مباشرة ثلاثة شبان من أعضاء الحزب الشيوعي المحلي، الأول شيء ويعمل في هيسبريدز لعقارية واظن أنه ابن أخ كروم والثاني يعمل موظفاً في أحد البنوك وكان قد صرف لي بعض الشيكات، أما الثالث فولد نظيف ذو وجه مستدير، عيناه زرقاوان كالطفل له شعر أشقر كأنه مصبوغ ويبدو في السابعة عشرة رغم تجاوزه العشرين. كان يرتدي بدلة زرقاء وربطة عنق براقة ومن ذات اللون تتناسب مع شعره، وكان بمحاذاتهم شيوعي آخر لكنه يبدو مختلفاً عن

سابقيه، فهو من النوع غير المسالم والهادئ، إنه من التروتسكيين، إنه أصغر عمراً منهم، نحيل جداً وأسمر جداً، إنه عصبي يوحي وجهه بالذكاء وهو يهودي طبعاً. أخذ هؤلاء الأربعة المحاضرة بشكل مختلف عن الآخرين ووقفوا على أقدامهم فور بدء فترة الأسئلة وساد الجو بعض التوتر فتململ التروتسكي في جلسته وخاف ألا يصل المنصة قبل الآخرين.

توقعت عن سماع كلمات المحاضر الذي يمكنه الاستمرار في الكلام لمدة شهر دون توقف. شيء فظيع! كأنه أورغ بشري يطلق نفس الدعايات عليك على مدار الساعة المرة تلو الأخرى مكرراً الكره.. الكره .. لنكره أكثر وأكثر حتى تشعر أن شيئاً ما دخل إلى جمجمتك وهو يطرق على دماغك بقوة. غمضت عيني للحظة وتمنيت الطاولة عليه فدخلت إلى جمجمته لمدة ثانية، فشعرت بما كان يعتمل في نفسه؛ ويمكنك القول إنني كنت هو ورأيت ما يراه. رؤى فظيعة لا يمكن الانفصال عنها أبداً. إن ما قاله عن ملاحقة هتلر لهم وعن ضرورة الاتحاد لمواجهته وأن نكرهه جداً دون الدخول في التفاصيل شيء محترم وما كان يراه مسألة مختلفة جداً حطم وهشم واضرب في المنتصف تماماً واحداً وواحداً آخر إنها صورة لنفسه وهو يحطم وجوه الناس بمفاتيح الربط - طبعاً وجوه الفاشيين- تجاويف عظمية مثل قشرة البيض ووجوه تتحول في ثانية إلى لطخة كبيرة من مربى الفراولة.

هذا ما رأيته في دماغه ومشيه ونومه، وكلما أفكر فيه أكثر أحبه أكثر، وطالما أن الوجوه المهشمة نادرة فلا ضير من ذلك. لكن ما هو سبب ذلك وما هو التغيير؟

إنه الخوف الذي يملأ قلب كل شخص عاقل والذي يرى أبعد مما يراه الآخرون، لهذا هو خائف أكثر منهم. هتلر يطاردنا! أسرعوا! امسكوا بمفاتيح الربط ولتتحد كل، هشموا وجوهاً أكثر لتحافظوا على وجوهكم من التهشم وتعصبوا وتحزبوا واختاروا قادتكم. هتلر أسود وستالين أبيض ويمكن أن يكونا العكس في عقل الشاب فكلاهما يعنيان مفاتيح الربط والوجوه المحطمة.

بدأت أفكر في الحرب التي اندلعت ، الحرب القادمة والمؤكدة وأسأل من هو الخائف من الحرب؟ أقصد الخائف من القتال والبنادق الآلية؟ إنه أنت وكل من رآها، وليست الحرب هي الوحيدة المهمة فقط بل ما بعد الحرب، ذلك العالم الذي سننحدر إليه. عالم الكره والشعارات والقمصان الملونة والأسلاك الشائكة؛ عالم الزنزانات السرية المظلمة والمخبرين الذين يراقبونك حتى في نومك والمواكب والملصقات والحشود المؤلفة من ملايين الناس التي تهتف للقائد مظهرين حبهم لكنهم يكرهونه في باطنهم لدرجة التقيؤ. هل سيحدث ذلك؟ هل توافقني؟ أحياناً أرى أن الأمر مستحيل وأحياناً أخرى أراه محتماً لكن في هذه الليلة كنت

متأكداً بأنه سيحدث ولا محالة. هذا هو معنى خروج تلك المجموعة الصغيرة من بيوتها في ليلة شتوية باردة للاستماع إلى محاضرة من هذا النوع، وهؤلاء الأشخاص الخمسة أو الستة من الحضور الذين استوعبوا فحوى المحاضرة هم القواعد المتقدمة والمخافر الأمامية لجيش جرار، إنهم ذوو بصيرة ثاقبة مثل الجرذان التي تكتشف غرق السفينة. مفاتيح الربط جاهزة يا أولاد، حطموا الآخرين قبل أن يحطموكم. إنهم مرعوبون جداً من المستقبل الذي سنقفز إلى جوفه مثل أرنب يسقط في فم ثعبان ضخم. لكن ماذا سيحدث لرجل مثلي إن كانت هناك فاشية في انكلترا؟ في الواقع لن يكون هناك أي اختلاف لكنها ستشكل فرقاً كبيراً بالنسبة للمحاضر والشيوعيين الأربعة المستمعين، فهم إما أن يحطموا وجوه الآخرين أو تتحطم وجوههم ويعتمد ذلك على من سيربح، أما الرجال العاديون من أمثالي فسيستمرون كالمعتاد. رغم هذا فإن الحرب تخيفني وأؤكد لك أنها تخيفني وسألت نفسي عن السبب عندما توقف المحاضر وجلس.

ساد صوت أجوف ثقيل معتاد بعد التصفيق الذي تسمعه عندما لا يوجد في القاعة سوى خمسة عشر شخصاً. بعدها ألقى ويت شيت مقطوعته وقبل أن يقول جاك روبنسون وقف الشيوعيون الأربعة على أقدامهم ودخلوا في جدل جماعي استمر عشر دقائق بهراء لم يفهمه أحد عن المادية

الديالكتيكية ومصير الطبقة العاملة وما قاله لينين عام 1918؛ ثم نهض المحاضر بعد أن تناول جرعة من الماء ولخّص المحاضرة مما ترك ألماً عند التروتسكي جعله يتلوى في مقعده بينما ارتاح الثلاثة الآخرون. لكن الموضوع ستؤنف ثانية بشكل غير رسمي ولفترة أطول ولم يتكلم أحد من الحاضرين وانصرفت هيلدا والأخريات خوفاً من أن يكون هناك تأبين بدل إيجار القاعة. أما المرأة ذات الشعر الأحمر فاستمرت في حياكتها وهي تردد غرزاتها بصوت مسموع، وجلس ويت شيت بدون ملاحظات شفوية، أما المرأة ذات الشعر الأسود فكانت تنقل نظرها من شخص إلى آخر بفم مفتوح بينما الرجل العجوز الذي بدا مثل الفقمة بشاربه المتهدل ومعطفه المرفوع حتى أذنيه أخذ ينظر إليهم مستغرباً من سبب هذا كله. أخيراً نهضت وارتديت معطفي وتحول الجدال الجماعي إلى جدال خاص بين التروتسكي الصغير والولد ذي الشعر الأشقر حول الانضمام إلى الجيش أو عدمه في حالة اندلاع الحرب. شقيت طريقي بمحاذاة أحد الصفوف لأخرج عندما هتف لي ذو الشعر الأشقر قائلاً:

- سيد بولينغ انتبه من فضلك. أنظر هنا، إن اندلعت حرب وتوافرت لك الفرصة لتحطيم الفاشية مهذباً فهل تحارب؟ أقصد لو كنت شاباً

أعتقد أنه ظن أني في الستين.

أنت تراهن بأنني لن أقاتل لكن لدي ما يكفي من تجربة الحرب فقد اشتركت في الحرب الأخيرة

لكن هذه المرة لتحطيم الفاشية.

أوه الفاشية، لقد سبب الكثير من التحطيم والدمار سابقاً.

قاطعني التروتسكي الصغير بالوطنية الاشتراكية وخيانة العمال لكن الآخر قاطعه قائلاً:

- إنك تفكر في عام 1914 وتلك كانت حرباً امبريالية، أما هذه المرة فهي مختلفة، أنظر إلى ما يحدث في ألمانيا من معسكرات اعتقال وضرب النازيين للناس بالعصي المطاطية وإجبار اليهود على البصق في وجوه بعضهم بعضاً ألا يجعل هذا دمك يغلي؟

يرددون غليان الدم دائماً وهي ذات العبارة التي سمعتها في الحرب الأولى.

- أنا تركت الغليان منذ عام 1916 وستتركه أنت عندما تعرف رائحة الخنادق!

وفجأة رأيته جيداً وكأنني لم أره إلا في هذه اللحظة: وجه صبي وسيم بعيون زرقاء وشعر مسترسل حدّق بعينيّ لحظة والدموع تملأ عينيه ولقد عرفت ماذا كان يشعر. إنه صبي ضخم الجثة وربما يلعب الركبي لصالح «لنك وذكي»، يجلس وراء الطاولة خلف الزجاج المبرغل يدخل الأرقام في

الدفتر الأساسي ويعدّ أكوام النقود المعدنية ويتزلف إلى المدير، ويشعر بأن حياته تنمحي، وفجأة تعبث كل هذه الفوضى في أوروبا. قذائف تنفجر فوق الخنادق وموجات من المشاة تهجم عبر سحابات من الدخان وهم يحشون بنادقهم، وربما سيحارب بعض أصدقائه في اسبانيا ويتوق للمحاربة معهم ولا نستطيع أن نلومه على ذلك. انتابني شعور للحظة بأنه ابني، وبمنطق السنين يكون ذلك ممكناً، وفكرت بالأيام الحارة التي تسبب الإغماء في شهر آب (أغسطس) عندما علّق صبي الجرائد الملصق على الواجهة

انكلترا تعلن الحرب على ألمانيا فاندفعنا إلى الرصيف هاتفين ومهللين.

- اسمع يا بني إنك تفهم الأشياء بشكل خاطئ، لقد توهمنا في عام 1914 بأنها حرب مختلفة وأنها عمل مجيد لكنها في الحقيقة لم تكن كذلك، وإنما كانت فوضى قذرة، ولو حدثت ثانية سأبتعد عنها فلماذا سيملأ الرصاص جسدك؟ ابتعد عنها من أجل فتاة ما ولا تظن أن الحرب مجرد بطولات ومهمات وأوسمة لكني أؤكد لك أنها ليست كذلك، وإن اندلعت فلن تكون كما تتخيل ولن تشعر بأنك بطل ولن تذوق طعم النوم أياماً وستتعفن مثل ابن عرس وتتبول في سروالك من الخوف وتعجز عن حمل بندقيتك بيديك الباردتين لن تترك أي أثر بالطبع وسيعتبرونك منقرضاً أو

ربما تقع بباب أحد المحلات تحتل الأجهزة. لكن كل هذا لا يقارن بما سيحدث بعد الحرب.

بدأ الناس بالانصراف وغادر ويت شيت المحتضر إلى بيته بينما سار الشيوعيون الثلاثة ومعهم اليهودي لكنهم عادوا ثانية إلى النضال العمالي والديالكتيك وما قاله تروتسكي عام 1917 ولا عجب فهم متشابهون!

كانت ليلة مظلمة جداً وماطرة حيث بدت المصابيح المعلقة التي تضيء الشارع كالنجوم، وسمعت من بعيد دوياً على طول الطريق الدولي. كانت تتملكني رغبة في أن أحتسي شيئاً لكن الساعة تجاوزت العاشرة وأقرب حانة تبعد بضعة ميل إضافة إلى أنني كنت بحاجة إلى شخص أتحدث إليه في قضايا هامة ليست الحانات مكانها المناسب.

ومن المضحك أن دماغي كان نشيطاً طوال اليوم، وذلك عائد إلى عدم ذهابي إلى العمل، وإلى أسناني الاصطناعية الجديدة التي كان لها دور في تحسن وضعي بشكل أو بآخر. وهكذا أمضيت اليوم كله مفكراً في الماضي وكذلك في المستقبل الآتي. أردت التكلم عن الزمن الصعب والرديء الذي قد يأتي أو لا يأتي، وعن الشعارات والقمصان الملونة والرجال المنظمين في أوروبا الشرقية الذين سيهصرون جوف انكلترا المحجور. إن التحدث مع هيلدا محاولة يائسة، لهذا خطر لي الذهاب إلى صديقي العجوز

بروثيروس الذي يظل مستيقظاً حتى وقت متأخر. بروثيروس هذا مدرّس متقاعد يسكن في الدور الأرضي من بيت في القسم القديم من البلدة قرب الكنيسة، كما أنه أعزب ووحيد مع كتبه وغليونه ولديه امرأة تقوم بأعمال البيت. إنه ملمّ باللغتين الإغريقية واللاتينية وكذلك في الشعر، وإذا كان نادي الكتاب اليساري يمثل التقدم فإن بروثيروس يمثل الثقافة، وكلاهما غير نافعين في بلدتي.

كانت غرفة العجوز بروثيروس الصغيرة مضاءةً حيث كان يجلس ويقرأ طيلة ساعات الليل. نقرت الباب بهدوء فجاء متهادياً ببطء كعادته واضعاً غليونه بين شفتيه وأصابعه داخل الكتاب ليحافظ على مكان الصفحة حيث كان يقرأ. إنه رجل ذو طلعة جذابة وشعر رمادي مجعد ووجه نحيل حالم باهت اللون صبياني، على الرغم من أنه في الستين من عمره؛ ومما يثير الضحك هو نجاح بعض مدرّسي المدارس والجامعات في المحافظة على الظهور بمظهر الأولاد إلى يوم مماتهم، ويتجلى ذلك في حركاتهم. فلدى العجوز بروثيروس طريقة في المشي ذهاباً وإياباً بوجهه الوسيم وشعره المجعد فيتراجع إلى الوراء كأنه يحلم بقصيدة دون أن يشعر بما حوله، ولا يمكنك النظر إليه دون أن تدرك أنه عاش في مدرسة أكسفورد لكن أخيراً عاد إلى مدرسته القديمة. حياة كاملة عاشها في جو من الإغريقية واللاتينية ولعبة الكريكت والسلوك المميز؛ وله طريقة

في ارتداء ملابسه، إذ يرتدي دائماً سترة صوفية ثمينة ولد هاريس وسروالاً رمادياً، يدخن الغليون ويحتقر السجائر، وعلى الرغم من بقائه ساهراً حتى منتصف الليل إلا أنه يستحم كل صباح بالماء البارد. وكان رأيه فيّ، على ما أعتقد، أنني شخص مرح وقليل التهذيب نوعاً ما، فأنا لم ألتحق بمدرسة خاصة ولا أعرف اللاتينية، وكان يقول لي إنني لا أتأثر بالجمال، وهو المرادف الآخر للقول إنني غير متعلم. رغم هذا فأنا أحبه، وهو مضياف على أكمل وجه ومستعد دائماً لاستقبال الضيوف والتحدث ساعات طويلة وتقديم الشراب الذي يكون في متناول اليد. عندما تسكن في بيت مثل بيت ونرج تحت عينه زوجة وأولاد يصبح من المستحيل الخروج إلى جو العروبية حيث لا تشعر بأهمية شيء سوى الكتب والشعر والتماثيل الإغريقية، إذ لا شيء يستحق الذكر منذ أن غزا القوطيون روما يا لها من راحة!

أجلسني على مقعد جلدي بجانب الموقد، وقدم لي الويسكي والصودا. لم أرَ غرفة جلوسه دون أن تكون معتمة بدخان غليونه، فالسقف أسود والجدران مغطاة بالكتب من الأرض إلى السقف ماعدا الباب والنوافذ وفوق الموقد، ويمكنك أن تجد أي شيء تتوقعه على خزانة أدوات المطبخ، فهناك صف من الغلايين القديمة المتسخة ومصباح فخاري حفره وأخرجه من صقلية بنفسه، وصور لتماثيل إغريقية

بأجنحة ورؤوس مقطوعة ومسرعة كأنها تحاول التحليق بحافلة. وأتذكر كم تدهش العجوز بورتيوس عندما سألته، دون دراية، لماذا لم يضعوا لها رؤوساً.

بدأ بورتيوس بصب قليل من مطربان على الخزانة وقال متذمراً بأن المرأة التي لا تطاق والتي تسكن القسم العلوي اشترت مذياعاً وكان أملي في أن أعيش ما تبقى من حياتي بمعزل عن ضجيج هذه الأشياء. هل تظن أننا نستطيع فعل أي شيء معها؟ وهل تعرف الوضع القانوني؟ أخبرته بأننا لا نستطيع فعل أي شيء، لكني أعجبت بطريقته الأكاديمية في قوله (لا تطاق)، وأضحكني وجود إنسان في عام 1938 يعترض على وجود مذياع في البيت. كان بورتيوس يتمشى ذهاباً وإياباً بطريقته المعتادة واضعاً يديه في جيوبه وبهيئته الحالمة، وبدأ حديثاً عن قانون ما ضد الآلات الموسيقية في أثينا في عهد بيركليز؛ الأمور دائماً هكذا مع بورتيوس، فكل أحاديثه تدور عن أشياء وقعت منذ قرون، وكيفما بدأت الحديث يعود إلى التماثيل والشعر والإغريق والرومان. فإن ذكرت الملكة فيكتوريا يخبرك عن السفن العتيقة ذات الثلاثة مجاديف.

إنه لم يقرأ أي كتاب حديث، ويرفض معرفة حتى أسمائها، ولم ينظر قط إلى أي جريدة سوى التايمز، ويفخر بأنه لم يذهب إلى السينما أبداً، ويعتبر الألفي سنة الأخيرة

كلها عالماً حديثاً ويستثني منها بعض الشعراء أمثال كيتس ووردسويرث.

أنا جزء من العالم الحديث لكنني أحب سماع ما يقول وهو يمشي حول الرفوف حيث يخرج كتاباً تلو الآخر، وبين الحين والحين يقرأ لك قطعة وسط سحابات دخان غليونه يكون قد ترجمها عادة من اللاتينية، أو يقوم بمهمة الترجمة أثناء مشيه. إنه نوع مسالم ورقيق، معلّم مدرسة سوفيجي، يريحك الاستماع إليه ويبعدك عن عالم الترامات والموتيرات والعجز وشركات التأمين، إلى عالم كله معابد وأشجار زيتون وطواويس وفيلة ورجال بشباكهم ورماحهم ذات الرؤوس الثلاثية، وأسود مجنحة ومشانق وآلات منجنيق وجملات وقادة في دروع نحاسية تدوس خيولهم فوق رؤوس الجنود؛ لهذا من السخف أن يصادق وينسجم مع رجل مثلي، لكن من إيجابيات الرجل السمين القدرة على التأقلم في أي مجتمع، بالإضافة إلى أننا نلتقي في شيء مشترك يتعلق بالقصص الخليعة، وهي الشيء المشجّع الوحيد الذي يهتم به رغم أنه يذكرني دائماً أنها ليست حديثة لكنه في الحقيقة كان حرّاً في هذا المجال. فكان يحكي لي دائماً قصة ولكن بطريقة مستورة، وأحياناً ينتقي شاعراً لاتينياً ويترجم أشعاراً بذيئة تاركاً الكثير لخيالك، أو يلمّح إلى حياة أحد الأباطرة الروم الخاصة والأشياء التي حدثت في معبد عشتار، ويبدو

أن هؤلاء الرومان والإغريق كانوا فاسقين جداً. كذلك لدى العجوز بروثيروس لوحات زيتية جدارية لمكان ما في إيطاليا يقف لها شعر الرأس.

عندما أملّ التنس وحياة البيت يفيدني كثيراً الذهاب إلى بروثيروس لأتحدث معه، لكن هذه الليلة لا تبدو كمثيلاتها إذ لا يزال تفكيري منشغلاً، ومثلما فعلت في محاضرة نادي الكتاب اليساري لم أكن أصغي إلى بروثيروس. كنت أسمع صوته فقط الذي لم يدخل تحت جلدي بعكس صوت المحاضر. كان هادئاً جداً واكسوردياً تماماً، وأخيراً وعندما كان في سياق قوله حول شيء ما قاطعته وقلت:

- أخبرني يابروثيروس عن رأيك بهتلر.

اندهش جداً وأخرج غليونه من فمه.

- أتقصد هتلر ذلك الرجل الألماني؟ أنا لا أفكر فيه يا صديقي العزيز.

- لكن المشكلة أن هذا الساقط هو الذي يجبرك أن تفكر فيه قبل أن يموت.

خجل العجوز بروثيروس من كلمة (ساقط) وتابع مشيه ونفث دخانه:

- أنا لا أرى سبباً للاهتمام به، إنه مجرد مغامر، وأمثال هؤلاء يأتون ويروحون، إنهم مؤقتون جداً.

لم أكن أعرف معنى مؤقتين لكنني تشبثت برأيي،

أعتقد أنك مخطئ لأن هتلر شيء مختلف، وأيضاً جو مثالي، فهما ليسا مثل رجال العصور القديمة الذين صلبوا الناس وقطعوا رؤوسهم من أجل التسلية. إنهم يسعون لإحداث شيء جديد تماماً، شيء لم يسمع به أحد من قبل.

يا صديقي العزيز لا يوجد ما هو جديد تحت الشمس.

طبعاً هذا هو قول بروثيوس المفضل، وهو لم يسمع بوجود أي جديد. وكلما أخبرته عن شيء يحدث في العصر يقول لك إن الشيء نفسه حدث في حكم الملك فلان، حتى لو تكلمت عن الطائرات سيرد عليك إنها كانت في كريت أو ميسينيا أو أي مكان آخر في اليونان. حاولت جاهداً أن أشرح له ما شعرت به أثناء المحاضرة التي ألقاها الرجل الصغير، والرؤى التي تصورتها عن الزمن الرديء القادم لكنه لم يصغ واستمر بتكرار عبارته عن عدم وجود أي جديد تحت الشمس، وتناول كتاباً عن الرف وقرأ منه مقطعاً عن طاغية إغريقي عاش في عصور ما قبل الميلاد بدا كأنه الأخ التوأم لهتلر. استمر النقاش قليلاً لأنني كنت أريد التكلم مع أي أحد.

من المضحك أنني لست مثقفاً ولست أحمق في ذات الوقت، وفي أغلب الأوقات العادية ليس لدي اهتمامات غير متوقعة من شخص في أواسط العمر، متزوج وله طفلان،

ودخله سبعة جنيهات في الأسبوع، ومع ذلك أحس إلى درجة كافية بأن الحياة القديمة التي اعتدنا عليها سوف تتأصل من جذورها، وأرى الحرب القادمة وما بعد الحرب أيضاً، وطوابير الطعام والشرطة السرية ومكبرات الصوت التي تملي ما يجب فعله. لست الاستثناء الوحيد إذ يوجد ملايين آخرون مثلي من الرجال العاديين الذين أقابلهم في كل مكان، إنهم رجال أصادفهم في الحانات وسائقو حافلات وباعة متنقلون، كلهم يحسون أن العالم يسير في الاتجاه الخاطئ، أما هذا الرجل المتعلم والمثقف الذي أمضى حياته مع الكتب وينقع نفسه في التاريخ لا يستطيع أن يرى بأن الأشياء تتبدل، ولا يعتقد بأهمية هتلر، ويرفض تصديق قدوم الحرب. لو شيكة ربما لأنه لم يشارك في الحرب الأخيرة، ولم تدخل في صميم أفكاره. كذلك يعتقد أنها عرض تافه مقارنة بمشهد حصار طروادة، ولا يفهم لماذا الاهتمام بالشعارات ومكبرات الصوت والقمصان الملونة، وهو يكرر دائماً من هذا الذكي الذي يهتم بمثل هذه الأشياء. سيندثر هتلر وستالين لكن الأشياء التي يسميها العجوز بورتيوس - حقائق أبدية - ستبقى وهذا شكل آخر للقول بأنّ الأشياء سوف تستمر بذات الدقة التي عرفناها منذ الأزل وإلى الأزل. إنهم مثقفو أكسفورد الذين يتمشون في مكاتبهم المليئة بالكتب ويقتبسون اللاتينية ويدخنون التبغ الجيد المعهورة بشعار الدولة. إن الحديث معهم بلا جدوى.

لقد أثر الشاب ذو الشعر الملون المترسل في نفسي، تحول النقاش بالتدريج كما يحدث دائماً إلى الحديث عن أشياء حدثت قبل الميلاد، ثم عن الشعر، وسحب برثيوس كتاباً آخر عن أحد الرفوف، وبدأ يقرأ قصيدة كيتس أغنية إلى عندليب أو ربما كانت قبرة . وعلى الرغم من قلة اهتمامي بالشعر لكن الحقيقة الغريبة هي أنني أحب سماع العجوز برونثيوس وهو يتلوه بصوته العالي، ولا شك في أنه يقرأ بشكل جيد، فقد اعتاد على ذلك من قراءاته للطلاب في الصعوف ، إذ يتكئ على شيء وغليونه في فمه وينبعث منه سحب من الدخان تخرج مترافقةً مع صوته الرزين الذي يرتفع وينخفض مع الأبيات، حيث نرى تأثره وانفعالاته.أنا لا أعرف ما هو الشعر، وما يجب أن يسبب، وأعتقد أن له تأثيراً عصبياً على بعض الناس مثل الموسيقى، لكن عندما يتلو برونثيوس الشعر أنا لا أصغي إليه فعلياً مما يعني أنني لا أستوعب الكلمات. ولكن صوته كان يجلب لي الشعور بالسلام والطمأنينة اللذيذة أحياناً كهواء بارد يهب في الغرفة لقد شعرت أن هذا ركام الشعر! ما هو الشعر؟ إنه نعمة، هبة تيار في الهواء، وماذا ستكون فائدته في التصدي للبنادق الآلية؟ نظرت إليه وهو مستند إلى رف الكتب. كم أنهم مضحكون رجال المدارس، فهم يظلون حلاماً باستمرار، وكل همومهم تدور حول المدرسة والدراسات القديمة وبعض قطع صغيرة من اللاتنية واليونانية والشعر؛ وقد تذكرت أول مرة

تأملت فيها بروثيروس، فقد قرأ لي ذات القصيدة وبذات الأسلوب، وارتجف صوته عند ذات المقطع عن اللوحة السحرية، كذلك خطرت في بالي فكرة أن هذا الرجل ميت، إنه شبح، وأمثاله من الناس أموات. وخطر في بالي أيضاً أنّ كثيراً من الناس الذين نراهم يمشون هم أموات. ويقول إن الشخص قد مات عندما يتوقف قلبه، لكن الأمر ليس كذلك ويبدو اعتباطياً لأن أجزاء من الجسم لا تتوقف عن العمل، فالشعر مثلاً يستمر في النمو سنوات. ربما يموت الإنسان عندما يتوقف دماغه، وأقصد عندما يتوقف دماغه عن استيعاب أفكار جديدة، والمثال على ذلك العجوز بروثيروس فهو متعلم ومثقف جداً، وله ذوق رفيع لكنه عاجز عن التغير والتبدل، ويقول الأشياء نفسها ويجتر ذات الأفكار المرة تلو الأخرى، وأمثاله كثيرون، إنهم عقول ميتة ومتوقفة عن العمل من الداخل وتتحرك للأمام وللخلف فقط وبنفس المسار الصغير ليذبلوا باستمرار كالأشباح.

أعتقد بأنّ العجوز بروثيروس قد توقف عن التفكير منذ الحرب الروسية اليابانية تقريباً. يا له من رعب! إن كل المحترمين الذين لا يريدون تحطيم الوجوه بمفاتيح الربط مثل بروثيروس مهذبون ومحتشمون، لكن عقولهم توقفت ولا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم ضد ما هو قادم لأنهم عاجزون عن رؤيته حتى لو كان أقرب من أرنبة أنوفهم. إنهم يؤمنون أن انكلترا لن تتغير، وأنها كل العالم، ولم يدركوا أنها مجرد

بقايا وركن صغير جداً صادق أن أحطأت القاتل، لكن منذ من الرجال الحاليين في أوروبا الشرقية، هؤلاء الرجال المنظمون والمؤمنون بالشعارات، فهم يتحدثون بالرصاص، إنهم قادمون في طريقهم إلينا، ولن يمر وقت طويل حتى يلحقوا بنا، وليس عندهم قوانين مركز كويربري وسيقتلون كل المثقفين. رجال أموات وغوريلات أحياء ولا يبدو وجود أي شيء بينهما.

انصرفت بعد نصف ساعة بعد فشلي التام في إقناع العجوز بروثيرس بأهمية هتلر، ومشيت عبر الشوارع المرتعدة وأنا لا أزال أفكر بذات الأفكار. توقف الترام عن السير.كان البيت مظلماً وهيلدا نائمة. تدحرجت إلى الطرف الآخر من السرير دون أن تستيقظ، وكانت الحدبة التي بين كتفيه من جهتي مضحكة تلك الكآبة الهائلة التي تسيطر عليك طوال الليل؛ وبدا لي قدر أوروبا مهماً أكثر من الإيجار وفواتير المدرسة وعملي الذي يجب أن أقوم به غداً. لكن في لحظة أخرى بدت مثل هذه الأشياء مجرد حماقة كبيرة لشخص عليه كسب قوته. لكنها لم تخرج من تفكيري ولا تزال رؤى القمصان الملونة وصوت البنادق الآلية تملأه، وآخر شيء أتذكره قبل أن أنام هو عجبي من اهتمام شخص مثلي في مثل هذه المواضيع.

2

تفتحت أزهار الربيع، ولهذا أفترض أنه يوم من أيام شهر آذار (مارس). كنت أقود سيارتي عبر وستر هام متوجهاً إلى بطلي لإجراء تخمين لمحل تاجر حديد تلاعب بالرصيد وسيواجه قضية تأمين وقد اعتراه الخوف والشك في إمكانية الدفع في اللحظة الأخيرة. إنني أجيد التحدث إلى الناس بالإضافة أن بداتتي تساعدني في ذلك لأنني أضفي لهم جو مرح مبهج يشعرهم بالارتياح، وبأن الأمور سوف تسير على أفضل ما يرام بما في ذلك مسألة توقيع الشيكات بحيث توجد طرق مختلفة للتعامل مع بالإشارة إلى ما يمكن أن يحدث لزوجاتهم إن ماتوا دون تأمين.

انطلقت السيارة القديمة متعرّجة تصعد وتهبط على التلال الوعرة. ولقد كان يوماً رائعاً من أيام آذار (مارس) عندما يتخلى الشتاء عن برده، وبعد أيام من الطقس الموحش أو ما يسميه الناس بالساطع، أي عندما تكون السماء زرقاء باردة وقاسية والرياح تخدشك مثل شفرة حلاقة مثلمة، وفجأة تهدأ الريح وتظهر شمس صفراء باهتة وسكون لا يحرك حتى الورقة، وفي الأماكن البعيدة، ومن خلال السديم تنتشر الأغنام على سفوح التلال وهي ترعى مثل ألواح الطباشير، أما الأودية فلا تزال النار مشتعلة فيها، ويتلوى الدخان

صاعداً للأعلى وبطء. كان الجو دافئاً لدرجة أنه يمكنك أن تنزع ثيابك. وعندما وصلت إلى مقعة طينية من الطريق كان فيها العشب مغطى بزهرة الربيع تباطأت وتوقفت على بعد عشرين ياردة. كان الطقس لا يفوّت فشعرت بضرورة الخروج من السيارة لشم الهواء وقطف باقة زهر لهيلدا إن لم يكن هناك قادم على الطريق.

أطفأت محرك السيارة وترجلت. لا أحب أن أترك محرّك السيارة يعمل وهي متوقفة إلى جانب الطريق لأنني أخاف أن تنخلع الرفارف لأنها من طراز العام 1927؛ لقد قطعت فيه أميالاً كثيرة، وعندما ترفع الغطاء وتنظر إلى المحرك يذكرك بإمبراطورية النمسا القديمة، فهي مربوطة بقطع من الخيوط لكن قوابسها موصولة ولا توجد أية آلة مثلها تتحرك في اتجاهات مختلفة في الوقت نفسه كحركة الأرض التي لها اثنان وعشرون نوعاً مختلفاً من الاهتزازات. وإن نظرت إليها من الخلف وهي تعمل فكأنك تشاهد إحدى فتيات هاواي وهي ترقص الهولا هولا.

كانت هناك خمس بوابات مسدودة بجانب الطريق فاستندت إلى واحدة منها لكني لم ألحظ أي روح على مدى النظر. دفعت قبعتي إلى الخلف قليلاً لأحصل على قليل من الهواء حيث كان العشب وراء السياج مملوءاً بأزهار الربيع، وهناك آثار أقدام خلف البوابة، وشخص ترك بقايا نار، كومة

صغيرة من جذوة جمرات بيضاء وخيط من الدخان لم يشع ينسل منها. ابتعدت قليلاً فرأيت بركة صغيرة يغطيها طحلب البط. وبعدها شاهدت حقلاً من القمح الشتوي ثم جرفاً كلسياً وأيكة زان وبعض الأوراق الصغيرة على الأشجار. سكون ليس فيه ريح تحرك رماد النار وهدوء مطبق لولا صوت قبرة في مكان ما. صمت لا يعكر صفوه ولا حتى صوت طائرة.

بقيت قليلاً مستنداً إلى البوابة وقد كنت وحدي تماماً أتأمل حقل القمح وهو يتأملني، وشعرت بشيء لم آلفه في أيامنا المعاصرة. لقد شعرت بأنني سعيد ولو لم أعش إلى الأبد، فأنا مستعد لذلك، ويمكنك القول إن أردت إن سبب ذلك يعود إلى اليوم الأول من الربيع. إنه التأثير الفصلي على الغدد الجنسية وما شابهه لكن الأمر أكثر من هذا بكثير. لقد أقنعني شيء ما وفجأة أن الحياة تستحق العيش. منظر نار الحطب في يوم ساكن، وتلك العصي التي تحولت إلى رماد أبيض ولا تزال تحتفظ بشكلها، ومن تحت الرماد يلوح اللون الأحمر الزاهي في داخلها. والغريب أن منظر الجمرة الحمراء الحية يشعرك بالحياة أكثر من أي شيء حي. كذلك يوجد فيه سر من الكثافة والاهتزاز؛ لا يمكنني وصف ذلك بالكلمات لكنها تجعلك تدرك أنك حي كالـقمة التي في اللوحة الفنية التي تمكنك من فهمها كلها.

انحنيت لأقطف زهرة ولم أتمكن بسبب كرشي الكبير فجلست القرفصاء على كعبي وقطفت باقة صغيرة. ومن حسن الحظ لم يكن هناك أحد. كانت الأوراق مشعّبة تشبه آذان الأرانب، وقفت ووضعت الباقة على عمود البوابة وبعدها أخرجت أسناني الاصطناعية بدافع غريزي ونظرت إليها، ولو كان لدي مرآة لنظرت إلى نفسي كلها، لكني أعرف كيف أبدو سلفاً. رجل يبدو في الخامسة والأربعين أرتدي ثياباً رمادية سيئة وقبعة مدورة وعندي زوجة وولدان وبيت في الضاحية؛ كل ذلك بادٍ عليّ مع وجه أحمر وعينين زرقاوين مهتاجتين، أما أسناني فكانت الشيء الذي أدهشني عندما ألقيت عليها نظرة قبل إرجاعها إلى فمي لذلك، فلا أسناني مهمة ولا حتى بدانتي أيضاً. نعم أنا أبدو مثل سمسار مراهنات فاشل، وليس هناك امرأة تشاركني السرير إلا إذا دفعت لها لقاء ذلك. أعرف كل هذا وأقول ليس مهماً ولا أريد النساء ولا حتى أريد أن أعود شاباً ثانية، فقط أريد أن أكون حياً وأنا حي عندما نظرت إلى زهور الربيع وجذوة الجمر التي تحت السياج إنه شعور داخلي بالسلم والطمأنينة يشبه الشعلة. بدت البركة المغطاة بطحلب البط كالسجادة، وإن كنت لا تعرفه فستظن أنه صلب، ويمكنك أن تسير فوقه. كم نحن أغبياء وقذرون جداً! لماذا لا يتمشى الناس وينظرون إلى الأشياء بدلاً من الملاهات التي يهدرون وقتهم فيها؟

البركة مثلاً، وكل الأشياء التي فيها من علق وذباب وخنفس الماء وحلزون الماء، ويعلم الله عدد الأشياء الأخرى التي يمكن رؤيتها بالمجهر. يمكنك قضاء عمرك وعشرة أمثاله وأنت تراقبها دون أن تنتهي من بركة واحدة. كل هذه الفترة وأنا أشعر بالتعجب من الشعلة الداخلية الوحيدة الجديرة التي لا نريدها. لكنني أريدها وهذا ما اعتقدته في هذه اللحظة. لا أحد مهم ما أقول وأنني بعكس اغلب السكان المحليين، فأنا لست متعصباً للريف، ولا أريد منع الناس من السكن في المدينة أو الضواحي. دعهم يعيشون أينما أرادوا. ولا أقترح على الناس أن يمضوا حياتهم في التسكع وقطف الأزهار لأنني أعرف أنه يجب أن نعمل، وأن هناك رجالاً يتقيأون رئاتهم في المناجم وفتيات يعملن على الطابعات كالمطارق لدرجة لا يتسع فيها الوقت لقطف زهرة، وإن كان بطنك مليئاً وبيتك دافئاً فإن قطف الأزهار ليس مهماً أو مرغوباً.

هذا هو شعوري وإحساسي الداخلي، وأعترف أنه ليس دائماً لكنه ينتابني ويعصرني بين الحين والآخر. هذا الإحساس الطيب الذي تحس به أنت وكل الناس وتعرفونه، أوقفوا إطلاق البنادق الآلية والمطاردة والللهاث واهدأوا ولتقطعوا أنفاسكم. اتركوا قليلاً من السلام يتسرب إلى عظامكم. لكنكم مستمرون بارتكاب ذات الحماقات القذرة

تلوح الحرب الثالثة في الأفق، وبعضهم يقول في عام

194، أي بعد ثلاث دورات للشمس إننا سننطلق إليها بسرعة خاطفة وستهطل القنابل علينا مثل السجائر السوداء، وستنهمر الطلقات الإسبانية من بنادق برن الآلية، وستكون هناك غارات جوية طبعاً لكنها لن تصيب الكل، وهذا ليس من الحسابات الخاصة المسبقة. لن يقلقني ذلك كثيراً لأنني تجاوزت سن القتال، وأكرر ما قلته مرات من قبل بأنني لست خائفاً من الحرب بمقدار مما هو آت بعدها، وحتى هذا قد لا يؤثر علي بشكل خاص لأنه ليس هناك من يهتم برجل سمين مثلي! لن أكون مطلوباً سياسياً ولن يضربوني بالعصي المطاطية، فأنا من وسط الناس العاديين، وأتحرك حسب أوامر الشرطة، أما هيلدا والصغار ربما لن يلاحظوا أي اختلاف وعلى الرغم من ذلك فالحرب ترعبني والأسلاك الشائكة والشعارات والوجوه الكبيرة والأقبية المرصوفة ورائحتها النتنة والجلادون الذين يطلقون عليك النار من وراء ظهرك في داخلها. لكن لماذا هذا الخوف، إنها تخيف من هم أقل ذكاء مني؟ إنه السبب نفسه الذي أخبرتك عنه مسبقاً، ذلك الشعور الخاص في داخلك وإن شئت سمه السلام، وما أقصده ليس عدم وجود حالة حرب وإنما السلام داخل النفوس الذي سيتلاشى وإلى الأبد إن وضع صبيان العصي المطاطية أيديهم عليك. التقطت باقة الزهر وشممتها وأنا أفكر بينفيلد، والمضحك في الأمر أنها تروح وتأتي وتشغل بالي

منذ شهرين، وبعد عشرين سنة من النسيان الفعلي. سمعت هدير سيارة قادمة على الطريق في تلك اللحظة مما أوقعني فيما يشبه الصدمة لأنني أدركت ما كنت أعمله فجأة، أي التجول وقطف الزهور بدلاً من الوقوف على رأس العمل أدقق وأجرد محل تاجر الحديد في بودلي. والأدهى لو رآني الناس الذين في السيارة وتساءلوا عما يعمله رجل بدين بقبعة مدورة وباقة أزهار. لن يبدو ذلك مناسباً أبداً، ويجب أن لا يقطف البدينون الزهور. هناك متسع من الوقت لرميها وراء السياج قبل أن تكون السيارة في مدى الرؤية، تلك السيارة التي كانت مملوءة بأغبياء صغار في حوالي العشرينيات من أعمارهم إذ عندما شهدوني ضحكوا كثيراً وأطالوا النظر إلي. أنت تعرف كيف ينظر إليك الناس وهم في سيارة، ولقد خطر لي أنهم ظنوا شيئاً آخر ما الذي يدفع رجلاً بديناً للخروج من سيارته والوقوف بجانب الطريق؟ واضح، وعندما تجاوزتني السيارة تظاهرت بزر السروال.

أدرت محرك السيارة بذراع كي لأن المشغل لا يعمل وانطلقت الغريب أنه في اللحظة التي كنت أزرر فيها السروال كان ثلاثة أرباع عقلي مشغولاً بهؤلاء الحمقى الصغار بعدها خطرت في بالي فكرة رائعة. سأرجع إلى بينفيلد ولم لا؟ كنت أسير بسرعة وأنا أفكر لماذا لا أعود؟ وما المانع؟ كل ما أشتهيه إجازة هادئة في منعزل. لا تظن أنني أريد العودة

للعيش هناك ولا أخطط لهجر هيلدا والأولاد لأبدأ حياة جديدة تحت اسم مختلف، فهذا يحدث في الروايات فقط لكن ما الذي يمنعني من الذهاب وقضاء أسبوع هناك؟

تراءى لي أنني خططت لهذا في ذهني مسبقاً وسيكون الأمر مناسباً أكثر إن توافرت النقود.

لا تزال الاثنا عشر جنيهاً مخبأة، وهذا ما يمكنني من قضاء أسبوع مريح. فكل سنة أحصل على إجازة مدتها نصف شهر، وعادة ما تكون في آب (أغسطس) أو في أيلول (سبتمبر) لكني إن لفقت قصة مناسبة مثل موت قريب لي جراء مرض عضال أو أي شيء يقنع الشركة أن تعطيني إجازتي على شكل أسبوعين منفصلين في أيار (مايو) مثلا حين يزهر الزعرور لأتمكن من قضاء أسبوع وحيداً دون دراية هيلدا أسبوع في بينفيلد بدون هيلدا والأولاد والفلاينغ سلامندرز وايلسمير والعراك حول أقساط البيت وضجيج السيارات لدي يدفعني إلى الجنون. أسبوع كامل من التسكع والاستمتاع بالهدوء! لكن لماذا بينفيلد بالذات؟ وما هي مآربي وأغراضي؟ لم أنوِ فعل أي شيء.. كل ما أردته السلام والهدوء. ذلك السلام الذي عشناه مرة في بينفيلد! ولقد أخبرتك سابقاً شيئاً عن حياتنا القديمة هناك قبل الحرب ولا أزعم أنها كانت مثالية، بل أجرؤ وأقول إنها كانت حياة كسل وبلادة مثل حياة الخضار أو اللفت إن أحببت، لكنه لفت لا يعيش مع الرعب من رئيس العمل ولا قضاء الليل

في التفكير بتدهور الأسعار ولا الحرب القادمة. كان السلام يعشش في داخلنا وأعرف أنّ الحياة في بينفيلد تبدّلت لكن المكان ظل نفسه، ولا تزال هناك غابة الزان حول بينفيلد والطريق الترابي بالقرب من برموردوير ومعلف الخيل في السوق. أريد العودة إلى هناك لأسبوع واحد فقط كي أفسح المجال لذلك الشعور بالتغلغل إلى داخلي مثل حكماء الشرق المتقاعدين المعتزلين في الصحراء؛ بعد ذلك فكرت بالطريقة التي ستسير فيها الأمور ووجدت أنّ عدداً كبيراً من الناس سيعتكفون في الصحراء في السنوات القليلة القادمة وسيكون ذلك شبيهاً بعصر روما القديمة الذي حدثني عنه بروثيروس إذ حيث يوجد عدد كبير من النساك توجد قائمة انتظار في كل كهف وغار.

إنّ ما أردته ليس النظر إلى سرّتي بل استعادة قوة تحملي قبل أن يبدأ الزمن الرديء الذي لا يشك بحتمية قدومه الوشيك سوى الأموات. قد لا نعرف كيف سيكون شكله لكننا متأكدون من قدومه وربما يكون حرباً أو كارثة اقتصادية. لا ندري لكنه سيكون منتهى السوء. فأينما ذهبت ستكون الهاوية، وقد يكون الموت أو أوكار الفساد. لقد خرج شيء ما في العشرين سنة من الحرب وهو عصارة الحيوية التي أحرقت ولم يبقَ شيء منها؛ كل هذا الاندفاع في الذهاب والإياب والتزاحم الأبدي من أجل حفنة صغيرة من القروش

وضجيج الحاملات والقنابل وأجهزة الراديوهات وأجراس الهاتف التي دمرت وأتلفت أعصابنا وفتتها إلى قطع صغيرة وشخرت تي عظامنا.

ضغطت بقدمي على دواسة الوقود. عاودتني فكرة العودة إلى بيتفيلد بالذات، وتمزق الشعور الذي تملكني والصعود من اجل الهواء مثل سلاحف البحر الكبيرة التي تصعد مجلدة إلى السطح لتمد أنوفها خارج الماء وتملأ رئتيها بجرعة كبيرة قبل أن تغطس في الأعماق بين أعشاب البحر والأخطبوطات. نحن مختنقون في قعر حاوية زبالة لكني وجدت طريقاً يؤدي إلى القمة وهو العودة إلى بيتفيلد. واصلت الضغط على الدواسة حتى وصلت سرعة السيارة حوالي الأربعين ميلاً في الساعة، وكانت تقرقع مثل صبية مليئة بالخزفيات عندما بدأت بالغناء وسط هذا الضجيج.

لكن اللبابة التي ستعقد إبريق الحليب هي هيلدا أحبطني ذلك الهاجس فتباطأت سرعتي إلى حوالي العشرين لكي أقلب الأمر في رأسي. لاشك بأن هيلدا ستكتشف الأمر عاجلاً أم آجلاً عندما تعرف أن إجازتي في شهر آب (أغسطس) هي أسبوع واحد فقط، لكن بإمكاني النجاح في تجاوز ذلك بإخبارها أن الشركة لم تعطني سوى أسبوع إجازة واحد هذه السنة وربما تطير من الفرح جراء تقليص المصاريف. لكن الصعوبة تكمن في إيجاد عذر لغياب ذلك الأسبوع من أيار

(مايو) ولا أستطيع المغادرة دون أن أترك ملاحظة. وبعد التفكير رأيت أن أخبرها قبل فترة معينة بأن الشركة سترسلني في مهمة خاصة إلى نوتنغهام أو ديربي أو بريستول أو أي مكان بعيد. وإن أخبرتها قبل أسبوعين قد يبدو الأمر طبيعياً وأنني لا أخفي شيئاً ورغم هذا سوف تعرف.

ثق بهيلدا! ستتظاهر بأنها تصدق عذرك لكنها ستتحرى الحقيقة بأسلوبها الهادئ والعنيد وستعرف أني لم أكن في أي من تلك الأماكن. تدهشني بنجاحها في المواظبة إذ تبقى هادئة إلى أن تكتشف كل النقاط الضعيفة، ثم تجر قدمك من خلال ملاحظة عابرة وتهجم عليك مخرجة ملف القضية كله. أين قضيت ليلة السبت؟هذه كذبة، كنت مع امرأة، أنظر إلى الشعر الذي وجدته أثناء تنظيفي لمعطفك. أنظر جيداً هل هذه من لون شعري؟ ويبدأ العرض والمتعة ويعلم الله كم مرة يتكرر هذا المسلسل قد تكون شكوكها أحياناً في محلها أو تكون متجنية لكن النتائج اللاحقة دائماً متماثلة. أسابيع من الإزعاج والمضايقات المستمرة إذ لا تمر وجبة دون شجار ولا يعرف الأولاد سبباً لذلك ويبقى الحل اليائس الوحيد بأن أخبرها أين سأمضي الأسبوع، ولماذا، لكنها لن تصدق حتى لو استمريت في الشرح والتوضيح إلى يوم الدين.

لا يهم ولتذهب إلى الجحيم. إنها بعيدة. ضغطت بقدمي على دواسة الوقود ثانية وجاءتني فكرة أعظم من

الأولى، لن أذهب في أيار(مايو) وإنما في النصف الثاني من حزيران (يونيو) عندما يبدأ موسم الصيد وسأصطاد. لكن لماذا الصيد بعد كل ذلك الوقت؟أردت السلام وصيد السمك ودخلت رأسي الفكرة الكبرى وأوشكت أن تحرفني عن الطريق، نعم سأذهب إلى الصيد وسأمسك بسمكات الكرب الموجودة في بركة بيت بينفيلد.

أقول لماذا لا مرة أخرى؟ أليس غريباً أن نمضي حياتنا ونحن نفكر بالأشياء التي نحب أن نعملها ولا نستطيع؟ لماذا لا أمسك بتلك السمكات؟ لقد بدت الفكرة شبه مستحيلة حتى في هذه اللحظة مثل حلم تحت تأثير المخدر، وكالأحلام التي تراها في نومك مع نجوم السينما أو فوزك ببطولة العالم للوزن الثقيل. لكنها ليست فكرة مستحيلة ولا غير ممكنة، ويمكن دفع إيجار يوم صيد إن كان مالك البيت قد تغير، ومن الأرجح أن البيت لا يزال فارغاً ولم يدر أحد بوجود تلك البركة في تلك البقعة المظلمة بين الأشجار فهي انتظرتني كل السنوات والسمكة العملاقة المنزلقة في الماء. يا إلهي إن كان حجمها بتلك الضخامة منذ ثلاثين عاماً فكيف أصبح الآن؟

3

التاريخ يوم الجمعة في السابع عشر من حزيران (يونيو) اليوم الثاني للصيد، لم أواجه أية صعوبة تذكر في ترتيب

الأمور مع الشركة، أما بخصوص هيلدا فقد حكت قصة محكمة ومنظمة جداً، إذ استقريت على برمنغهام كمقر، وقررت أن أخبرها في آخر لحظة باسم الفندق الذي سأنزل به (روبتيم فاميلي وكوميرشال) الذي صادف أن عرفت عنوانه لأني نزلت فيه قبل سنتين، وأردت أيضاً أن لا تكتب لي إلى برمنغهام، وهو ما قد تفعله إن غبت أسبوعاً. وبعد إمعان النظر في الأمر وثقت بسوندرز وهو شاب يسافر من أجل شركة تبيع مواد ملمّعة للأرضيات. حدث أنه سيمر ببرمنغهام في الثامن عشر من حزيران، وحصلت على وعد منه أن يتوقف هناك ويبعث لي رسالة باسمي معنونة بعنوان الفندق، سأخبرها في الرسالة أنه ربما يتم استدعائي إلى أماكن بعيدة أخرى، لهذا من الأفضل أن لا تكتب لي. فهم سوندرز وقال غامزاً إن ذلك رائع وخاصة لرجل في مثل عمري وهكذا سوّي الأمر مع هيلدا ولن تسأل أو تساورها الشكوك إلا بعد وقت.

قدت السيارة عبر ويستهام. كان الصباح رائعاً وهبَّ فيه نسيم هادئ فتمايلت قمم أشجار الحور تحت الشمس، وانسابت الغيوم البيضاء الصغيرة كقطيع من الخراف، وطاردت الظلال بعضها بعضاً عبر الحقول. صادفت خارج ويستهام صبي ولاس للآيس كريم بخوذته التي تشبه النفاحة ودراجته الحديثة فأوقفته وأخذت منه واحدة. قبل لم يكون

الناس وتركوه مرمياً بجانب الطريق في صفوف لامعة ليجف، فانتقلت رائحته إلى الطريق وامتزجت برائحة الربيع.

كنت أقود ببطء حوالى خمسة عشر ميلاً في الساعة حيث الصباح هادئ وسالم والبط يطفو فوق سطح البركة دون أن يبدو عليه أنه جائع. اندفع رجل من القرية التي تلي ويسترهام فجأة من الحقل وزج نفسه في وسط الطريق، وكان يقوم بحركات يدية ليجذب الانتباه. رجل صغير في مئزر أبيض وشارب ضخم. سيارتي معروفة في الطريق كله، ضغطت على المكابح فانحرفت إلى جانب الطريق. لقد كان السيد ويمر حارس المتجر العام في القرية، وبالتأكيد هو لا يريد التأمين على حياته ولا على دكانه. لقد ركض من أجل تبديل فئة من النقود إلى فئات أصغر لأن القرية كلها ليس فيها حسابات تؤمن ذلك فوجد عندي ما يعادل جنيهاً ذهبياً.

تابعت القيادة وكانت سنابل الحنطة تصل إلى مستوى الخصر وتتموج كسجادة خضراء تتمايل والريح تهزها بلطف؛ منظر حريري وحسي مثل امرأة تناديك للارتماء بين أحضانها، ورأيت أمامي إشارة الطريق الذي يتفرع يميناً إلى بونلي ويساراً إلى اكسفورد

لا أزال على الطريق المعتاد وداخل حدود منطقتي كما تسميها الشركة. وبما أنني كنت ذاهباً باتجاه الغرب فمن الطبيعي أن أغادر لندن من طريق اكسبريدج، لكن بالغريزة

تابعت في طريقي المعتاد والحقيقة أنني شعرت بالذنب بسبب حظي، وأردت الهروب قبل التوجه إلى منطقة أوكسفورد رغم أنني رتبت الأمور بدقة مع الشركة ومع هيلدا ومع الاثني عشر جنيهاً في محفظة نقودي، وحقيبتي الموجودة في صندوق السيارة الخلفي. وكنت كلما اقتربت من التقاطع زاد شعوري بالإغراء الذي عرفت أنني لن استسلم له. لكن طالما أنا أقود في الطريق المعتاد فأنا ضمن القانون. لم يفت الأوان ولا يزال هناك الوقت للقيام بالشيء المقرر يمكنني الذهاب إلى بوطلي ومقابلة مدير بنك باركلي الذي هو عميل هناك لأعرف منه إن كان هناك وجود لشركات جديدة في المنطقة، وبعدها أشغل السيارة راجعاً وأعود إلى هيلدا وأريح ضميري من تلك المؤامرة. تباطأت عندما وصلت إلى الزاوية، هل أتابع أم لا؟ وكنت تحت إغراء فعلي لبعض الوقت.. لكن لا أطلقت بوق السيارة وانحرفت غرباً على طريق أوكسفورد.

حسناً فعلت. أنا الآن على الأرض المحرّمة، وصحيح أن خمسة أميال ليست المسافة البعيدة إن أردت أن انعطف إلى اليسار والعودة إلى ويسترهام لكني في هذه اللحظة كنت متوجهاً إلى الغرب، وبصراحة كنت في رحلة طيران إذ بمجرد وجودي على طريق أكسفورد شعرت أن الكل قد عرفوا، أقصد الناس الذين لا يستحسنون رحلة من هذا النوع والذين سيمنعونني إن استطاعوا، والأشد والأدهى شعرت بأنهم

يطاردونني. لقد كان يطاردني كل من لم يفهم سبب تسلّل رجل في أواسط عمره وبأسنان اصطناعية من أجل أسبوع هادئ إلى المكان الذي أمضى فيه طفولته. إنّ أصحاب العقول الصغيرة التافهين سيرفعون السماء والأرض لمنع ذلك، وسيسدون طريقي. إنهم مثل جيش هائل يصطف على الطريق ورائي. رأيتهم بعقلي... هيلدا كانت في المقدمة، طبعاً والأولاد متقاطرون خلفها والسيدة ويلر تدفعها للأمام مكشرة، وفي المؤخرة الآنسة مينز مسرعة ونظارتها منزلقة للأسفل والقلق بادٍ في عينيها مثل الدجاجة التي تظل في الخلف عندما تمسك الأخريات بقشرة لحم خنزير مملح. ورأيت معهم السير هربرت كروم وكبار الموظفين في الملابس الرسمية في سيارات الرولس رويس وهيسبانو سويزا وكل الرجال الذين في المكتب، وكل المسحوقين المساكين في بليتشلي ومن كل الطرق الأخرى. بعضهم يدفع بعربات الأطفال وحاصدات العشب وآلات جدل الحدائق الإسمنتية التي تسمع أصواتها في أوستن سفن وكل منقذي الأرواح ومتطفلي باركر والناس الذين لا تراهم إلا عندما يقررون مصائرك كيف تشاؤ، ووزير الداخلية وسكوتلنديارد وثلة من الأساقفة وموسوليني والبابا كلهم يطاردونني ويصيحون ذاك رجل وهم بأنه يستطيع الفرار إنه غير منضبط ويريد العودة إلى بينفيلد. اركضوا وراءه الحقوا به وأوقفوه. ومن الغريب أن الانطباع كان قوياً لدرجة أني اختلست النظر من النافذة الصغيرة التي

في مؤخرة السيارة كي أتأكد أنني لست مطاردًا. إنه ضمير المذنب ولم يكن ورائي سوى الطريق الترابي الأبيض، وصف طويل من أشجار الجوز. دست دواسة الوقود فوصلت السرعة إلى الثلاثين ميلاً، تجاوزت ويسترهام بعد بضع دقائق وكان ما كان. أحرقت كل قواربي. هذه هي الفكرة التي بدأت تتكون بنفسها وبشكل مبهم في اليوم الذي وضعت فيه طاقم أسناني الاصطناعية.

القسم الرابع

1

اتجهت إلى بينفيلد قادماً من شامفورد هيل حيث هناك أربعة طرق تؤدي إليها، لكنني فضّلت شامفورد هيل لأنه الطريق الذي كنا نسلكه بدراجاتنا ونحن عائدون إلى البيت من صيد السمك في نهر التيمز. عندما تصل إلى قمة التلّ تنزاح الأشجار مفسحة المجال كي ترى بينفيلد مستلقية في أسفل الوادي. غريب أن تعود إلى ريف بعد عشرين سنة من الغياب، وتتذكر أدق تفاصيله، لكنك تتذكرها بشكل مغلوط، فتكون المسافات كلها مختلفة ونقاط الاستعلام قد أزيلت فتشعر أن هذا التل أكثر انحداراً وذلك المنعطف كان على الجانب الآخر من الطريق. وبالمقابل فإن ذكرياتك تكون دقيقة لكنها تعود إلى مناسبة واحدة فقط. فمثلاً تتذكر أن زاوية الحقل في يوم ماطر في الشتاء والعشب أزرق من شدة خضرته الغامقة وعمود البوابة المتعفّن مغطى بالأشنيات،

وبقرة واقفة على العشب تنظر إليك وتعود بعد عشرين سنة وتندهش لأن البقرة ليست واقفة في ذات المكان وتنظر إليك بذات التعبير

بينما كنت أقود إلى كرامفورد تأكدت أن الصورة التي في ذهني خيالية تماماً وقد تغيرت أشياء كثيرة في الواقع. فمثلاً الطريق الآن مفروشة بالإسفلت بينما كانت في الماضي مرصوفة بالحصاء، وأتذكر شعوري بوعورته تحت عجلات الدراجة كما يبدو أنه أصبح أوسع وقلّ عدد الأشجار كثيراً ففي الأيام الماضية كانت أشجار الزان الضخمة مزروعة كسياج حتى أن أغصانها تتلاقى فوق الطريق في بعض الأماكن، أما الآن فتلاشت كلها. ووصلت إلى قمة التل فرأيت شيئاً جديداً فعلى يمين الطريق مجموعة كبيرة من البيوت من الطراز القديم المزيّن بأفاريز معلقة وعرائش ورد وأشياء أخرى تعرف البيوت التي تملكها الطبقة العليا جداً والتي تقف في صف على شكل مستعمرة مزوّدة بطرق خاصة تؤدي إليها، وعلى مدخل أحد الطرق الخاصة علقت لوحة بيضاء مكتوب عليها:

كيبلر

حانات سيلهام العريقة.

تقدّم الطعام للكلاب.

من المؤكد أن هذه لم تكن موجودة من قبل فكرت

للحظة وتذكرت. لقد كان مكان تلك البيوت المستحدثة مزرعة سنديان صغيرة أشجارها كثيفة ومتقاربة من بعضها بعضاً، لذلك كانت طويلة ورفيعة جداً، وفي الربيع كانت أرضها تغطى بشقائق النعمان، وإنني متأكد من عدم وجود أي بيت فيها سابقاً. وصلت إلى أعلى التل، وبعد دقيقة ستصبح بينفيلد كلها في مدى البصر. لماذا أتظاهر بعدم الدهشة؟ إن مجرد التفكير في رؤيتها ثانية حرك في داخلي شعوراً غير عادي وكان له تأثير في قلبي. بعد خمس ثوان سأراها. نعم أنا قادم. أوقفت السيارة ودست على الفرامل. يا إلهي قد تعرف من هو قادم، لكنني لم أعرفه، ويمكنك وصفي بالغبي جداً لعدم توقع ذلك. لم يخطر في بالي أبداً والسؤال الأول هو أين بينفيلد؟ أين البلدة التي عرفتها؟ من المفترض أن تكون في مكان ما. لا أقصد أنها هدمت وإنما ابتلعت فقط، وما رأيته كان مدينة صناعية كبيرة الحجم. يا للدهشة كيف لا أتذكر ولا أعتقد أنّ ذاكرتي ابتعدت عن معرفة منظر بينفيلد من قمة تل شامفورد. إني أظن أن الشارع العام كان يبعد ربع ميل تقريباً، وباستثناء بيوت قليلة كانت المدينة على شكل صليب ونقاطها المميزة قبة الكنيسة ومدخنة معمل البيرة اللتان لم أتمكن من تمييزهما للآن، وكل ما استطعت رؤيته نهر ضخم من البيوت الحديثة المصفوفة على طول الوادي من الجهتين. وصلت إلى منتصف التل على

الجانبين وإلى اليمين في الأعلى عدة فدادين من السقوف الحمراء الساطعة المتشابهة إنها بيوت الإسكان.

لكن أين بينفيلد؟ أين المدينة التي اعرفها؟ قد تكون في مكان ما أو مطمورة في وسط هذا البحر من القرميد.لم أتمكن من تمييز مدخنة معمل البيرة من بين خمس أو ست مداخن لمعامل أخرى، وفي نهاية الطرف الشرقي من المدينة هناك معملان واحد للزجاج والآخر للاسمنت «المسلخ وهذا عائد لسر البلدة. أظن أنني بدأت استوعب حيث خطر ببالي أن سكان هذا المكان الذين كان عددهم حوالي ألفي نسمة في الأيام الماضية أصبح الآن خمسة وعشرين ألفاً، لكن الشيء الوحيد الذي لم يتبدل هو بيت بينفيلد الذي بدا كنقطة من هذا البعد ويمكن رؤيته من الطرف المقابل للتل إذ تحيط به أشجار الزان، كذلك لم تتسلق المدينة نحو الأعلى هناك وبينما كنت أنظر إلى البلدة حلق سرب من الطائرات القاذفة السوداء فوقها فسمعت هدير أصواتها.

ضغطت على فاصل السرعة، وبدأت السيارة تهبط ببطء تلك التل الذي تسلقته البيوت حتى منتصفه. إنها بيوت صغيرة ورخيصة ومتشابهة تمتد من طرف التل في صف متصل وسقوف يرتفع فيها الواحد عن الآخر مثل مجموعة أدراج توقفت ثانية قبل أن أصل إلى البيوت حيث يوجد شيء جديد آخر على يسار الطريق، إنها مقبرة، فوقفت أمام المدخل

المسقوف لألقي نظرة عليها. كانت ضخمة بمساحة عشرين فداناً - دائماً هناك مبالغة في تقدير أحجام المقابر. ممراتها مفروشة بالحصى ومروجها خضراء قاتمة وفيها روب رخامية من التي تصنعها الآلات وتبدو مثل شيء مأخوذ من كعكة العرس، لكن ما صعقني في تلك اللحظة هو أنه لم تكن هناك مقبرة منفصلة سابقاً، وكان هذا المكان حقولاً ومزرعة ألبان، وأتذكر أيضاً مالكها واسمه بلاكيت.

ليست المسألة في أن المدينة كبرت سريعاً واحتاجت إلى مقبرة بمساحة عشرين فداناً ليلقوا جثثهم فيها بل في وضع المقبرة في طرف المدينة. هل انتبهت إلى هذا في أيامنا الحالية؟ كل مدينة جديدة تنصب مقبرتها في ضواحيها. لقد أبعدوها وأخفوها عن الأنظار لأنها لا تحتمل ذكرى الموت حتى وإن كانت على شاهدة القبر التي تكاد لا تقرأ أبداً. في أيامنا كانت مقبرتنا في وسط البلدة حيث كنّا نمرّ بها يومياً، فترى البقعة التي دفن فيها جدك أو المكان الذي سترقد فيه أنت. لم يزعجنا النظر إلى الأموات، لقد كنا نشمّ رائحتهم عندما يكون الطقس حاراً لأن بعض مدافن العائلة لم تكن مقفلة بإحكام.

تركت السيارة تهبط التل ببطء وكنت أرى أشياء على طول الطريق باتجاه الأسفل أعليها أشباح أسوار وأشجار وأبقار. لقد كنت كمن ينظر إلى عالمين في آن واحد، مثل

فقاعة رقيقة لشيء ما مختلط مع ما هو موجود فعلياً ويشع من خلاله. هناك الحقل الذي طارد الثور فيه جنجر روجرز، والمكان الذي كان ينمو فيه فطر الحصان لكن لم يبق لا حقل ولا ثور ولا حتى فطر، فالبيوت في كل مكان، بيوت صغيرة جرداء بنوافذها المكرمشة وحدائقها الخلفية الصغيرة التي ليس فيها سوى بقعة من الأعشاب الصغيرة أو بعض العليق يصارع بين الأعشاب. رجال يأتون ويروحون وسط بعض السجاد وأولاد صغار يلعبون على الأرصفة بأبويهم الكبيرة. كلهم غرباء جاؤوا وتجمعوا أثناء غيابي، فهم يعتبرونني غريباً رغم أنهم لا يعرفون شيئاً عن بينفيلد، ولم يسمعوا بشوتر ولا وذاول أو غريميت أو العم يزكيل ولا يهمهم ذلك على الإطلاق.

إنّ الشخص يتأقلم مع الأشياء بسرعة مضحكة جداً، فمنذ أقل من خمس دقائق وقفت على قمة التل مقطوع الأنفاس لأرى بينفيلد ثانية، وها أنا اعتدت على فكرة أنها ابتلعت وانتشرت مثل مدن البيرو الضائعة. استجمعت قوى وواجهت الواقع أخيراً ولكن ماذا تتوقع؟ يجب أن تكبر المدن انسجاماً مع ازدياد عدد السكان، وأنّ البلدة القديمة لا تزال موجودة في مكان ما، وقد يكون حولها بيوت بدلاً من الحقول، وبعد دقائق أخرى سأرى الكنيسة ومعمل البيرة وواجهة محل والدي ومعلف الخيل في السوق. وصلت إلى

أسفل التل وتفرع الطريق فأخذت المنعطف اليسري وبعد دقيقة تهت

لم أتذكر شيئاً، ولم أعرف إن كنت هذه هي بداية البلدة، وكل ما عرفته أن الشارع لم يكن موجوداً سابقاً قدت السيارة فيه حوالي أربعمئة ياردة. شارع قذر ورث تنتشر البيوت على جانبيه بشكل مستقيم وتوقفت أخيراً بجانب مرأة ترتدي مئزراً قذراً بدون قبعة. أخرجت رأسي من النافذة وقلت:

- المعذرة، هل تعرفين الطريق إلى السوق؟

- لا أستطيع أن أخبرك.

أجابت المرأة بلهجة صعبة غير مفهومة كانت من لانكشاير حيث يوجد الكثير منهم في جنوب انكلترا لأن لقد نزحوا من المناطق المنكوبة وبعدها رأيت رجلاً يحمل حقيبة أدوات فحاولت ثانية وفي هذه المرة حصلت على الجواب عبر اللهجة الكوكونية لكنه ظل دقيقة يفكر قبل أن يجيب:

- السوق؟ السوق؟ سوف نرى، هل تقصد السوق القديم؟

- أفترض أنه السوق القديم

- حسناً خذ اليمين ثم انعطف

بدا لي طريقاً طويلاً لكنه في الواقع لم يبلغ الميل.

بيوت ومحلات ودور سينما وكنائس صغيرة وملاعب كرة قدم كلها جديدة مما أشعرني ثانية بالغزو المعادي الذي حدث من وراء ظهري. نزحوا من لانكشاير وضواحي لندن الأخرى وزرعوا أنفسهم وسط هذه الفوضى القذرة لأنهم يعرفون أهم الأماكن في البلدة. لقد فهمت لماذا يسمون السوق بالسوق القديم إذ كانت هناك ساحة كبيرة بلا شكل في وسط البلدة الجديدة فيها إشارات مرور ضوئية وتمثال برونزي ضخم لأسد يصارع نسراً؛ إنه نصب تذكاري للحرب، كذلك ترى الحداثة يسطرها القذر العام في كل شيء. منظر بلدة انتفخت كالبالون مثل غيرها من تلك التي انتشرت في السنوات القليلة الأخيرة كهيس وسلوف ودغنهم وغيرها مدنٌ تشعرك ببرودة القرميد الأحمر الذي غزا كل الأماكن وواجهات المحلات مطلية بالشوكولا الرخيصة والبيوت انعطفت فجأة في شارع بيوته أكبر. يا إلهي! إنه الشارع العام، ولقد أسعفتني الذاكرة كثيراً لأني أعرف كل بوصة فيه. سأكون وسط السوق بعد مائتي ياردة أخرى، دكانـ القديم في نهاية الطرف الآخر من السوق، وسأنزل في فندق جورج، وأذهب لأراه بعد الغداء. كل نقطة في السوق مطبوعة في ذاكرتي إذ أنني أعرف كل المحلات رغم تغير أسمائها والمواد التي تبيعها، فمحل لوفغروف وتود ومحل لبلي وايت المظلم الكبير ذو الأعمدة والواجهات الناتئة

ومتجر الأقمشة حيث كانت تعمل إيلي ومحل غريبيت الذي لا يزال بقالية، لكني لم أشاهد معلف الخيل بسبب سيارة كانت أمامي. انعطفت جانباً ودخلت إلى السوق ولم أجد المعلف الذي اختفى. نظر نحوي رجل إلى جانب إشارة يقوم بمهمة مرورية لجمعية سيارات، وعندما لاحظ أن سيارتي لا تحمل إشارة الجمعية لم يرحب بي. انعطفت عند الزاوية باتجاه الفندق. أحبطني اختفاء معلف الخيل، ولم أتأكد إن كانت مدخنة معمل البيرة موجودة. لقد تبدل الفندق كله من هذا الاسم فكانت الواجهة مزينة بشكل أنيق، وبدا واحداً من تلك الفنادق الموجودة على ضفة النهر. حتى الممر مختلف لكي أتذكر تفاصيل العلامة القديمة التي كانت تتدلى هناك صورة غير متقنة للقديس جورج وهو يمتطي حصاناً هزيلاً ويدوس تنيناً سميناً. ويمكنك أن تقرأ الإمضاء الصغير في زاوية العلامة للدهان سوندرز رغم أنها كانت باهتة ومشققة، أما العلامة الجديدة فهي لوحة فنية، ومن النظرة الأولى تشعر أنها عمل فنان حقيقي بدا فيها القديس جورج شاباً صدياً مقنعاً. أما الساحة فقد رصفت بالحصى، أي المكان المخصص لوقوف عربات المزارعين والمكان الذي كان يتقيأ فيه الثملون في ليالي أيام السبت، لكنها توسعت أكثر فأكثر وتضاعف حجمها مرات وسقفت بالاسمنت المسلح وأحيطت بمواقف السيارات. ركنت سيارتي وترجلت

لاحظت أن عقول البشر تعمل بطريقة اعتزازية متقطعة فلا توجد عاطفة تدوم فترة طويلة من الزمن. في الربع الساعة الأخير انتابتني صدمة، وشعرت كأن لكمة قوية مزقت أحشائي عندما وقفت على قمة شلغفورد وتأكدت أن لواريفيلد قد اختفت، تلاها طعنة صغيرة بسبب اختفاء معلف الخيل. قدت سيارتي وأنا مكتئب وحزين لكن عندما ترجلت منها ووضعت قبعتي على رأسي شعرت بعدم الاهتمام. كان يوماً مشمساً حيث بدت ساحة الفندق مثل منظر طبيعي بزهورها التي في الأصص الخضراء والأعشاب لفترة ب إنني بس جائع ومتشوق للغداء.

مشيت في داخل البهو بكبرياء يتبعني عامل الفندق لدي أسرع لملاقاتي حاملاً حقيبتي. شعرت بالنجاح، وربما بدوت كرجل أعمال كبير. لقد كنت سعيداً لأنني لبست بدلتي الجديدة القطنية الزرقاء، وأظن أنني وصلت إلى مرتبة سمسار في ذلك اليوم قل ما شئت لكنها متعة ما بعدها متعة. طقس حزيراني جميل سطعت شمسه على الورود في الأصص التي على النوافذ وأنا أتمشى داخل فندق ريفي، وينتظرني لحم خروف مشوي وصلصة النعناع على الطاولة. ليست المتعة في الإقامة في الفنادق. لقد جربت الكثير منها، فعاليتها فنادق تجارية لا دين لها مثل فندق رويثم الذي من المفروض أن أكون نزيله الآن. تدفع في هذه الأماكن خمسة شلنات للنوم

والإفطار بينما ملاءاتها وشراشفها رطبة وحنفيات حماماتها صدئة ومعطلة. بدا فندق جورج حديثاً وعصرياً جداً، وليس كعهدي به في الأيام الماضية، فهو لم يكن فندقاً بالمعنى الدقيق بل كان حانة وفيها غرفة أو اثنتان للإيجار. ولقد كان يقدم الغداء للمزارعين المكون من لحم البقر المشوي واليوركشاير والرلايية وجبنة ستلتون أما الآن فكل شيء بدا مختلفاً ما عدا المشرب العام. صعدت ممراً فرش بسجادة طرية عليها طبعات تلفت الانتباه ومقالي الطبخ النحاسية وما شابهها من أشياء معلقة على الجدران فذكرت الممر السابق ذا الأحجار المربعة ورائحة الجص الممزوجة برائحة البيرة، وهناك أيضاً امرأة جميلة شعرها مجعد ترتدي ثوباً أسود وأظنها موظفة لتسجيل الأسماء.

- هل تريد غرفة يا سيدي؟ ما هو الاسم الذي سأسجله يا سيدي؟

وأخيراً جاءت فرصتي الكبيرة، سيكون اسمي بالتأكيد معروفاً لديها وهو غير شائع، ويوجد الكثير منه في المقبرة فعائلتنا من أقدم العائلات في بينفيلد. آل بوليغ وأجبته متلعثماً وكنت متلهفاً لما سيحدث.

- بولينغ، السيد جورج بولينغ يا سيدتي.

- بولينغ يا سيدي؟ ب و ل ي ن غ أم ب، و ل ي ن غ وهل أنت من لندن؟

لم تظهر عليها أي استجابة أو ملاحظة، فهي لم تسمع بهذا الاسم أبداً ولم تسمع بالعجوز جورج بولينغ الذي ظل ثلاثين سنة يحتسي شرابه في الحانة نفسها كل يوم سبت

2

لقد تبدلت غرفة الطعام أيضاً لكن ما زلت أتذكر الغرفة القديمة رغم أنني لم أتناول أي وجبة فيها. عرفتها ببنية ورق جدرانها السروقري، ولم أعرف إن كان هذا اللون مقصوداً أم بسبب الدخان بالإضافة إلى لوحات زيتية على الجدران من عمل الدهان والنجار سوندرز لمعركة التل الكبير. أما الآن فقد تبدل المكان إلى أسلوب القرون الوسطى. فهناك رف موقد من القرميد، وزاوية بجانبه وعمود كبير في وسط السقف وألواح من السنديان على الجدران، وكلها زينة مزيفة بحيث يمكن اكتشاف ذلك من بعد خمسين ياردة، ماعدا العمود، فقد كان من السنديان الحقيقي لأنه أخذ من سفينة شراعية لكنه لم يكن يحمل شيئاً. ساورتني الشكوك حالما وقع بصري على الألواح. جلست إلى طاولتي وجاء النادل الشاي. نقرت على الحائط بأصابعي. لقد صدقت ظنوني ولم يكن خشباً إنه تركيبة مزيفة. تناولت لحم ضأن وسلطة نعناع وقنينة من النبيذ الفرنسي الأبيض جعلني أتجشأ قليلاً، لكنه أشعرني بالسعادة. كذلك كان في المطعم

شخص آخر يتناول الغداء. إنها امرأة في الثلاثين من عمرها ذات شعر أشقر. بدت كأنها أرملة فسألت نفسي إن كانت نزيلة في الفندق ورسمت خطة للتواصل معها وإقامة علاقة.

إن امتزاج المشاعر الإنسانية مضحك. كنت أرى أشباحاً لنصف الوقت حيث التصق الماضي بالحاضر. في يوم السوق (البازار) يأتي المزارعون الكبار المعروفون ويجلسون إلى طاولات كبيرة يرسلون أرجلهم تحتها ويلتهمون كميات كبيرة من لحم البقر والرلابية. إنه شيء لا يصدق من سعة معدة الإنسان. أما الآن فالطاولات صغيرة وهناك أغطية بيضاء لامعة ومناديل مطوية وكؤوس خمر وديكور ذو تكلفة باهظة.

لقد فكرت بالاثني عشر جنيهاً، وببدلتي الجديدة أنا جورج بوليغ الصغير! من كان يصدق أنني سأعود إلى بيميلد بسيارتي الخاصة. غمرني الخمر بشعور دافئ وصعد من معدتي نحو الأعلى فألقيت نظرة سريعة على المرأة ذات الشعر الأشقر وجردتها من ثيابها في عقلي. كان التزييف وتقليد القرون الوسطى في الصالة هو نفسه، فهناك مقاعد جلدية متناسقة وطاولات بأسطح زجاجية وبعض مشروب البراندي والسيجار. كنت أرى أشباحاً لكني كنت مستمتعاً بالمحصلة. في الحقيقة كنت ثملاً إلى حد ما وتمنيت لو أن المرأة الشقراء تأتي لأقدم نفسي وأتعرف عليها لكنها لم تظهر وانصرفت قبل موعد الشاي.

تمشيت نحو السوق وانعطفت يساراً إلى الدكان الذي لم أشاهده منذ واحد وعشرين عاماً يوم جنازة أمي مررت به في عربة المحطة وكان مغلقاً ومغبراً ولافتته محروقة، ولم اهتم بأمره إطلاقاً، والآن تفعل بي رؤيته كل هذا الحزن الذي ينتاب قلبي وأحشائي بعد كل ذلك الزمن الطويل. نسيت تفاصيل البيت الدقيقة، وتجاورت محل الحلاق الذي لا يزال مواظباً على عمله مع اختلاف الاسم، وتصاعدت عبر الباب رائحة الصابون اللوزي الدافئة، وليس هناك أجمل من رائحة الروم واللاتاكيا محلنا يبعد عشرين ياردة فقط يا الله تبدو عليه لافتة فنية من عمل الفنان نفسه الذي رسم لافتة الفندق يجب أن لا يأخذني العجب.

محل شاي ويندي.

قهوة صباحية

كعك بيتي.

يا للهول محلنا تحول إلى مشرب للشاي!

وأعتقد أنه لو كان محل جزار أو خردوات أو أي شيء غير البذور ستكون دهشتي نفسها لأنه من غير المنطق أن تشعر أن حقوقك أبدية في بيت لمجرد أنك ولدت فيه بالمصادفة لكن حسناً، هناك ستائر زرقاء على النوافذ وكعكة أو اثنتان من الكعك المغطى بالشوكولا حيث توجد جوزة واحدة في قمة الكعكة دخلت ولم يكن الشاي مؤذياً، لكن

يجب أن أرى ما حدث. من الواضح أنهم حولوا الدكان والبهو إلى مشرب، لكن ماذا عن الساحة الخلفية التي كنا نرمي فيها الزبالة، ويزرع فيها أبي بعض الأعشاب. لقد رصفوها كلها وزينوها بصنائع خشبية ونبات الكرمة. دخلت إلى البهو فتذكرت الأشباح، البيانو والكتابة التي على الجدران والمقعدان الكبيران الأحمران حيث اعتاد أبي وأمي الجلوس عليهما بمواجهة بعضهما بعضاً بجانب الموقد وهما يقرآن صحيفتي الناس وأخبار العالم بعد ظهر أيام الآحاد. لقد جعلوا المكان يبدو أثرياً أكثر من السابق مع طاولات قابلة للفتح والطي وثريات وأطباق تصديرية معلقة على الجدران ومجموعة من الرفوف. هل لاحظت المتعة التي يتجمعون في حلقها في مشارب الشاي والمقاهي.. ..تلك؟ إنها جزء من الأصالة كما أعتقد، وبدلاً من النادل المادي هناك شابة في إزار عليه طبعات استقبلتني بوجه متجهم. طلبت كوباً من الشاي فأحضرته بعد عشر دقائق. شاي صيني خفيف تظن أنه ماء حتى تضع فيه الحليب. جلست في المكان الذي كان أبي يألفه. والآن أستطيع سماع صوته وهو يقرأ مقطعاً من صحيفة الناس عن الآلات الطائرة وعن شباك سمك الحوت، وتنتابني شعور خاص بأنني مدّع كاذب، وبإمكانهم طردي إلى الخارج إن اكتشفوا من أنا وفي ذات الوقت لدي شوق كبير للتحدث مع أي شخص كي أخبره بأنني ولدت هنا وأنني أنتمي إلى

هذا البيت أو أن هذا البيت لي. لم يكن في المشرب غيري، أما الفتاة فكانت تقف بجانب النافذة، ولو لم أكن موجوداً لكشت أسنانها. عضضت على إحدى قطع الكعك التي لم يكن بيتياً بل كان بالسمة البائتة وأخيراً لم أقدر منع نفسي من الكلام.

هل تعيشين في بيتفيلد منذ زمن طويل؟

بدت مندهشة ولم ترد فحاولت ثانية.

- كنت أعيش في بيتفيلد في الماضي البعيد

لم ترد للمرة الثانية، ورمقتني بنظرة لامبالاة وتابعت النظر من النافذة. أدركت أنها سيدة أكبر من أن تدخل في أحاديث جانبية مع الزبائن وربما ظنت أنني أحاول مغازلتها.

ما الفائدة من إخبارها أنني ولدت هنا في هذا البيت؟ حتى لو صدقت فإنَّ ذلك لا يهمها، وهي لم تسمع بصاموئيل بوليغ تاجر الذرة والبذور. دفعت الحساب وانصرفت.

تابعت سيري باتجاه الكنيسة خائفاً ولدي خوف من أن يعرفني أحد الناس الموجودين هناك، لكن لا داعي للقلق، فلا يوجد أي شخص أعرفه في كل الشارع، فقد بدت البلدة بسكانها الجدد وعندما وصلت إلى الكنيسة عرفت لماذا لديهم مقبرة جديدة لقد كانت المقبرة مملوءة ونصف القبور تحمل أسماء لا أعرفها لكن كان من السهل عليَّ إيجاد القبور التي أعرفها. فتجولت بها، لقد كان العشب مقصوصاً ورائحة

الصيف في المكان. كلهم رحلوا. كل الناس لكن في التي كانوا مستلقين هنا، شوتر وودزاول كانا مقابل بعضهما بعضاً على جانبي الممر. أما وودزاول فلم يعمّر حتى المئة، فقد ولد في 1843 وغادر الدنيا في 1928 لكنه هرم شوتر كعادته الذي مات في عام 1926. ولقد عاش آخر سنتين من حياته يشد لوحده، وهذا العجوز قريبيت تحت قطعة صخمة من المرمر على شكل قطيرة تحيط بها قضبان حديدية، أما في الزاوية فيقبع كاملة لآل سيمونز تحت شواهد رخيصة وصغيرة كلهم عادوا إلى التراب، العجوز هودجير بأسنانه الملونة بلون التبغ ولومعروف بلحيته البنية وعمته هدري بدربر صاحبة العين الزجاجية وبرور صاحب مزرعة الطاحونة بوجهه الهرم الشرير المنحوت من جوزة. لم يبق منهم شيء سوى ألواح حجرية، ولا يعلم إلا الله ماذا يوجد تحتها. وجدت قبرَيْ أمي وأبي بجانب بعضهما بعضاً، ولقد كان بوضع جيد لأن القندلفت قص من حولهما الأعشاب، أما قبر العم ايزكيل فقد كان أبعد قليلاً ولكن هناك قبور أخرى كثيرة سويت بالأرض وكانت بشواهد خشبية.

ماذا تشعر عندما تقف أمام قبرَيْ والديك بعد عشرين سنة من وفاتهما؟ لا أعرف بماذا يجب أن تشعر، لكنني لم أشعر بشيء. لم يغب أبي وأمي عن بالي، بل كانا موجودين في مكان آخر في نوع من الأبدية. أمي وراء إبريق الشاي

البي، وأبي برأسه الأصلع الأعير وشاربه الرمادي صور ثابتة إلى الأبد وكأنهما شخوص في لوحة، لكنهما أحياء بشكل ما ولا علاقة لهما بصناديق العظام الملقاة تحت الأرض أمامي. لقد تساءلت وأنا أقف ماذا تشعر عندما تكون تحت التراب، إن كان هذا يهمك ومتى يتوقف اهتمامك. وفجأة عبرني ظل ثقيل ونظرت فرأيت طائرة قادمة تطير بيني وبين الشمس فسببت لي رجفة صغيرة.

تقدمت إلى داخل الكنيسة. لم أشعر بالأشباح لأول مرة منذ أن عدت إلى بينفيلد، لكنها ربما كانت موجودة بشكل مختلف. لم يتبدل شيء في المكان ما عدا أن الناس رحلوا كلهم حتى مساند الأقدام كانت نفسها، وكذلك الغبار ورائحة الجثث الحلوة والعفنة نفسها في النافذة، رغم أن الوقت مساء والشمس في الطرف الآخر. كانت بقعة الضوء تزحف ببطء إلى الممر ولا تزال المقاعد هي نفسها التي لم تستبدل بالكراسي. لقد رأيت مقعدنا، كذلك شاهدت الأخرى التي أمامها حيث يقف وذراول يجأر بصوته ضد شوتر ومبحوب ملك العموريين وارج ملك بيسان وأحجار الممر البالية وشواهد القبور التي رقد تحتها الرجال؛ ويمكنك أيضاً قراءة النقوش التي كتبت عليها. جلست القرفصاء لألقي نظرة على المنضدة التي أمام مقعدنا. لا أزال أحفظ الأشياء المقروءة عن ظهر قلب والشكل الذي التصقت فيه بذاكرتي، ويعلم الله

كم مرة قرأتها إثناء الصلاة

ها... ..فوق اليد

مستقيماً لى هاته الكبيرة لحصة

أضاع مجتهد. .

....

. .. زوجته المحبوبة

اميليا، بواسطة. . .. وأنجبت سبع

بنات .. . ..

وتذكرت كيف كان حرف السين الطويل يحيرني عندما كنت ولداً، وكنت أتعجب لماذا يكتبونه مثل حرف الفاء سمعت وقع أقدام نظرت إلى الأعلى فرأيت رجلاً في رداء كاهن يقف فوقي. إنه القس. قصدت بالقس المجرور بيترتون قسّا في الأيام الماضية منذ أول عام 1904. عرفته على الفور رغم شعره الذي غزاه الشيب، لكنه لم يعرفني رجل سمين في بذلة زرقاء يتعرج على المناطق لسبحية حيّاني تحية المساء وبدأ حديثه المعتاد عن الهندسة المعمارية والأبنية الهامة والنوافير التي ترجع إلى عصور الساكسونيين وعلم جزأ كان يرتعش وهو يريني المناظر: هذه قوس نورماندي يؤدي إلى حجرة الاجتماعات، وذاك تمثال نحاسي للسير رودريك بون الذي قتل في معركة نيرييري حيث تبعته مثل كلب جلد مسوهر ومثل رحالة الأعمال المتوسطي لعمر

عندما يظهرون في كنيسة أو معرض فني. لكن ماذا لو قلت له إنني أعرف كل هذا من قبل، واسمي جورج بولينغ بن صامويل بولينغ؟ هل سيتذكر أبي إن لم يتذكرني؟ وإنني سمعت صلواته طيلة عشر سنوات وذهبت إلى دروس لتثبيت الديني وكنت منتسباً إلى مجموعة بيغيلد للقراءة وأخذت كتابي (افتح يا سمسم) و(البليز) كي أرضيه فقط. لكن لم أفعل ذلك، بل لحقت به مدمدماً مثلما تفعل عندما يخبرك أحد أن هذا الشيء أو ذاك عمره خمسمائة سنة ولا تعرف بماذا ترد سوى أنه لا يبدو كذلك. منذ اللحظة التي وقعت فيها عيني عليه قررت أن أدعه يظنني غريباً. لكن لماذا؟ لماذا لم أتحدث معه بعد أن وجدت شخصاً أعرفه؟ قد تظن أن شكله الذي تغير في العشرين سنة الماضية قد أخافني فعلياً، أقصد أنه بدا بعمر أكبر سناً. لا على العكس تماماً وقد علمني شيئاً عن مرور الزمن.

أعتقد أن العجوز بيترتون في الخامسة والستين تقريباً وعندما رأيته لأول مرة كان في الخامسة والأربعين، يعني في مثل عمري الآن. ومنذ تلك الحين كان شعره أبيض وفي اليوم الذي دفن فيه أمي كان رمادياً مقلماً مثل فرشاة الحلاقة، لكن فور رؤيتي له شعرت أنه بدا أصغر عمراً لأنني ظننت أنه بات هرماً بعد كل تلك الزمن. كذلك خطر ببالي أيضاً أن كل من تجاوز الأربعين يبدو حطاماً قديماً لدرجة أن

هؤلاء الأشخاص تختفي الفروق بينهم. وبدا لي الرجل في الخامسة والأربعين أكبر سناً من هذا العجوز المرتعش بين الخامسة والستين، ويا للهول أنا في الخامسة والأربعين أيضاً، وأبدو هكذا لشاب في سن العشرين. فكرت أنني انتهيت عندما كنت بين القبور، وأنني لست سوى عجوز مسكين بدين وغريب فلماذا اهتم بعمري الآن؟ نعم أنا سمين لكنني قوي وسليم وأستطيع القيام بأي عمل أريده. إنَّ رائحة الأزهار لا تزال هي نفسها بالنسبة لي، لكن هل رائحتي هي نفسها بالنسبة للأزهار؟ تقدمت فتاة في الثامنة عشرة على طريق المقبرة، وكانت مجبرة أن تمر من على بعد ياردة أو اثنتين مني فرأيت النظرة التي رمتني بها مثل حيوان بري تلتقي عيونك بعيونه.

لقد ولدت وترعرعت في السنوات العشرين التي كنت بعيداً فيها عن بيسفيلد، وكل ذكرياتي ستبدو لها بلا معنى لأنها عاشت في عالم مختلف عن عالمي. عدت إلى الفندق ورغبت في تناول شيء ما لكن البار لن يفتح قبل مضي نصف ساعة أخرى. تلكأت قليلاً في قراءة أعداد الرياضة والمسرح في أعداد دورية من العام الماضي ثم دخلت السيدة ذات الشعر الأشقر التي افترضت أنها أرملة وتملكتني رغبة قاتلة لمغازلتها. أردت أن أثبت لنفسي أنني ما زلت شاباً وأفيض بالحيوية والنشاط رغم عمري وأسناني الاصطناعية،

وبدا لي الأمر ماساً، فهي في الثلاثين وأنا في الخامسة والأربعين. وقفت أمام الموقد العارج متظاهراً أنني أدفئ ظهري، ولم يظهر عليّ أنني سيء جداً ولا ممتاز جداً في بدلتي الزرقاء إنما سمين قليلاً، ولن أبدو أوسم رجل في العالم ويمكن أن أرقى إلى مرتبة سمسار. استخلصت أفضل لهجة عندي وقلت:

أليس هذا الطقس الحزيراني رائعاً؟

كانت ملاحظة حسنة وغير ضارة وليست مثل عبارة هل التقينا في مكان ما سابقاً؟ لكنها لم تجب فلم ترد. أخفضت الجريدة التي كانت تقرأها لحظة ثانية ورمتني بنظرة مرعبة شقت النافذة. عيونها زرقاء كتلك التي تخترقك كالرصاصة، وفي تلك الثانية عنه أدركت كم أخطأت بحقها. لم تكن من الأرامل اللواتي يصبغن شعورهن ويلعبن مع الرجال إلى الحفلات الراقصة. كانت من الطبقة الوسطى العالية وقد تكون ابنة أميرال وأرسلت إلى إحدى المدارس الجيدة ولعبت الهوكي. لقد أخطأت بحق نفسي، ففي بدلة جيدة أو بدونها فلن أصل إلى مستوى سمسار في البورصة وإنما مجرد بائع متنقل صدف أن أصابه حظ قليل من الكعكة. تسللت إلى خارج البار الخاص من أجل قدح أو اثنين قبل العشاء.

حتى البيرة لم تكن نفسها، أتذكر البيرة القديمة، بيرة وادي التيمز الجيدة التي لها بعض الطعم لأنها مصنوعة

بالمياه الكلسية.

هل لا يزال معمل البيرة لآل يسمر؟

آل يسمر؟ أوه كلا يا سيدي! لقد رحلوا، منذ سنين، قبل أن تأتي بكثير.

كانت من النموذج الودود أو ما يطلق عليه اسم الأخت الكبيرة بين النادلات. إنها في الخامسة والثلاثين، وجهها طري وناعم ويداها سميكتان من جراء عملها على مقبض سكب البيرة حيث ذكرت لي اسم الاتحاد المالك للمعمل الآن. إن شكل البارات اختلف الآن عما كان عليه فهي دائرية ومقسمة إلى حجيرات. كان هناك شابان يلعبان لعبة السهام في الوسط، وفي المكان المقابل الذي لم أكن أراه جيداً يقف شاب آخر يدلي بملاحظات بصوت كئيب وعميق أسندت النادلة كوعيها على البار وبدأنا نتحدث. ذكرت لها كل الأسماء التي أعرفها لكنها لم تسمع بأي واحد منهم حتى تريو صاحب الفندق السابق.

- لقد عشت فترة طويلة في بيعبلد قبل الحرب قلت.

- هل ترى أية تعديلات، قال الشاب صاحب الملاحظات

- لقد كبرت البلدة واعتقد أيضاً المصانع.

- أغلبهم يعمل في المصانع، مصانع الحياكة ومصنع الجوارب لكنهم يصنعون الآن القنابل طبعاً، قالت النادلة

لم أفهم لماذا قالت طبعاً وسردت لي أن صاحبها يعمل في معمل البيرة وهو يرتاد الخندق أحياناً، وأخبرها بأنهم يصنعون القنابل بالإضافة إلى الجوارب. كذلك تحدث عن إنشاء مطار عسكري كبير قرب وولتون مخصص للطائرات القاذفة التي نراها في الجو دائماً. في اللحظة التي تلت ذلك دخلنا في حديث عن الحرب، ومما يضحك في الأمر أن هروبي إلى بينفيلد وادامبي الأساسي كان سببه فكرة الحرب، لكن يبدو أن تفادي هذا الموضوع شبه مستحيل بأي طريقة لأنه في الهواء الذي تتنفسه. قلت إنها ستحدث في عام 194 وقال الشاب صاحب الملاحظات إنها عمل قذر، أما النادلة فقالت إن التفكير فيها يرعبها إلى درجة الشلل وقالت أيضاً:

- إن كل ما قيل واتخذ من تدابير وإجراءات لن يفيد. أحياناً أستلقي على السرير وأعجز عن النوم وأسمع في الليل أصوات تلك الأشياء التي تطير في الأعلى وأقول لنفسي: لنفترض أن القنبلة سقطت فوق رأسي مباشرة فما هي فائدة الأوامر وتعليمات السلامة وتوجيهات الأمنة المضيفة هودجر وادعاءاتها بأن الأمور ستكون على ما يرام إن حافظت على هدوئنا وسددنا النوافذ بالجرائد. ويقولون أيضاً إنهم سيحفرون ملجأ تحت بيت البلدية لكن الذي فكرت به هو كيف سيضعون أقنعة الغاز على وجوه الأطفال.

رد الشاب قائلاً إنه قرأ في الجريدة عن وجوب لبقاء داخل حمام ساخن حتى ينتهي الأمر، وسمع الرجال للذين في البار العام هذا فدار كلام جانبي حول الموضوع، وكيف سيدخل عدد كبير من الناس في حمام واحد معاً، وكم يجب أن يكون العدد، وسألا النادلة إن كان بإمكانهم الدخول معها إلى حمامها، فطلبت منهما أن يكفا عن وقاحتهم ثم ذهبت إلى الطرف الآخر من البار وصبت لهما قدحين من البيرة. تناولت رشفة من كأس البيرة فشعرت بطعم سيء ومر جداً، مذاق من الكبريت والمواد الكيماوية الأخرى حيث لم تعد نبتة الديار تدخل في تركيب البيرة لأنها استبدلت بمواد كيميائية. ووجدت نفسي أفكر بالعم ايزكيل، وما قاله عن هذه البيرة، وما كان سيقوله عن التعليمات العسكرية وأكياس الرمل التي من المفترض أنها ستطفئ القنابل الحرارية. وعندما عادت النادلة إلى جانبي قلت:

– بالمناسبة من يملك القاعة الآن؟

كنا نطلق على بيت بيتعبلد اسم القاعة سابقاً وبدا أنها لم تفهم.

– بقصد بالقاعة بيت بيتعبلد، قال الشاب.

– أوه بيت بيتعبلد، ظننت أنك قصدت صالة لنصب التذكاري. المالك الحالي هو الدكتور ميرال.

– الدكتور ميرال؟

نعم يا سيدي ولديه أكثر من ستين مريضاً هناك

مريض؟ هل تحول المكان إلى مستشفى أو ما شابه ذلك؟

إنه ليس مستشفى عادياً إنما مصح للمرضى العقليين، في الواقع إنه بيت للمجانين.

وماذا يمكن أن تتوقع بعد أكثر من ذلك؟

3

غادرت السرير وأنا أشعر بطعم سيء في فمي، وبأن عظامي تطقطق. ماذا تتوقع بعد قارورة من الخمر على الغداء وأخرى على العشاء وعدد من كؤوس البراندي بينهما، لقد شربت كثيراً في اليوم السابق. وقفت دقائق على السجادة عاجزاً عن الحركة وتائه النظرات. إنك تعرف ذلك الشعور الفظيع الذي يصيبك في الصباح الباكر أحياناً، شعور بالوهن في ساقيك الذي يقول لك بطريقة أفصح من الكلام لماذا تستمر بحق الجحيم؟ ارمها بعيداً وتخلص منها أيها الرجل والصق رأسك بفرن الغاز!

وضعت طاقم أسناني الاصطناعية في فمي وذهبت إلى النافذة. كان يوماً حزيرانياً جميلاً بدأت شمسه تميل فوق السطوح وتطل على واجهات البيوت الموجودة على الطرف الآخر من الشارع، وبدت زهرة إبرة الراعي جميلة في

الأصص التي في الرواهد ومجموعة كبيرة من الناس تأتي وتروح على الرغم من أن الوقت كان باكراً ولم تبلغ الساعة الثامنة والنصف. وفي شارع فرعي سيل من الموظفين في بدلاتهم القاتمة وحقائبهم يسيرون بسرعة في ذات الاتجاه للحاق بقطار الأنفاق، وهذا ما يحدث في كل ضواحي لندن. كذلك كان أطفال المدارس ينتشرون في تشكيلات مؤلفة من اثنين أو ثلاثة دون انتظام. شعرت بذات الشعور الذي انتابني في اليوم السابق عندما رأيت عدة البيوت الحمراء التي ابتلعت تل شمفورد. هؤلاء المطلون القدرون يمشون ذهاباً وإياباً، عشرون ألف دخيل لا يعرفون عني وأنا هنا عجوز بأسنان اصطناعية أنظر إليهم من النافذة وأدمدم بهراء عن أشياء قديمة لا يريد أحد سماعها، أشياء حدثت منذ ثلاثين أو أربعين سنة.

يا إلهي لقد كنت مخطئاً بالظن أنني أرى أشباحاً وإنما أنا الشبح. نعم أنا الميت وهم الأحياء. بعد الإفطار المؤلف من سمك وكلى مشوية وخبز محمص ومرملات وإبريق قهوة أصبحت بمزاج أفضل. لم تكن السيدة الباردة تتناول فطورها في غرفة الطعام. لقد كان الجو صيفياً جميلاً ولم أتمكن من التخلص من شعوري بالتميز بفضل بدلتي الرمادية القطنية. يا الله أنا شبح إذاً! سأكون شبحاً وسأرتاد الأماكن القديمة، وأمارس قليلاً من السحر الأسود على بعض هؤلاء

المتشردين الذين سرقوا بيتي وبلدتي خرجت، لكن لم أذهب إلى السوق بعد عندما شدني شيء لم أتوقع رؤيته. إنه موكب يتألف من خمسين طالباً من الطلاب الصغار يمشون مشية عسكرية في أرتال مؤلفة من أربعة ومعهم امرأة متكشرة تمشي بجانبهم كأنها رقيب في الجيش. وكان لقادة الأربعة يحملون راية بالأحمر والأبيض أما حدودها الزرقاء على الحواف فقد كتب عليها بحروف ضخمة «البريطانيون مستعدون».

خرج الحلاق الذي في الزاوية ووقف على درج لبابه ينظر إليهم. تحدثت إليه.. إنه شاب شعره أسود لامع لكن وجهه تلوح منه ملامح الغباء.

- ماذا يفعل هؤلاء الصغار؟

- هذا تمرين على الغارات الجوية قالها بغموض هذه ت. ع. ج. وتلك هي الآنسة تودجرز. ويمكنك معرفة ذلك من عينيها. إنها عجوز شيطانية صلبة بشعر رمادي ووجه منقبض ومملح كوجه مرشدة في جمعية الشباب المسيحي وبيوت الشباب وأمثالها. كانت ترتدي معطفاً وتنورة يشبهان اللباس العسكري حيث يوحي منظرها أنها تضع حزام سام براون. إنني أعرف هذا الصنف جيداً. فلقد كنت في الجيش النسائي في الحرب ولم تحظَ بيوم متعة بعدها، وهذا التمرين كان دافعاً لها وعند مرور الأولاد بجانبي سمعتها

تصرخ كالرقيب تماماً مونيكا ارفعي قدمك عالياً! ورأيت الأربعة الذين في المؤخرة يحملون راية بالأحمر والأبيض وحدود زرقاء في وسطها.

نحن مستعدون فهل أنتم كذلك؟

لماذا يمشون ذهاباً وإياباً؟ سألت الحلاق

لا أعرف لكن أعتقد أنه نوع من أنواع اللعبة

لقد عرفت الإجابة.. إنهم يحولون حقول العصر إلى حقول عسكرية ويوهمون الجميع بأن الأمر لا مفر منه فالقاذفات قادمة بالتأكيد كقدوم عيد الميلاد، لهذا اختبئوا داخل الأقبية ولا تناقشوا. كانت طائرتان كبيرتان من ولتون تهدران فوق الطرف الشرقي من البلدة يا إلهي عندما تبدأ فلن تدهش أحداً وستكون عادية مثل زخة من المطر. كذلك أخبرني الحلاق أن جهود الآنسة تورجيرز أثمرت في الحصول على أقنعة غاز للطلبة

حسناً، بدأت أكتشف المدينة، أمضيت يومين في التجوال حول المعالم القديمة بقدر ما استطعت تمييزه، وطوال تلك الوقت لم أصادف أحداً يعرفني. كنت شبحاً رغم أنني لم أكن غير مرئي فعلياً. كان شيئاً أغرب من القول: هل قرأت قصة هـ.ج. ويلز عن الرجل الذي كان في مكانين مختلفين في الوقت نفسه أي في الواقع كان في بيته لكن لديه هلوسة ووهم أنه في عمق البحر، وأنه يتمشى

في غرفته فيرى الأعشاب المائية المتموجة والسرطانات الكبيرة والمحار وهي تمد أطرافها نحوه بدلاً من الكراسي والطاولات، وأنا أمشي منذ أربع ساعات في عالم غير موجود. سأعد خطواتي وأنا أهبط الدرج. هنا يبدأ حقل فلان حيث كان السياج يتجاوز الشارع ويمر عبر تلك البيت، ومحطة الوقود تلك كانت شجرة جوز، وهذا سياج لبساتين وذلك هو الشارع المؤلف من صف من البيوت المتصلة واسمه كمبرلدج على ما أذكر. لقد كان مثيراً، وكم تمشيت فيه كثيراً مع كاتي سيمونز حيث كانت أشجار الجوز على الجانبين. لا شك بأنني أخطأت في تقدير المسافة، لكن الاتجاهات العامة كانت صحيحة. لن يصدق من لم يولد هنا أن تلك الشوارع كانت حقولاً منذ فترة قصيرة لا تتجاوز العشرين عاماً وكأن الريف دفن باندلاع بركاني من الضواحي الخارجية. ابتلعت دار الإسكان أرض بروز وتلاشت مزرعة الطاحونة وجففت بركة البقر التي اصطدت فيها أول سمكة وردت وبني فوقها، وبات من الصعب علي أن أحدد موقعه بالضبط. البيوت كلها متشابهة، فهي مكعبات حمراء صغيرة متماثلة وأسيجة من نبات الجنبات وممرات مسفلتة تؤدي إلى المداخل. وتضيق البلدة قليلاً خلف المجلس البلدي، لكن الباني غير المؤهلين يقومون ما موسعهم، فهناك عقدة من البيوت متناثرة حيثما وجد من يقدر على شراء أرض وهناك

قطع من الأرض الفارغة التي عليها ألواح البناء وبقايا حقول مغطاة بالشوك وعلب القصدير الفارغة.

أما في الطرف الآخر من وسط المدينة فلم تتبدل الأشياء كثيراً، حيث إن المحلات لا تزال تقوم بذات التجارة مع اختلاف في الأسماء؛ فمحل ليلي وايت لا يزال يبيع الأقمشة لكن يبدو أنه غير ناجح، ومحل الجزار هربيت يبيع أجهزة الراديو الآن وواجهة محل الأم ويللر سدت وبقالية هربيت لا تزال كما هي لكن استولت عليها انترناشيونال. إن هذا يعطي فكرة عن قوة الشركات الكبرى فهي قادرة على ابتلاع الذكي والبخيل من أمثال العجوز هربيت، ولكن أنا متأكد بأنه صعد إلى السماء ومعه عشرة أو خمسة عشر ألف جنيه، لكن بالطبع لم يكتب ذلك على شاهدة قبره. أما المحل الوحيد الذي لا يزال يحمل اسم صاحبه السابق فهو آل ساراريسز الذين عملوا على إضعاف تجارة أبي. لقد ازدادت أعمالهم وانتشرت إلى أبعاد غير متوقعة ولديهم فرع ضخم آخر في القسم الجديد من المدينة لكنهم تحولوا إلى مخزن عام يبيع الأثاث والأدوية والخردوات بالإضافة إلى مستلزمات البستنة

في معظم اليومين اللذين تجولت فيهما لم أكن أتوجع ولم أكن مقيداً بسلاسل، ولكني تعبت تلك أحياناً بالإضافة إلى أنني كنت أتناول الخمر أكثر مما احتمل إذ منذ وصولي

إلى بينفيلد بدأت بالشرب ومن بعدها صرت أشعر أن الحانات لا تفتح في وقت مبكر حيث كان لساني يتدلى من فمي عطشاً في النصف الساعة الأخيرة التي تسبق ساعة الافتتاح.

لم أكن بالمزاج نفسه طول الوقت ولا يهمني إن العيت بينفيلد تماماً، وأخيراً ألم أسافر إلى هنا هرباً من العائلة؟ كذلك ليس هناك ما يمنعني من فعل ما أريد من أشياء حتى صيد السمك.

ذهبت عصر السبت إلى محل بيع معدات صيد السمك في الشارع العام فاشتريت عصا صنارة من النوع الذي كنت أفضله منذ أن كنت صبياً وكانت هي الأعلى من غيرها إضافة إلى كلابات وبعض الخيوط وغيرها. لقد أبهجني جو المحل، فمهما تبدلت الأشياء فإن عدة الصيد لن تتبدل كذلك لم يرَ البائع ما هو مستغرب في أن يشتري رجل متوسط العمر مثلي عدة صيد، بل على العكس فقد تبادلنا حديثاً قصيراً عن الصيد في التيمز وسمكة كارب كبيرة اصطادها شخص في السنة الماضية بعجينة من الخبز الأسمر والعسل وشرائح من لحم أرنب مسلوق، ولم أخبره عن هدفي من شرائها لكن مصحوبة اعترفت لنفسي بالسبب. لقد اشتريت أقوى خيط سلمون لديه وكلابات بمرة خمسة من أجل سمك الروش أملاً في سمكات الكارب الكبيرة في بنت بنفيلد

أمضيت جل صباح الأحد في نقاش مع نفسي إنْ كنت سأذهب إلى الصيد أم لا. فأحياناً أقول لماذا لا أذهب وأحياناً أخرى اعتبر الصيد من الأشياء التي نحلم بها ولا نعمل لتحقيقها، لكنني أخرجت السيارة بعد الظهر واتجهت إلى برموردوير وفكرت بأنْ ألقي نظرة على النهر، إذ ربما في الغد أحمل صنارة الصيد الجديدة وألبس معطفي القديم وبنطالي القطني الرمادي إن كان الطقس جيداً وأمضي يوماً ممتازاً أو ثلاثة أو أربعة أيام إن أحببت

ذهبت الى شامفورد، وعلى الطريق عند المنعطف المؤدي للنهر ترجلت من السيارة ومشيت عقدة من البيوت الحمراء والبيضاء تناثرت بجانب الطريق كان يجب أن أتوقع ذلك حيث كانت سيارات كثيرة متوقفة في الجوار، وكنت كلما اقتربت من النهر أكثر أسمع أصوات بلوبك تيدل بلوبك تيدل نعم إنها أصوات الهواتف. يا لها من خيبة أمل كان المكان أسود من كثرة الناس أما محلات المروج المعشبة فقد عدت مقاهي فيها آلات تبيع الشراب بواسطة النقود التي توضع في داخلها ورجال يبيعون الآيس كريم عندها تذكرت الممشى القديم كنا نمشي أميالاً دون أن نصادف أحداً عدا رجال أمام البوابات المغلقة، وبين الحين والآخر ترى أحد أصحاب المراكب التي تنقل البضائع يسير خلف حصانه كنا نذهب إلى الصيد ولم يكن يوجد أحد سوانا،

فكنت أجلس طوال فترة العصر هناك بينما يقف مالك الحزين في المياه الضحلة على بعد خمسين باردة عن الضفة، وتمر أربع ساعات دون أن يخيفه وجود أحد. من أين أتت فكرة أن الرجل الناضج يجب أن لا يذهب إلى الصيد؟ على طول نهر التيمز كانت هناك سلسلة من الرجال الذين يصيدون السمك بمعدل رجل في كل خمس باردات فتعجبت من كيفية وصولهم إلى هنا، وخطر ببالي وجوب وجود ماؤ للصيد أو أكثر. كان النهر مزدحماً بالقوارب، قوارب تجذيف وقوارب طويلة ورفيعة وأخرى بمحركات تغص بشباب حمقى يصيحون ويصرخون، ويستخدمون الهواتف أيضاً. أسطول من الشيطين يتدحرج نحو الأعلى وباتجاه الأسفل على الأمواج التي تحدثها المحركات وراءها

مشيت نحو الأبعد قليلاً، فرأيت مياهاً قذرة متلاطمة. وعلى الرغم من أن اليوم كان جميلاً فلم يتمكنوا من صطياد أي سمكة حتى وإن كانت صغيرة لأن حشداً بهذا القدر يخيف أسماك الكود كلها. نظرت إلى الغليات التي كانت تعلو وتهبط وسط أصمة الآيس كريم وأكياس الورق فسورني الشك بوجود أي سمكة. فتساءلت هل لا يزال هناك أسماك في التيمز؟ أعتقد أنه يجب ذلك، وأقسم أن مياهه لم تكن كذلك. لقد تبدلت المياه لأنني أتذكر كيف كانت. لقد اختلف لونها تماماً. قد تظن أن هذا محض خيال للذلك أؤكد

الهامش وتسمح للآخرين أخذ نتائج ما قمت به من عمل بنفسك. أنت حساس وعاطفي وأسوأ عيوبك هو كرمك. سيكبر شأنك كثيراً. الوزن أربعة عشر حجراً وأحد عشر رطلاً.

لقد ازداد وزني أربعة أرطال في الأيام الثلاثة الأخيرة بسبب تناول الخمر.

4

عدت بسيارتي إلى الفندق وركنتها في المرأب ثم تناولت كوباً من الشاي في وقت متأخر لأن البار لن يفتح قبل ساعة أو ساعتين. خرجت أتمشى باتجاه الكنيسة في برودة المساء، وبينما كنت أعبر السوق لاحظت امرأة تمشي أمامي وغير بعيدة عني، ومن أول ما وقعت عيني عليها شعرت كأنني رأيت وجهها في مكان ما سابقاً. لم أتمكن من رؤية وجهها، ولم أستطع التعرف عليها من منظرها الخلفي لكنني أحلف أنني أعرفها. تابعت سيرها في الشارع العام ثم انعطفت في شارع جانبي على اليمين في المكان الذي كان فيه محل العم ايزيكيل. لحقت بها ولم أعرف السبب بالضبط. مبدئياً بسبب الفضول وربما هو نوع من الحيطة من أن يتعرف عليَّ أحد الناس الذين أعرفهم من السابق في بنفيلد. لقد خطر لي أنها قد تكون من بلشلي العربة،

ويجب أن أكون حذراً لأنها إن اكتشفت وجودي هنا ستلغ ميلدا. تابعتها بحذر تاركاً مسافة أمان بيننا، وتفحصتها من الخلف قدر ما استطعت. لم يكن أي شيء جذاب فيها، فهي تميل للطول والبدانة وبين الأربعين والخمسين من عمرها، ترتدي ثوباً أسود وبدون قيمة، إذ يبدو أنها خرجت من بيتها قبل قليل، أما طريقة مشيها فإنها توحي بأن كعب حذائها بالياً. إجمالاً كان منظرها قذراً، وللآن ليس هناك ما يوحي بالتعرف عليها ماعدا الشيء الغامض الذي رأيته من منظرها الخلفي. شيء في حركاتها. دخلت إلى محل صغير من المحلات التي لا تقفل أبوابها أيام الآحاد وأخذت قطعة حلويات صغيرة وورق بقالة، وكانت صاحبة المحل تبيع شيئاً ما مع حامل بطاقات بريدية حيث وقفت امرأتي معها لتمضي بقية يومها. وقفت أيضاً عندما وجدت واجهة محل متظاهراً بالنظر إلى داخله. لقد كانت واجهة محل سمكري وديكور مملوءة بنماذج لورق جدران ولوازم الحمامات وأشياء أخرى كنت هذه المرة على بعد خمس عشرة ياردة منهما ويمكنني سماع حديثهما وهما ترطنان بواحد من أحاديث النساء عندما يردن فقط تمضية يومهن.

نعم هذا ما كان تماماً. هذا مكانها تماماً. قلت لها ماذا تتوقعين؟ إنني لست معصيبة. لكن ما المفاجأة؟ وهل يجب أن نتحدث إلى حجر؟ يا للعار. وهلم جراً. كان

الجو يزداد دفئاً، ومن الواضح أن امرأتي هي زوجة حانوتي صغير مثل الأخرى، وتساءلت إن كانت من معارفي في بنفيلد لكن أخيراً يا إلهي إنها إيلسي ولا مجال للخطأ أبداً. إيلسي أصبحت تلك العجوز الشمطاء السمينة!

صدمت كثيراً ليس بسبب رؤية إيلسي بل بسبب الشكل الذي آلت إليه، وتجمعت للحظة أمام عيوني الحنفيات النحاسية والسدادات المدورة والبورسلان وأشياء بدت خافتة وباهتة وبعيدة لذلك رأيتها ولم أرها، وفي اللحظة التالية انتابني ذعر مميت من أن تعرفني، لكنها نظرت بقوة في عيني وتابعت سيرها فلحقت بها ثانية. قد تعرف أنني الأحمق، وهذا خطير إن تساءلت من أكون، لكن يجب أن ألقي نظرة ثانية عليها في الحقيقة مارست علي نوعاً من السحر المخيف ويمكن القول إنني أراها الآن بعيون مختلفة عن رأيتها من قبل

شيء فظيع! لقد حصلت على أشياء كثيرة من خلال تفحصي لمنظرها من الخلف. مرعب ما تفعله فترة من الزمن في امرأة. منذ أربع وعشرين سنة فقط كانت تلك الفتاة بلون أبيض حليبي وفم مدور وشعر ذهبي كشعر لعبة لكنها الآن تحولت إلى عجوز مكورة الكتفين، تمشي متثاقلة على كعبين معوجين، ولقد أسعدني أنني رجل، إذ لا يمكن له أن يصبح بهذا الشكل فظيع ما حدث لوركيها فقد تلاشى

حصرها وبدت مثل اسطوانة غليظة وطرية أو ككيس من الطحين. لحقت بها مسافة طويلة إلى خارج البلدة وفي شوارع صغيرة قذرة لم أعرفها وانعطفت أخيراً إلى مدخل محل آخر ودخلت. من الواضح أنها تملك ذلك المحل. توقفت لحظة أمام الواجهة وقرأت ج. كوكس حلويات وتبغ. كان محلاً صغيراً أجرب كسابقه الذي دخلت إليه. لونه مصفر بسبب بعض الذباب المتراكم عليه. إنه لا يبيع إلا التبغ ونوعاً رخيصاً من الحلويات، فتساءلت ماذا سأشتري، لكن ذلك لم يستغرق سوى دقيقة أو اثنتين حين رأيت مجموعة من الغلايين الرخيصة في الواجهة وكذلك بعضاً من التبغ. كان علي أن أضبط أعصابي قبل أن أدخل، وربما قد تكون هناك حاجة للكذب المحكم إن حدث وتعرفت علي. اختفت في الغرفة الخلفية من الدكان لكنها عادت عندما نقرت على الطاولة، والآن وجهاً لوجه! توقعت ما رأيته وسبب لي ذلك صدمة كبيرة شبيهة بالصدمة التي أصابتني حين تعرفت إليها. أعتقد عندما تنظر إلى وجه شاب أو ولد فمن المفروض أن تكون قادراً على التكهن بشكله حينما يصبح عجوزاً لأنّ المسألة كلها تتعلق بشكل العظام. ولو سألت نفسي عندما كنت في العشرين وإلسي في الثانية والعشرين كيف ستبدو في السابعة والأربعين هل يخطر ببالي أبداً هذا الشكل. فقد تدلى وجهها كله وكأنه شد إلى الأسفل، وهل تعرف تلك

النوع من النساء اللواتي تشبه وجوههن وجه كلب البولدوغ مثل كبير معلّق وفم تهدلت زواياه للأسفل وعينان مدورتان وجيوب تحتهما مثل الكلب تماماً، ومع كل هذا كان وجهاً أميزه من بين مليون وجه، ولم يبق من شعرها الكثيف سوى القليل وبلون باهت، لم تعرفني، كنت مجرد زبون غريب ورجلاً بديناً غير ممتع.

غريب جداً ما تفعله بوصة أو اثنتان من البدانة، وتساءلت إن كنت تغيرت أكثر منها أم أنها لم تتوقع رؤيتي، أو نسيت وجودي ببساطة وهو الأرجح.

- مساء الخير، قالت بطريقة فاترة.

- أريد غليوناً خشبياً أجبت بصوت منخفض

- غليوناً دعني أتأكد. أعرف أنه عندنا بعض الغلايين في مكان ما لكن أين هي الآن.. نعم ها هي

تناولت علبة كرتونية مملوءة بالغلايين من تحت الطاولة أصبحت لهجتها سيئة أو ربما تخيلت ذلك لأن مقاييسي اختلفت، لكن لا، فقد كانت أفضل واحدة بين كل فتيات محل الليلي وايت وكانت أيضاً عضوة في مائدة المطالعة، وأقسم أنها لم تسقط حرفاً واحداً من كلماتها غريب كيف تتحطم النسوة ويترهلن بعد الزواج أمضيت وقتاً أكثر بين الغلايين متظاهراً بالنظر إليها وقلت أخيراً

- أريد واحداً مبسم من الكهرمان

كهرمان؟ لا أدري إن كان موجوداً

التفت إلى الخلف ونادت (جورج). إذاً اسم الرجل الآخر هو جورج أيضاً، وسمعت ضجيجاً قادماً من آخر المحل.

من كان يتنبأ أن إيلسي ستنتهي على هذا الشكل، وبدت من النوع الذي كان مقدّراً له أن يذهب مع الشيطان. أعرف أنه كان هناك رجل واحد قبلي على الأقل، ومن الاستسلام الرهان موجود آخرين بيني وبين جورج الشاب ولم يكن يدهشني لو عرفت بأنّ لديها ذرية كاملة. لا نقاش في أنني عاملتها بشكل سيء، ولقد سبب لي ذلك الإزعاج مرات كثيرة. وقد ينتهي بها المطاف إلى الشارع أو تلصق رأسها بفرن غاز وأحياناً اشعر بأنني كنت نذلاً وأحياناً أخرى اشعر أنني فعلت الشيء الصحيح، ولو لم أكن أنا لكان هناك شخص آخر. لكن الأشياء تحدث دائماً بطريقة غبية وغير هادفة. كم امرأة انتهت إلى الشارع؟ إن منظرها المتين من الانتهاء في المكواة الاسطوانية على كل حال. إنها لم تصل لا للأسوأ ولا للأحسن. انتهت مثل أي شخص آخر، عجوز بدينة في دكان قذر وصغير مع جورج ذي الشوارب المتدلية بلون الزنجبيل المصفر، وربما عندها سلسلة من الأولاد، السيدة جورج كوكس عاشت محترمة وماتت مرثية وهذا أفضل من أن تموت بسبب الإفلاس. وأخيراً وجدنا علبة لملايين

ولم يكن فيها واحد مبسم كهرماني

لا أعرف لي لدينا ما طلبت، لكن عندنا غلايين جميلة أخرى.

- أريد واحداً بمبسم كهرماني.

عندنا غلايين جميلة هنا.. أنظر إلى هذا، إنه جميل وبنصف جنيه.

أخذته وتلامست أصابعنا، لا حركة ولا ردة فعل تذكر أعتقد أنني سأشتري الغليون من أجل الأيام الماضية وكي أضع نصف جنيه في جيب إيلسي أخذت الغليون ثم وضعته على الطاولة. لكن ذلك لم يحصل ولم أكن أريد شيئاً وأنا لا أدخن الغليون، وربما كان عذراً للدخول إلى المحل، قلبته بأصابعي ووضعته مجدداً على الطاولة لا يهم سأتركه قلت أعطني علبة بليرز صغيرة. كان علي أن أشتري شيئاً بعد كل ذلك الهرج والمرج. ناولني جورج الثاني وربما الثالث أو الرابع علبة بليرز وهو يمضغ شيئاً ولاحظت استياءه لأنني قطعت عليه شرب الشاي دون أن اشتري شيئاً لكنني رأيت أن الغليون لا يستحق إضاعة نصف جنيه من أجل الحصول عليه وكانت تلك آخر مرة أرى فيها إيلسي.

عدت إلى الفندق وتناولت العشاء وخرجت، بعد ذلك راودتني فكرة الذهاب إلى السينما، لكني بدلاً من ذلك نزلت بإحدى الحانات الصاخبة في القسم الجديد من المدينة

وصادفت فيها شابين من ستانفورد كابا يافران لبيع السلع، تحدثنا طويلاً عن أحوال التجارة ولعبنا لعبة السهم وشربت شراب غينيس، وقبل الإغلاق ثملا فوجب عليّ إيصالهما في سيارة أجرة، وكنت أيضاً تحت تأثير الكحول فاستيقظت في اليوم التالي وأنا أشكو من صداع أسوأ من أي وقت سبق.

5

يجب أن أرى بركة بيت بينفيلد.

شعرت أنني في حال سيئة هذا الصباح، وفي الحقيقة فإنني منذ أن ذهبت إلى بينفيلد كنت أشرب الخمر من أول ساعة بعد أن تفتح الحانات أبوابها وحتى ساعة الإغلاق، والسبب في ذلك هو عدم وجود أي عمل أقوم به ولم يكن يخطر ببالي مغادرة الحمرة لثلاثة أيام متواصلة وهذا ما آلت إليه رحلتي. أسرعت نحو النافذة كما فعلت في الصباح السابق فرأيت القبعات المستديرة واللباس المدرسي تتدافع ذهاباً وإياباً. إنهم أعدائي.. هذا الجيش العاري الذي دكّ البلدة وغطى الآثار بالنفايات وأكياس الورق، وتساءلت عن سبب اهتمامي، وأقول بجرأة إنني أصبت بخيبة كبيرة عندما وجدت بينفيلد متورّمة مثل داغنهام. لا مانع أن أرى الأرض ممتلئة بالناس، ولا أن يتحول الريف إلى مدينة. لم يكن ذلك هو السبب أبداً، ولست مهتماً إن امتدت المدن وكبرت

شرط أنها لن تمتد مثل الصلصة المدلقة على غطاء طاولة
إنني أعرف أن المصانع إن لم تكن هنا فستكون في مكان
آخر، ومن الضروري أن يحصل الناس على أمكنة يسكنون
فيها. إن صور المناظر الطبيعية والأشياء الريفية المزيفة
وألواح السنديان والأطباق القصديرية ومقالي لتسخين
النحاسية وما شابهها كانت تزعجني وتقرفني فقط. فنحن مهما
كنا في الأيام السالفة لكننا لم نكن صوراً. لم ترَ أمي أي
معنى لهذه الأشياء القديمة التي ملأ بها محل ويندي بيته،
ولم تحب الطاولات التي تطوى، وقالت إنها تمسك بالساق،
أما بالنسبة للأواني القصديرية فهي أشياء كريهة ملساء. لقد
كنا في الماضي نمسك شيئاً لم نعد نملكه الآن شيء لا
يمكن امتلاكه مع مشارب الحليب المزدحمة لتي تضجّ
بضجيج الراديوات. شيء رجعت إلى سنفلد أبحث عنه ولم
أجده ومع ذلك لا أزال أؤمن، ولو قليلاً، بوجوده قبل أن
أضع طاقم أسناني الاصطناعية الجديدة وتعتاد بطني على
أقراص الاسبيرين وفناجين القهوة.

تمضي كل ذلك للتفكير في ميت بيسفلد ثانية، لكن بعد
رؤية ما فعلوه في البلدة خفت من الذهاب لأرى إن كانت
البركة لا تزال موجودة أم لا، فربما لم يعلم بأمرها أحد
احتضنت البلدة تحت القرميد الأحمر، وتحول بيت إلى نسخة
ويندي وامتلأ النهر بسموم المحركات وأكياس الورق لكن

ربما لا تزال البركة موجودة هناك والسمكة السوداء الكبيرة تسبح في مياهها، وقد تكون مختفية بين أشجار الغابة، ولم يُكتشف أمرها، وهذا محتمل لأنّ الغابة صغيرة وكثيفة جداً ومملوءة بنبات العليق والأغصان المقطوعة المتخشبة، وهي في مكان صعب لا يجازف الناس في اختراقه، ومع هذا لقد حدثت أشياء أشد غرابة.

لم أبدأ الرحلة حتى العصر، أي حينما افترضت أن الساعة كانت الرابعة والنصف عندما أخرجت السيارة من مرأب العدق وقدتها متجهاً إلى لوير بينفيلد، وبعد منتصف التل تضاءلت البيوت حتى أنها تكاد تختفي، وبدأت أرى أشجار الزان، وبعد تفرع الطريق انحرفت إلى اليمين بقصد الالتفاف والعودة إلى بيت بينفيلد، لكنني توقفت فوراً لألقي نظرة على أيكة كنت أقود عبرها، رأيت أشجار الزان نفسها. يا إلهي كيف يمكن أن تكون هي نفسها؟ وكذلك ذات السكون وذات الفراش الوثير من أوراق الشجر الذي تزيد سنة تلو أخرى دون أن يتعفن؛ كذلك لم يكن هناك سوى بعض الطيور الصغيرة التي لا تشاهد على قمم الأشجار. لم يكن من السهل التصديق أن فوضى وضجيج المدينة الكبير التي لا تبعد أكثر من ثلاثة أميال لم يصل إلى هنا بعد. بدأت أشق طريقي عبر الأيكة باتجاه بيت بينفيلد، وتذكرت بصعوبة أين تؤدي كل تلك الدروب. يا إلهي إنه نفس الكهف

الكلـــي حيـث دمـــت عصـابة الكـف الأسـود وبدأت برمي الحجارة بالمقاليع، وعندما روى لنا سيد لوفروف كيف يولد الأطفال، واليوم الذي أمسكت فيه بسمكتي الأولى منذ أربعين سنة تقريباً.

تضاءل عدد الأشجار بشكل لافت، وصار بالإمكان رؤية الطريق الآخر وسور بيت بينفيلد. لقد ختمي كذلك لسور الخشبي المتعفن وحل مكانه سور عالٍ من القرميد والأسلاك الشائكة في أعلاه، كالأسوار التي تتوقع وجودها حول مصحات المجانين. تملكتني الحيرة لبعض الوقت حول كيفية دخولي إلى بيت بينفيلد، فخطر في بالي أن أخبرهم بأن زوجتي مجنونة وأنني أبحث عن مكان لأضعها فيه، وبعدها سيأخذونني في جولة لاستكشاف المكان. قد أبدو في بدلتي الجديدة غنياً وهذا من شأنه أن يسمح لي بوضع زوجتي في مصحة خاصة. ولم يخطر في بالي أيضاً إن كانت البركة لا تزال موجودة داخل المصح. إن أراضي بينفيلد القديمة تمتد على مساحة خمسين فداناً وأراضي المصح لا تزيد عن خمسة أو عشرة فدادين، وبالتأكيد هم لا يريدون بركة يغرق المجانين أنفسهم فيها. كان الكوخ الذي يسكنه العجوز هودجز موجوداً دون أي تغيير، لكن البوابات الحديدية الضخمة وسور القرميد كانت قد استبدلت. لم أعرف المكان من النظر عبر البوابة حتى كانت الممرات مفروشة بالحصى

ومروج خضر وبعدة نماذج تتجول بلا هدف وإني أعتقد أنهم من المجانين. تابعت سيري على الطريق وإلى اليمين شهدت البركة العظيمة التي تعد مائتي ياردة خلف البيت، البركة التي كنت أصيد فيها وربما كانت المسافة مئة قبل أن أصل إلى زاوية السور. إنّ البركة هي إذن خارج أرض المصح لكن الأشجار أصبحت أقل حيث أمكني سماع أصوات أولاداً يا للدهشة ها هي بركتي!

وقفت برهة متسائلاً ماذا حل بها، ثم رأيت ما كان لقد أزيلت كل الأشجار عن حوافها فبدت عارية مثل البركة المدورة في كمستون. لقد كان الأولاد يلعبون على الأطراف بقوارب تجديف وقوارب صغيرة، وكان إلى اليسار الفرس المتعفن القديم بين الأعشاب وهناك خيمة كبيرة وكشك حلويات ولافتة بيضاء كتب عليها.

«نادي بيفيلد الممتاز لبحوث الألعاب».

نظرت إلى اليمين حيث البيوت في كل مكان، بيوت مثل تلك التي هي في الضواحي الخارجية. لقد قُطعت كل الأشجار التي كانت خلف البركة وسويت بالأرض ماعدا بعض الأكمات التي بقيت حول البيوت. إنها بيوت ذات منظر فني، مستعمرات تيودور الرائعة كتلك البيوت التي رأيتها في اليوم الأول على قمة تل شامفورد، لكنها أكثر ولم يبق سوى أيكة صغيرة بمساحة ستة فدادين لم يتم قطعها، وبالمصادفة

المحضة مشيت عبرها في طريقي إلى هنا. لقد أصبحت اوبرينفيلد بلدة بحجم كبير بعد أن كانت مجرد اسم، وبعد أن كانت قطعة أرض مائية تابعة للواربيتفيلد. تجولت حول البركة وكان الصغار على كثرتهم يرشون الماء ويصدرون ضجيجاً عظيماً. بدا الماء ميتاً وخالياً من أي سمكة. لقد وقف هناك رجل يضع نظارة، وكان يراقب الصغار برأس شبه أصلع. وجهه برونزي جداً جرّاء تعرّضه الدائم للشمس، أما مظهره فكان غريباً، فهو يرتدي بنطالاً قصيراً وصندلاً وقميصاً مفتوح الياقة الذي لفت انتباهي نظرة عينيه وهو يتمعن من وراء النظارة. إنه واحد من الرجال الذين لا يكبر عمرهم أبداً، وهم دائماً إما مهووسون بالطعام الصحي أو لهم علاقة بأولاد الكشافة، وفي الحالتين هم رافعون بالنسبة إلى الطبيعة وهذا الجو المكشوف. لقد كان ينظر إلي ويرغب في التكلم:

- لقد كبرت اوبرينفيلد كثيراً، قلت.

- نعم كبرت يا سيدي العزيز. لن نسمح لها أن تكبر وتتوسّع، ونحن نفتخر بأننا ناس استثنائيون هنا. نحن مستعمرة صغيرة فقط ووحيدة ولسنا متطفلين.

- أقصد مقارنة بما كانت عليه قبل الحرب، فقد كنت أعيش هنا عندما كنت ولداً.

- أوه لا شك، ذلك كان قبل هذا الزمن طبعاً، لكن عقار أوبرنفيلد شيء خاص في عالم البناء. إنه عالم صغير

بحد ذاته، لقد صممه المهندس المعماري إدوارد وتكر ومن المؤكد أنك سمعت باسمه طبعاً. نحن نعيش في قلب الطبيعة هنا، وليس لنا أي اتصال بالبلدة، ولوّح بيده نحو لواريبفيلد ذات المصانع الشيطانية السوداء.

كانت له ضحكة طيبة قديمة وطريقة في رسم التجاعيد على وجهه مثل الأرنب. بعد ذلك بدأ يخبرني دون أن أسأله عن أملاك أوبربيفيلد والشاب ادوارد وايتكر المهندس المعماري الذي كان عنده إحساس بتيودور القرن السادس عشر، ذلك الرائع في إيجاد أعمدة حقيقية من عصر الملكة إليزابيث في بيوت المزارع القديمة حيث كان يشتريها بأسعار زهيدة. هذا الرفيق الممتع كان روح حفلات التحري، وهو كان يكرر باستمرار أنهم استثنائيون في أوبر بيفيلد ومختلفون تماماً عن الآخرين، وهم مصممون على إثراء الريف بدلاً من تلويثه (أنا استخدم عباراته حرفياً) وليس هناك أية دور عمومية في هذا العقار.

- هم يتحدثون عن غاردن سيتي ونحن نسمي لوريبفيلد وود سيتي. هنا تشاهد الطبيعة ثم لوّح بيده إلى ما بقي من أشجار. ها هي الغابة البدائية تخيم حولنا، شبب كبرو وسط محيط ذي جمال طبيعي. كلنا مسرورون طبعاً، وهل تصدق أن ثلاثة أرباعنا نباتيون إن الجزارين المحليين لا يحبوننا كذلك يعيش هنا عدد كبير من المشاهير مثل لرونة

الآنسة هيليا ثوراول. ومن المؤكد أنك سمعت به ولـحث النمـي البروفيـور وود وهو ذو شخصية شاعرية جداً ويتجول في الغابة كثيراً لدرجة أن عائلته تبحث عنه في أوقات الطعام يدعي أنه يمشي وسط الحوريات. هل تؤمن بالحوريات؟ أنا اعترف بأنني شكاك قليلاً لكن صوره أكثر إقناعاً. بدأت أتساءل إن كان محدثي أحد الفارين من بيت بيغيلد لكن لا، إنه عاقل تماماً ومجار للموضة فقد عرفت هذا النموذج من النباتيين والحياة البسيطة والشعر وتقديس الطبيعة والتدحرج على الندى قبل الإفطار، وقابلت الكثير منهم في يلينغ منذ سنوات، بعدها بدأ يطلعني على العقار كله. لم يبق شيء من الأيكات لأنها أصبحت كلها بيوتاً، ويا لها من بيوت، هل تعرف تلك البيوت التيودورية المريعة ذات السقوف المجعدة والدعامات التي لا تدعم شيئاً مع حدائق صخرية فيها حمامات إسمنتية للطيور وأقزام جصية يمكن شراؤها من محلات الزهور. يمكنك تخيل تلك العصابة الرهيبة من المهووسين بالطعام وصائدي الأشباح وأبواق الحياة البسيطة التي تحتاج ألف جنيه في السنة لتعيش هنا. حتى الأرصفة كانت مجنونة ولذا لم أتركه يأخذني بعيداً. بعض البيوت جعلتني أتمنى لو كان عندي قنبلة يدوية في جيبي لذلك حاولت أن أثنيه عن المتابعة بالسؤال إن كان الناس يعترضون على السكن بجوار مصحة عقلية، لكن ذلك لم يجد معه نفعاً

وأخيراً وقفت وقلت له:

كانت هناك بركة أخرى بالإضافة إلى البركة الكبيرة وليست بعيدة من هنا.

بركة أخرى؟ بالتأكيد لا توجد ولا أعتقد بوجود واحدة أخرى.

- ربما جففوها، كانت بركة عميقة وستترك حفرة كبيرة وراءها.

ولأول مرة بدا قلقاً وحك أنفه وقال

- أوه طبعاً من المؤكد أنك تدرك أن حياتنا هنا بدائية في بعض نواحيها، وتعرف الحياة البسيطة التي نفضلها بهذا الشكل وبسبب بعدنا عن المدينة نعاني من إزعاجات وعقبات طبعاً لذا فإن جزءاً من تدابيرنا الصحية ليست كافية تماماً حيث لا تمر سيارة نقل النفايات إلا مرة واحدة في الشهر على ما أعتقد

- هل تقصد أنهم حولوا البركة إلى مزبلة؟

- يوجد شيء ما في طبيعة. . . بخجل من كلمة مزبلة، يجب علينا التخلص من العلب القصديرية وما شابهها بالطبع هناك خلف الأشجار

لقد تركوا شجيرات قليلة ليخفوها، لكنها كانت هناك بركتي التي جففوا ماءها فتشكلت حلقة مدورة ضخمة مثل شر بعمق عشرين أو ثلاثين قدماً كان نصفها مملوءاً بالعلب

التصديرية. وقفت وقلت:

من المؤسف أنهم جففوها، فقد كان هناك سمك كبير في تلك البركة.

سمك؟ لم أسمع شيئاً عنه! طبعاً لا يمكن الإبقاء على بركة وسط البيوت والبعوض وتعرف أنها كانت قبل عهدي.

- أعتقد أن هذه البيوت بنيت منذ زمن بعيد.

- أوه منذ عشرة أو خمسة عشر عاماً كما أعتقد.

- كنت أعرف هذا المكان من قبل الحرب. كان كله أيكات آنذاك، ولم يكن هنا أي بيت سوى بيت بينفيلد ولم يبقَ سوى تلك الأيكة الصغيرة هناك التي لم تتبدل

ومشيت عبرها في طريقي.

- أوه هذه أقدس مقدساتنا. لقد قررنا أن لا نبني عليها أبداً فهي مقدسة عند الشباب. الطبيعة تعرف أنت.

وغمزني بنظرة خبيثة كما لو أنه كان يفشي سراً، نحن نسميها بيكسي غلين.

بيكسي غلين؟ تخلصت منه وذهبت إلى سيارتي وتوجهت صوب لواربينفيلد، بيكسي غلين لقد ملأوا بركتي بعلب التصدير قاتلهم الله ودمرهم. قل ما شئت وسمّه سخافة أطفال أو أي شيء لكن ألا يسبب الشيء ما يفعلونه في انكلترا؟ بحمامات الطيور الإسمنتية والأقزام الجصية وعلى

القصدير التي زرعوها مكان إيكات الزان. قد تقول إنني عاطفي وغير اجتماعي، ويجب أن لا أفضل الأشجار على البشر. وأقول إن ذلك يعتمد على نوعية الأشجار ونوعية البشر، ولا يسعك فعل شيء سوى التمني بتفشي وباء الطاعون في أحشائهم.

فكرت بشيء واحد وأنا أهبط التل وهو الانتهاء من فكرة العودة إلى الماضي. إذ ما فائدة محاولة العودة لزيارة المناظر الطبيعية التي عرفتها في طفولتك؟ إنها غير موجودة. لقد آن أوان الهواء، لكن أين هنا يوجد أي هواء. إن سلة القمامة التي نحن في قلبها وصلت إلى طبقة الجو العليا. الأمور سيان عندي، ولم يعد يهمني شيء ولا تزال هناك لدي ثلاثة أيام وسأنعم ببعض الهدوء والطمأنينة وأوقف الاهتمام بإزعاج نفسي بما فعلوه بلوارببنفيلد. أما فيما يتعلق بالصيد فقد تخليت ... عن التفكير به فعلياً في مثل هذه السن. لقد كنت مبلدا على حق.

رميت السيارة في مرآب الفندق، وذهبت إلى صالة الانتظار. كانت الساعة السادسة وحيث شغل أحدهم المذياع لسماع نشرة الأخبار فدخلت الباب في الوقت الذي سمعت به الكلمات الأخيرة القليلة لنداء استغاثة مما هزني، وأعترف أنني سمعت الكلمات الأخيرة:

- إن زوجة هبلدا بولنغ مريضة جداً.

استمر الصوت لحظة وتلاه نداء استغاثة آخر عن بيرسيفال شوت الذي كان آخر من سمع . لم أنتظر لأسمع أكثر، ومشيت مباشرة، دون أن يرف لي جفن، ولم تتعثر خطواتي كي لا أدع أحداً يعرف بأني أب جورج بولينغ زوج هيلدا بولينغ المريضة جداً الوحيدة التي تعرف اسمي في الصالة كانت زوجة صاحب الفندق لأنها رأته في السجل، أما البقية فلا يعرفني أي واحد منهم سوى لشبين المقيمين في الفندق حافظت على هدوء أعصابي ولم تظهر أي علامة عليّ فدخلت إلى البار الخاص الذي فتح أبوابه لتوه وطلبت قدحاً كالعادة علي أن أفكر ملياً فبدأت أحلل الوضع بعد أن شربت نصف القدح أولاً. إذ هيلدا لم تكن مريضة وليس هناك خطورة عليها وأنا متأكد أنها كانت بصحة جيدة جداً عندما غادرت البيت وليس لوقت موعد الأنفلونزا أو أي مرض من هذا النوع. إنها كاذبة ومحتالة لكن لماذا؟ من الواضح أنها إحدى خدعها، فهي كما يبدو كشفت السر بطريقة ما وعرفت أني لست في بيرمنغهام وهذه طريقتها في إرجاعي إلى البيت لأنها لا تحتمل فكرة تواجدي مع امرأة أخرى وهذا أمر بديهي، كما لا يمكنها تخيل أي دافع آخر، وتوقعت أنني سأعود إلى البيت بمجرد سماع النداء لكن أنا أذكى من الوقوع في مثل هذا الفخ لأنني أتذكر كل خدعها السابقة والإزعاج غير المعقول الذي كانت

تستخدمه للإيقاع بي. وعندما أكون في رحلة تشك بصحتها تفحصها بدقة بمساعدة برادشو بالإضافة إلى خريطة للتأكد من أن ما قلته عن تحركاتي حقيقة؛ ومرة لحقت بي إلى كلوشستر وانفجرت في وجهي فجأة في فندق تيمبرس، لكن تلك المرة، ولسوء الحظ، صدف أنها كانت مصيبة. لم يكن عندي أدنى اعتقاد بأنها مريضة لكن في الواقع أعرف أنها ليست مريضة ولا أعرف أن أعبر عن ذلك تماماً.

تناولت كأساً آخر فاستجلت الأمور أكثر. بالتأكيد هناك شيء سوف يحصل عندما أصل إلى البيت، ولا مفر من الشجار بأي شكل. عليها أن تنتظرني ثلاثة أيام أخرى لأنَّ الأشياء التي جئت للبحث عنها غير موجودة وفكرة لاستمتاع بإجازة جذبتني أكثر من غيرها؛ وأعظم ما في الموضوع أن أكون بعيداً عن البيت. سلام تام والأحباب يبيدون كما تقول الآية وقررت فوراً أن أجد امرأة لأنني رغبت بذلك.

سيحدم هذا التفكير القلق هيلدا لكن ما معنى الاتهام إن لم يكن صحيحاً؟

لكنَّ الكأس الثانية فعلت فعلها بحيث بدأت الأمور تمتعني. لم تقدر أن تخدعني، لكنها كانت بارعة مع أنني تعجبت كيف نجحت في أمر نداء الاستغاثة، إذ ليس لدي أي فكرة عن كيفية هذا الإجراء، وهل يستلزم شهادة طبية، أو يكفي إرسال الاسم فقط؟ وانتابني شعور بأن السيدة ويلر

هي المديرة فلمساتها واضحة لكن الأمور سيان عندي حيث يجبرك المدى الذي تصل النساء إليه على الإعجاب بهن

6

خرجت بعد الإفطار سيراً على الأقدام باتجاه السوق حيث كان الصباح جميلاً وساكناً، معتدل البرودة أما الضوء فكان أصفر شاحباً كالنبيذ الأبيض وهو يغمر كل شيء، فامتزجت رائحة الصباح برائحة سيجاري. سمعت أزيزاً قادماً من خلف البيوت، وفجأة ظهر سرب من القاذفات السوداء الكبيرة فوق رؤوسنا. نظرت إلى الأعلى فتوقعت أنها ستقصف وترمي قذائفها فوق رؤوسنا. في اللحظة التالية سمعت صوتاً لا لبس به، ولو كنت هناك لرأيت مثالاً نموذجياً لما يسمونه بالانعكاس الشرطي. كان الصوت صفير قنبلة ومن جهتي لست بحاجة لمن يعرفني به على الرغم من أنني لم أسمعه منذ عشرين سنة وبدون تفكير فعلت ما هو صحيح وألقيت بنفسي على الأرض.

أنا مسرور لأنك لم تشاهدني فلم يكن منظري مشرفاً فقد كنت منبطحاً على الرصيف مثل جرذ علق تحت الباب لم يتصرف أحد مثل سرعتي التي لم تتعد نصف ثانية من صفير القنبلة حيث كان لدي الوقت كي أفكر خشية أن يكون تقديري خاطئاً قبل أن أرتكب حماقة بحق نفسي. وفي

اللحظة التالية جاء صوت هائل مثل يوم القيامة، وتلاه صوت آخر يشبه سقوط طن من الفحم على صفيحة من التنك. كان ذلك صوت القرميد المتساقط. وشعرت كما لو أنني محشورت داخل الرصيف وعرفت الأمر. لقد بدأت ولم ينتظر لصديق العزيز هتلر، فقد أرسل قادماته دون سابق إنذار إذ على الرغم من صدى الارتطام المرعب الذي جمدني من الرأس حتى القدم توافر لي الوقت للتفكير بعظمة تلك القذيفة الكبيرة لدرجة يتعذر وصفها لأن ما سمعته كان ممزوجاً مع الشيء الذي أنت خائف منه والذي يمكّنك من رؤية المعدن المتفجر، فترى صفائح الحديد الكبيرة تنفجر بقوة وتتطاير لكن الشيء الخاص والغريب هو الشعور الذي تحسه وهو يدفعك إلى قلب الواقع والحقيقة وكأن أحداً يوقظك من نومك بسكب دلو من الماء فوقك فيخرجك فجأة رنين المعدن المتفجر من أحلامك لتواجه الحقيقة الرهيبة

تعالت أصوات الصراخ والصياح واختلطت بأصوات فرامل السيارات التي توقفت وتكدست فجأة، أما القنبلة الثانية التي كنت انتظرها فلم تسقط مما دفعني لأن أرفع رأسي قليلاً. كان الناس يتراكضون في كل الاتجاهات وكانت هناك سيارة تنزلق بشكل مائل على الطريق عندما سمعت امرأة تصرخ: الألمان، الألمان، وعلى يميني رأيت بشكل غير واضح وجه رجل أبيض مدوّراً مثل كيس مجعد من

الورق وكان مضطرباً جداً

ما هذا؟ ماذا حدث ؟ ماذا يفعلون ؟

لقد بدأت. هذه قنبلة. انبطح.

لكن القنبلة الثانية لم تسقط بعد، ومرت ربع دقيقة أخرى تقريباً فرفعت رأسي ثانية لا يزال بعض الناس يتمددون وبعضهم الآخر استمروا واقفين كما لو أنهم ثبتوا في الأرض. ارتفعت غيمة ضخمة من الغبار مترافقة مع دخان أسود، ثم رأيت منظراً غير عادي حيث يرتفع الشارع لعدم قليلاً في الطرف الآخر من السوق، وفي أسفل ذلك التل الصغير بدا قطيع من الخنازير، بل سيل ضخم من وجوه الخنازير لكن في اللحظة التالية عرفته بالطبع لم تكن خنازير إطلاقاً إنما كانوا طلاب المدارس الذين وضعوا أقنعة الغاز وعلى ما أعتقد إنهم هربوا باحثين عن مخبأ في الوقت نفسه رأيت خنزيراً أطول وأظنه الآنسة تودجرز وأكرر القول إنني رأيتهم قطيعاً من الخنازير في تلك اللحظة. لملمت نفسي ومشيت في السوق كان الناس قد هدأوا لتوهم وبدأت تحتشد مجموعة صغيرة منهم في مكان الانفجار

– أوه نعم، لم تكن طائرة ألمانية ولم تندلع الحرب بعد لقد كان مجرد حادث إن الطائرات تقوم بتمرين قصف، وكانت محملة بالقنابل ولقد وضع أحدهم يده على الرافعة بالخطأ وسيأخذ توبيخاً بسبب ذلك. اتصل عامل البريد بلندن

وسائل إن كانت هناك حرب وفهم الجميع أنه كان مجرد حادث. لكن مرت فترة مابين الدقيقة والخمس دقائق ظن فيها آلاف الناس أننا دخلنا الحرب

لا تدوم الوظيفة الجيدة طويلاً، وبعد ربع ساعة أخرى سيعدم الجاسوس الأول دون محاكمة قانونية لحقت بالحشد وسقطت القنبلة الثانية في شارع جانبي، وهو الشارع نفسه الذي كان فيه محل عمي ايزيكيل وهي لم تبعد عن المحل أكثر من خمسين ياردة، وعندما وصلت إلى الزاوية سمعت تمتمة وأصوات ألم وتأوهاً كان الناس خائفين ومندهشين، ولحسن الحظ وصلت قبل الإسعاف والإطفاء بدقائق قليلة، ورأيت كل شيء رغم وجود ما يزيد عن خمسين شخصاً في المكان بدا المشهد الأول كما لو أن السماء أمطرت قرميداً وخضاراً، فقد ملأت أوراق الملفوف المكان نسفت القنبلة دكاناً للخضار وأزالته من الوجود، كما نسفت سطح البيت الذي على يمين المحل، وكانت أعمدة سقفه تحترق، كذلك تأثرت كل البيوت المجاورة بشكل كثير أو قليل فتحطمت النوافذ الزجاجية لكن الناس كانوا ينظرون إلى البيت الذي يقع على يسار المحل. لقد كشطت القنبلة جداره الملاصق لمحل الخضار بدقة وكأنه أزيل بسكين، والغريب أن طابقه العلوي لم يصب بأية أضرار. كان المنظر مثل بيت للعبة. صناديق بأدراج وغرفة نوم ومقاعد وورق جدران باهت وسرير

لم يتم ترتيبه بعد وبدا البيت مسكوناً لولا انخساف أحد جدرانه. أما غرف الطابق العلوي فقد تأثرت جداً بالانفجار، فكانت هناك فوضى مريعة وتحطيم ودمار عظيمان من القرميد والجص وأرجل المقاعد وقطع من منصة الأطباق المكسورة ومطربان من المربى تتدحرج في أرض الغرفة وسال منه خيط من المربى، وبجانبه خيط من الدم، وبانت ساق مرمية وسط الأطباق المكسرة. ساق ترتدي سروالاً وجزمة سوداء بكعب مطاطي. إذاً هذا هو سبب الولولة والصياح. ألقيت نظرة أخرى. كان الدم ممزوجاً بالمربى، وعندما وصلت سيارات الإسعاف انصرفت إلى الفندق لأحزم حقيبتي

هكذا انتهيت من لواربينفيلد وسأعود إلى البيت. غادرت فوراً دون أن أنفض الغبار عن حذائي إذ لا أحد يفعل ذلك أبداً. في مثل هذه الحوادث يقف الناس عادة ساعات وهم يتناقشون، ولم ينجز أي عمل يذكر في لواربينفيلد في ذلك اليوم لأن الكل انشغلوا بالحديث عن القنبلة وصوتها وماذا ظنوا عندما سمعوا ذلك الصوت. قالت نادلة الفندق إن فرائصها ارتعدت من الخوف، وإنها لن تذوق طعم النوم العميق بعد اليوم. وماذا تتوقع أكثر؟ لقد اتضح أن القنابل موجودة هنا دون أن يعرف أحد بذلك، وهناك امرأة أخرى قطع نصف لسانها عندما قلعها صوت الانفجار. لقد تصور الناس كلهم الذين في الساحة التي كنت فيها من البلدة أنه

عارة ألمانية، أما أهل الناحية الأخرى فقد علموا بأنه تفجير في معمل الجوارب، ومع ذلك أرسلت وزارة الطيران رجلاً ليقف على الأضرار وأصدرت تقريراً أفاد أن آثار القنبلة محبة للآمال لأنها لم تقتل سوى ثلاثة أشخاص هم الخضري بالإضافة إلى عجوز وزوجته كانا يسكنان في المنزل المجاور له. فالمرأة لم تتهشم أما العجوز فلولا حذاؤه لما تعرفوا إليه، بينما الخضري لم يجدوا له أي أثر، ولو حتى أحد أزرار سرواله ليقرأوا على روحه صلاة الدفن.

شيء مضحك كيف تتململ الأشياء إلى داخلك بالتدريج. ماذا شعرت فعلياً عندما انفجرت القنبلة؟ في لحظة الانفجار أرعبتني وأفقدتني رشدي، وعندما رأيت البيت المدمر وساق الرجل العجوز انتابني ذات الشعور الذي تحسه عندما ترى حادثاً مرورياً. إنه الشعور بالغثيان والقرف طبعاً لأنّ كان ما رأيته كان كافياً للملل من هذه الإجازة المزعومة.

عاودني ذلك الشعور بعد أن تجاوزت ضواحي لواربيفيلد واتجهت شرقاً. وفي مثل هكذا وضع يمكنك أن تعرف كيف يكون الوضع وأنت في سيارة لوحدك. كأن هناك شيئاً طائراً يتجاوزك أو شيئاً في الأسيجة أو سفرات المحرك مما يجعل أفكارك تعمل في إيقاع رتيب وهو الشعور نفسه الذي ينتابك وأنت في القطار. شعور يمكنك من رؤية الأشياء الهامة بمنظور أفضل. وهكذا أدركت بأنّ كل الأشياء

التي كنت أشك في صحتها أصبحت أكيدة الآن. في بدي الأمر أتيت إلى لواربعيلد وفي ذهني السؤال التالي: ما لذي ينتظرنا؟ هل بدأت اللعبة؟ هل يمكن العودة إلى الحياة التي عشناها سابقاً أم هي ولت وإلى الأبد؟ حسناً، لقد حصلت على إجاباتي، لقد انتهت الحياة القديمة نهائياً وعملية البحث عنها مضيعة للوقت. لا يوجد أي طريق يرجعك إلى لواربعيلد كما لا يمكنك إرجاع يونس إلى بطن الحوت، لقد تيقنت من ذلك - لا أعتقد أنك ستتابع سلسلة أفكاري- كان مجيئي إلى لواربعيلد عملاً غريباً وشاذاً، فقد كنت تأكل وتشرب في مكان ما في عقلي طيلة السنوات الماضية في زاوية هادئة كنت أرجع إليها عندما أريد لكن عندما عدت إليها أخيراً اكتشفت بأنها غير موجودة. لقد نسفت أحلامي بقنبلة وخشبة الالتماس أودعتها القوى الجوية للملكية بخمسمائة رطل من مادة ت ن.ت. المتفجرة

يقولون إن الحرب قادمة في عام 1941، وستكون هناك الكثير من الأطباق الخزفية المكسرة والبيوت الصغيرة الممزقة كحقائب الكتف وأحشاء حاسبات الأسهم التي التصقت على البيانو الذي اشتراه في خياله. لكن ما أهمية كل ذلك؟ سأخبرك ماذا تعلمت من إقامتي في لواربعيلد. كل ذلك سيحدث بالتأكيد وكل الأشياء التي تخشيتها في مؤخرة عقلك الأشياء التي ترتعب منها والتي قلت لنفسك إنها مجرد

كابوس أو إنها لا تحدث سوى في البلدان الأجنبية الأخرى القنابل وطوابير الطعام والعصي المطاطية والأسلاك الشائكة والقمصان الملونة والوجوه الضخمة والبنادق الآلية التي ستصوب من نوافذ غرف النوم، أعتقد أن هذا سيحدث كله ولا مفر منه أبداً. قاتل كي تمنعها إن أحببت، أو انظر إلى الطرف الآخر، وتظاهر بأنك لا ترى شيئاً أو احمل معك واخرج بسرعة لتحطم بعضاً من وجوه الآخرين. لا يوجد مخرج، إنها أشياء ستحدث حتماً.

دستُ على دواسة الوقود فأزّت السيارة وهي تصعد التلال وتهبط الوديان، وتدافعت ورائي الأبقار وأشجار الدردار وحقول القمح حتى أصبح المحرك أحمر من شدة الحرارة، وشعرت بذات المزاج الذي انتابني في أحد أيام كانون الثاني(يناير) عندما ذهبت إلى الستراند وحصلت فيه على طاقم أسناني الجديدة. كأسي وهبت القدرة على التنبؤ بدت لي كل إنكلترا، وكل أهلها، وما سيحدث لهم، لكن حتى هذا الحين يتملك شك واحد أو اثنان أحياناً بأنّ هذا العالم كبير جداً ومطمئن بشكل ما بحيث تلاحظ ذلك عندما تقود فيه سيارتك. فكّر باتساع الأرض الهائل التي تمر فوقها عند العبور من زاوية إقليم انكليزي واحد فتشعر أنه مثل سيبيريا. حقول وأيكات زان ومزارع وكنائس وقرى وصلة الأرشبة والبط الذي يبحث عن طعام في الحقول. هل كل

هذه الأمور عصية على التغيير؟ هل هي محكومة لتبقى نفسها بشكل أو بآخر؟ دخلت فوراً إلى ضواحي لندن البعيدة وسرت في طريق اكسبريدج إلى أن وصلت إلى ساوثهول؛ أميال كثيرة من البيوت المتواضعة مع سكانها الذين يحبّون حياة الكسل والتمدن ثم تمتد مدينة لندن والشوارع والساحات والأزقة الخلفية والشقق والأبراج السكنية والحانات ومحلات السمك المقلي ودور السينما ..... الخ على مدى عشرين ميلاً وثمانية ملايين من الأشخاص الذين هم أسرى حياتهم الخاصة الصغيرة التي لا يريدون تغييرها. إن القنابل ليست مصنوعة لتكون قادرة على مسحها من الوجود، كذلك الفوضى التي ستسببها وخصوصيات هؤلاء الناس. فجون سميث الذي يقطع بطاقات مباريات كرة القدم وبيلي ويليامز الذي يروي القصص في صالون الحلاقة والسيدة جونز العائدة إلى البيت ومعها بيرة العشاء. ثمانية ملايين من هؤلاء الناس سيتدبرون الأمر وسينجحون بالتأكيد في الاستمرار بحياتهم التي اعتادوها مع القنابل أو من دونها.

وهم وهراء. لا يهم عدد الناس الموجودين هناك فكلهم في حال واحدة. فالأوقات السيئة والصعبة قادمة والرجال المنظمون قادمون أيضاً، ولا أعرف من هو قادم بعد هؤلاء، وليس مهماً أن أعرف حتى وإنْ كان هناك شيء تهتم به فمن الأفضل أن تقول له الوداع الآن لأنَّ كل ما عرفته سيغرق في الروث مع صليل البنادق الآلية المستمر حول الوقت.

7

لقد تبدل مزاجي وعندما وصلت إلى الضواحي خطر ببالي فجأة أن هيلدا ربما كانت مريضة فعلاً، وقد يكون ذلك بسبب تأثير البيئة عليّ. ففي لواريفيلد سلّمت بشكل بديهي أنها غير مريضة، وقد تظاهرت هي بذلك لتعيدني إلى البيت، لذلك بدا الموضوع لي طبيعياً دون أن أعرف لماذا لكن وأنا أقود السيارة إلى بيلتشلي وعقارات هيسبيريدز أطبقت عليّ وقد حاصرني كسجن من القرميد الأحمر، فعاودتني أفكاري العادية فانتابني شعور مثل ذلك الذي يصيبني في صباح يوم الاثنين عندما يكون ما في داخلي مكشوفاً وواضحاً، فرأيت فداحة وقذارة العمل الذي أضعت فيه الأيام الخمسة الأخيرة التي تسللت فيها إلى لواريبنفيلد لاسترجاع الماضي والعودة إلى البيت مفكراً بهراء التنبؤ بالمستقبل ماذا سيفعل المستقبل لرجل مثلي أو مثلك؟ إن مستقبلنا هو المحافظة على وظائفنا، أما بالنسبة لهيلدا فستظل تفكر بأسعار الزبدة حتى بعد أن تسقط القنابل فوق رأسها.

واكتشفت فجأة كم كنت غبياً لاعتقادي أن هيلدا فعلت هذا. لم يكن نداء الاستغاثة زائفاً حتى لو كان لديها الحيل! وواجهت الحقيقة ببساطتها وبرودتها. لم تكن هيلدا تتظاهر

أو تدعي ذلك، إنها مريضة حقاً مريضة يا للهول! وربما تكون مرمية الآن في مكان ما وتتألم كثيراً، وقد تكون ميتة صدمتني الفكرة وتجمدت من الخوف وصعد البرد إلى أحشائي. أسرعت بالسيارة نازلاً من إيلسبرود بسرعة أربعين ميلاً في الساعة، وبدلاً من أضع السيارة في المرأب كعادتي أوقفتها أمام البيت وقفزت خارجها.

هل أنا مغرم بهيلدا؟ من المؤكد أن هذا السؤال يلح عليك الآن. لا أعرف ماذا تقصد بمغرم، وهل أنت مغرم بوجهك؟ محتمل لا. لكن لا يمكنك تخيل نفسك بدونه، فهو جزء منك. هكذا أشعر نحو هيلدا عندما تكون الأمور جيدة بيننا ولا أستطيع تحمل منظرها، لكن فكرة موتها أو مرضها تجعلني أرتجف من الخوف.

تحسست المفتاح وفتحت الباب فغمرتني رائحة المعاطف المطرية المألوفة. وصحت هيلدا! هيلدا!، لم يرد أحد للحظة كنت أصيح هيلدا هيلدا في الصمت المطبق، وبدأ بعض العرق البارد يتر من عمودي الفقري. ربما نقلت بعربة إسعاف إلى المستشفى قبل قليل، وربما هي جثة هامدة الآن مسجاة في الطابق العلوي من البيت الفارغ. صعدت الدرج راكضاً. خرج الصغيران من غرفتيهما المجاورتين للسلم بثياب النوم. كانت الساعة الثامنة أو التاسعة على ما أعتقد، وكان الضوء قد بدأ بالتلاشي، تعلقت لورا بالدرابزين

اووه بابا أوه بابا لماذا رجعت اليوم؟ قالت أمي إنك ستعود يوم الجمعة.

- إذاً ألم تكن أمكما مريضة؟

كلا. من قال إنها مريضة؟ هل كنت في بيرمنجهام؟

نعم. عودا إلى السرير الآن وإلا ستصابان بالبرد.

- لكن أين هدايانا يا أبي؟

- أي هدايا؟

- الهدايا التي أحضرتها لنا من بيرمنجهام

- سوف ترونها في الصباح.

- لكن ألا يمكن أن نراها الليلة يا بابا؟

- كلا انصرفا وعودا إلى السرير وإلا جلدتكما بالسوط

هي إذاً ليست مريضة، وإنما كانت تتظاهر بذلك والحقيقة لم أعرف إن كنت سعيداً أم آسفاً. لتفت إلى الخلف نحو الباب الأمامي الذي تركته مفتوحاً، ولدهشتي الكبيرة كانت هيلدا قادمة من ممر الحديقة. نظرت إليها وهي متوجهة نحوي مع آخر ضوء قبل حلول الظلام. غريب قبل أقل من ثلاث دقائق كنت في حالة قلق وهياج وعرق بارد يسيل من ظهري خوفاً من احتمال موتها، والآن هي ليست ميتة وفي حالتها المعتادة. هيلدا القديمة بكتفيها النحيلين ووجهها القلق وفاتورة الغاز وأقساط المدرسة ورائحة المعاطف المطرية والمكتب يوم الاثنين وكل الوقائع الأساسية

العميقة التي تعود إليها دون أن تتغير تلك الحقائق الأبدية كما سماها العجوز بروثيوس لقد رأيت أن هيلد لم تكن في مزاج جيد، ورمتني بنظرة سريعة كعادتها عندما يدور في خاطرها شيء ما. نظرة مثل نظرة حيوان هزيل، كدبن عرس مثلا ولم تفاجأ بعودتي لكن:

- أوه لقد عدت للتو أليس كذلك؟

من الواضح أنني رجعت الآن. لم أرد ولم تحاول أن تقبلني واستمرت:

- لا يوجد شيء للعشاء.

بها هيلدا التي تنجح دائماً في قول شيء يثير الكآبة حالما تطأ قدمك عتبة البيت

- لم أكن أتوقع مجيئك، يمكنك أكل بعضاً من الخبز والجبن لكن لا أعتقد أنه بقي جبن لدينا

لحقت بها إلى الداخل، إلى رائحة المعاطف الشتوية ودخلنا إلى غرفة الجلوس. أغلقت الباب وأشعلت الضوء قصدت أن أقول كلامي أولاً وأعرف أن الأمور ستكون أفضل إن أمسكت الخيط بقوة منذ البداية

- والآن ما هذا الشيء القذر الذي تمت به لتخدعني؟

وضعت حقيبتها فوق الراديو وبدت مندهشة فعلاً

- أي خدعة وماذا تقصد؟

- إرسال نداء الاستغاثة.

أي نداء؟ عن ماذا تتحدث يا جورج؟

هل تحاولين القول إنك لم تطلبي منهم أن يبثو نداء استغاثة يفيد بأنك مريضة جداً؟

طبعاً لم أفعل! وكيف يمكن ذلك؟ولم أكن مريضة ولماذا أفعل ذلك؟

وقبل ان أبدأ بالشرح، بدأت أفهم ما حدث. كان الأمر التباساً. إنني لم أسمع من الراديو سوى الكلمات القليلة الأخيرة من النداء، ومن الواضح أنها كانت هيلدا بولينغ أخرى وإنني أعتقد بوجود العشرات من هيلدا بولينغ إن فتشت بدليل الهاتف. إنّ ما حدث يعتبر من الأخطاء الغبية التي تحدث دائماً، كما أن هيلدا لم يظهر عليها القليل من تلك المخيلة التي نسبت فضلها لها. كانت الفائدة من كل تلك القضية هي الدقائق الخمس التي اعتقدت فيها أنها ميتة واكتشفت أهميتها بالنسبة لي، لكن هذا انتهى وتخلص. وبينما كنت أشرح لها، لاحظت مشكلة قادمة من عينيها عندما بدأت تستجوبني بصوت عالٍ وغاضب ومنكد من الدرجة الثالثة لكنه هادئ وواع

- إذاً سمعت النداء في فندق بيرمنغهام؟

- نعم الليلة الماضية على الإذاعة الوطنية

- ومتى غادرت بيرمنغهام؟

- هذا الصباح طبعاً

لقد خططت الرحلة في ذهني في حالة الضرورة للكذب للخروج منها.

غادرت في العاشرة وتناولت الغداء في كوفنتري والشاي في بدفورد.

إذاً عرفت أني كنت مريضة جداً ليلة أمس ولم تغادر حتى هذا الصباح؟

- لكني لم أكن أتصور أنك مريضة. ألم أشرح لك؟ اعتقدت أنها إحدى حيلك وهو الاحتمال الأكبر

- يدهشني أنك غادرت أخيراً

قالت ذلك بكثير من المرارة في صوتها، وعرفت أن هناك شيئاً أكبر بكثير قادم لكنها استمرت بهدوء.

- إذاً غادرت هذا الصباح. أليس كذلك؟

- نعم غادرت حوالي العاشرة، وتناولت الغداء في كوفنتري

- إذاً بماذا تفسر لي هذا؟

وفتحت حقيبتها بقوة وأخرجت قطعة من الورق كما لو كانت شيكاً مزوراً. فشعرت كأنّ شخصاً لكمني لكمة عنيفة في معدتي. هناك دليل دون أن أعرف ما هو لكنه شيء يثبت أنني كنت هارباً مع امرأة. فقدت الحماس والثقة بنفسي، وقبل لحظة كنت متمرداً عليها وغاضباً لأنها أحضرتني من منتصف الطريق بدون مبرر، أما الآن فقد قلبت الطاولة عليّ وظللت

الأوضاع ليس عليك أن تخبرني كيف كنت أبدو في تلك اللحظة لأني أعرف أن الإدانة مكتوبة بحروف كبيرة، وإن لم أكن كذلك فعلا لكنها العادة، فدائماً أكون مخطئاً، ولم أقدر أن أبعد أثر التهمة من صوتي عندما أجبت.

ماذا تقصدين؟ وما هذا الشيء الذي عندك؟

- اقرأه وستعرف.

كانت رسالة من شركة محاماة ومعنونة بذات عنوان الشارع الذي فيه الفندق رويتم

سيدتي العزيزة ردّاً على رسالتك المؤرخة في الثامن عشر نعتقد بوجود التباس ما إنّ رويتم أغلق منذ سنين، وحول المبنى كله إلى مكاتب. لم يذكر أحد أن زوجك الموصوف كان هنا ممكن. ولم أتابع «القراءة»، رأيتها كلها في لحظة وكنت غبياً كي أورط نفسي لكن بقي بعض أمل ضعيف يمكن أن سوندرسن أن يضع الرسالة المعنونة من فندق رويتم في البريد، وفي هذه الحالة يمكن أن أواجهها، لكن هيلدا وضعت الغطاء على تلك الفكرة

حسناً يا جورج، هل رأيت ما هو مكتوب في الرسالة؟ في اليوم الذي غادرت فيه كتبت إلى فندق رويتم ملاحظة قصيرة أسأل فيها إن كنت وصلت، وها أنت ترى الرد الذي وصل لا يوجد مكان بهذا الاسم وبذات اليوم وبالبريد نفسه وصلتني رسالة منك تقول فيها إنك كنت في

الفندق وأعتقد أنك طلبت من شخص أن يودعها لك، هل هذا هو عملك في بيرمنهام!

- لكن هيلدا انظري.

كانت شرطياً عادلاً ولم اقدر أن أنظر في عينيها، استدرت واتجهت نحو الباب

- يجب أن أضع السيارة في المرآب.

- كلا يا جورج، لن تتخلص من الموضوع بسهولة، ستبقى هنا وستستمع إلى ما سأقوله من عملك

- لكن اللعنة يجب أن أشعل الأضواء أليس كذلك؟ فات موعد إشعالها ولا تريدين أن نخالف بأية غرامة

- أنا متأكدة أنك تقدر على تفسير أي شيء يا جورج والمشكلة أنني كنت أصدقك.

- لكنك تقفزين إلى النتائج مباشرة، ما الذي دفعك للكتابة إلى الفندق؟

- كانت فكرة السيدة ويللر، وهي فكرة جيدة جداً كما تبين أخيراً

- أوه السيدة ويللر أليست هي؟ لماذا تتركين هذه المرأة الملعونة تتدخل في شؤوننا الخاصة

- هي ليست بحاجة للتدخل فيها لكن هي التي حذرتني مما كنت تعمله هذا الأسبوع.

فقد رأيت أن أخبرها بأنها كانت على صواب، إنها

تعرف كل شيء عنك يا جورج لأن زوجها كان مثلك.

- لكن هيلدا...

نظرت إليها وقد تحول لون وجهها إلى اللون الأبيض، الطريقة التي تقوم بها عندما تظنني كنت مع امرأة أخرى، امرأة يا ليت كان ذلك صحيحاً.

يا إلهي ماذا سأفعل؟ تنتظرني أسابيع من الإزعاج المرعب والعبوس والملاحظات الخبيثة، وحتى بعد أن تعتقد بأن السلام قد حل تتأخر وجبات الطعام ويريد الأولاد معرفة السبب في ذلك.لكن ما هو البؤس العقلي الذي كان السبب الحقيقي وراء ذهابي إلى لواربينفيلد الذي لم أقدر أن أتخيله في تلك اللحظة.لو أمضيت كل الأسبوع أشرح فيه لهيلدا لماذا ذهبت إلى لواربيفيلد فلن تفهم أبداً، ومن سيفهم عليّ في ايلسمير كلها. لقد بدا الأمر يخفت ويخرج من ذهني. لماذا ذهبت إلى لواربينفيلد ؟ وهل ذهبت إلى هناك؟ لقد بدت بدون معنى في هذا الجو. لاشيء حقيقياً في إيلسيمير سوى فواتير الغاز وأقساط المدارس والملفوف المسلوق والمكتب يوم الاثنين. محاولة أخرى واحدة.

- لكن انظري هيلدا، أعرف بماذا تظنين، لكنك مخطئة وأحلف لك أنك خاطئة.

- كلا يا جورج، إن كنت مخطئة فلماذا كذبت عليّ كل هذا الكذب؟

لا خلاص من ذلك طبعاً. مشيت خطوة أو خطوتين، وكانت رائحة المعاطف الشتوية القديمة قوية جداً. لماذا هربت بتلك الطريقة؟ لماذا قلقت بشأن المستقبل والماضي؟

مهما كانت دواعي فلم أتذكرها إلا بصعوبة لأن الحياة القديمة في لواربينفيلد والحرب وما بعد الحرب وهتلر وستالين والقنابل والبنادق الآلية وطوابير الطعام والعصي المطاطية كلها تلاشت وخبت ولم يبق سوى طابور بائس سوقي برائحة المعاطف الشتوية القديمة. سأقوم بمحاولة أخرى أخيرة.

- هيلدا اسمعيني لدقيقة واحدة فقط. انظري إلي. أنت لا تعرفين أين كنت كل هذا الأسبوع أليس كذلك...

- لا أريد أن أعرف أين كنت، لكن اعرف ماذا كنت تفعل وهذا يكفيني.

- لكن.

عبث وبلا فائدة.. طبعاً لقد وجدتني مذنباً وستتلو علي الآن كل ظنونها، وقد يستغرق ذلك ساعتين وبعدها تظهر ورطة أكبر على قائمة الانتظار لأنه سيخطر في بالها من أين حصلت على النقود لهذه الرحلة ثم تكتشف أنني كنت أخفي عنها سبعة عشر جنيهاً، ولا يوجد أي مانع فعلي من استمرار الشجار حتى الساعة الثالثة صباحاً، ولا فائدة تُرتجى من لعب دور البريء المظلوم. وكل ما أردته هو جبهة أقل

مرارة فخطرت ثلاثة احتمالات في ذهني.

الاحتمال الأول أن أخبرها بما كنت أفعله فعلاً وجعلها تصدق ذلك.

الاحتمال الثاني أن أتظاهر بفقدان الذاكرة.

الاحتمال الثالث أن أدعها تستمر في الاعتقاد أنني كنت مع امرأة وأتحمل النتائج المترتبة دون تذمر.

لكن اللعنة لقد عرفت أي احتمال من هذه الاحتمالات يجب أن يكون!

إن الارتباك المزلزل الذي عمّ انكلترا عام 1939 والسنوات الثمانية عشر التي قضاها جورج بولينغ عاملاً في شركة التأمين وزوجاً لهيلدا المزعجة إضافة إلى هاجسه المرعب من نشوب حرب مدمرة أخرى أعادته للتفكير ببلدته الريفية الصغيرة وسلامها المفقود لكن عودته إلى لوار بينفيلد حررته من وهمه تماماً ليتسلل إلى روحه إحباط ورتابة روايته 1984 الصحيح على مرأى منه

